النص الكامل
الطبعة القانونية الأولى باللغة العربية

أغاثا كريستي

الحِصَان الأَشْهَب







Agatha
Christie



The
Pale Horse



الحِصَانُ الأَشْهَب

لكي يفهم الأحداث الغريبة التي تجري في نُزُل الحصان الأشهب، يعلم مارك إيستربروك أن عليه العودة إلى البدايات... ولكن أين تكمن تلك البدايات بالضبط؟

أفي الضربة الوحشية التي تلقاها الأب غورمان على رأسه؟ أم في زيارته -قبل ذلك بدقائق معدودة- لامرأة على فراش الموت؟ أم أنها في ذلك العنف الذي شهده مارك نفسه في وقت ما قبل ذلك؟

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبَر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفَيْ مليون نسخة!







Dar El - Rateb
e-mail: el-rateb@cyberia.net.lb

مقدمة مارك إيستبروك

يبدو لي أنه يوجد لمعالجة حادث «الحصان الأشــهب» الغريب أسلوبان، ورغم كل النظريات فإنه يصعب تبسيط الأمر. إن المرء لا يستطيع أن يبدأ من البداية حتى النهاية ثم يتوقف؛ إذ أين هي البداية؟ وبالنسبة لأي مؤرخ فإن هذه هي الصعوبة دائماً. عند أي نقطة في التاريخ يبدأ ذلك الجزء المعين من التاريخ؟

وفي هذه القضية، يمكنك أن تبدأ من اللحظة التي ينطلق الأب غورمان من بيته لزيارة امرأة تحتضر، أو يمكنك أن تبدأ قبل ذلك من أمسية معينة في تشيلسي.

وربما أختارُ أنا البدء من تلك الأمسية، طالما أنني أنا الذي أكتب بنفسي الجزء الأكبر من أحداث هذه القصة.

* * *

الفصل الأول

علا صوت آلة القهوة ورائي بفحيح كأنه أفعى غاضبة. كان لصوتها شيء يوحي بالشر، وفكرت بأن معظم ضوضائنا المعاصرة تعطي هذا الإيحاء؛ فصيحات الغضب العالية المرعبة للطائرات النفاثة تعبر السماء ، وتلك الدمدمة البطيئة المخيفة لقطار الأنفاق عندما يقترب من المحطة، والشاحنات الثقيلة التي تهز أركان بيتك عندما تمر أمامه... حتى الأجهزة المنزلية الصغيرة اليوم -رغم أنها مفيدة فيما صُنعت له- تحمل أصواتها نوعاً من التحذير والرعب: جلاية الصحون، والثلاجة، وقدور الضغط، والمكنسة الكهربائية... كلها تبدو وكأن لسان حالها يقول: "... احذر، أنا جنيٌّ مُسخر لخدمتك، ولكن إذا فشلتَ في السيطرة عليّ...".

عالم خطير... إنه عالم خطير فعلاً.

حركتُ الفنجان الموضوع أمامي. كانت رائحته جميلة.

– ماذا تريد أيضاً؟ شطيرة موز ولحم؟

بدت لي تلك تشكيلة غريبة وغير متجانسة؛ فالموز يذكّرني بأيام الطفولة، أما اللحم فيرتبط في ذهني بالبيض. ومع ذلك -عندما تكون في تشيلسي- يجب أن تأكل ما يأكله أهالي تشيلسي. وافقت على شطيرة الموز واللحم.

وبالرغم من أنني عشت في تشيلسي (حيث كانت لي شقة مفروشة هناك في الأشهر الثلاثة الأخيرة) إلاّ أنني كنت أشعر بالغربة في هذه المنطقة. كنت أكتب كتاباً عن مظاهر معينة للفن المعماري المغولي، ولهذا الغرض كان بوسعي العيش في أيّ مكان: هامبستيد أو بلومزبري أو ستريثام أو تشيلسي، الأمر سيان بالنسبة لي. كنت لا أدرك شيئاً مما حولي باستثناء ما كان يهمني في حرفتي، كما أن الجيران المحيطين بي لم يعبؤوا بي أبداً؛ فقد كنت أعيش عالمي الخاص المستقل.

وفي هذه الأمسية -بالذات- عانيت من إحدى تلك التغيرات المفاجئة التي يعرفها جميع الكتاب. الفن المعماري المغولي... الأباطرة المغول... الأسلوب المغولي في الحياة... كل هذه الأشياء ، إضافة إلى جميع المشكلات التي تثيرها الحياة المغولية أصبحت -فجأة- غباراً ورماداً. بماذا تهمني؟ ولماذا أريد الكتابة عنها؟

عدت بضع صفحات إلى الوراء ، وأعدت قراءة ما كتبته. بدا لي كله مكتوباً بأسلوب سيء ومتماثل ولا يثير أي اهتمام.

لقد كان محقاً -دون شك- ذلك الذي قال: "التاريخ هراء" (أهو هنري فورد؟...).

دفعت بأوراق المخطوطة بعيداً باشمئزاز ونهضت ونظرت إلى ساعتي. كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة ليلاً، وحاولت أن أتذكّر إن كنت تناولت العشاء أم لا... ظننت -من خلال أحاسيسي الداخلية- أنني لم أتناوله. الغداء تناولته، نعم، في مطعم أثينام، وقد كان ذلك منذ وقت طويل.

ذهبت وبحثت في الثلاجة. كانت فيها قطعة صغيرة متبقية من لسان مجفف. نظرت إليها فلم أسِغها؛ لذلك خرجت إلى شارع كينغ ودخلت أحد المقاهي التي تقدم القهوة السريعة واسمه مقهى «لويجي»، وكان الاسم مكتوباً بالنيون الأحمر على نافذته. وها أنا أتأمل -الآن- شطيرة الموز واللحم وأنا أفكر في الإيحاءات الشريرة لضوضاء حياتنا اليوم وتأثيراتها على المحيط الذي نوجد فيه.

أزّت ماكينة القهوة في أذني مرة أخرى. أشرت إليهم ليحضروا لي فنجاناً آخر من القهوة ثم نظرت حولي. كانت أختٌ لي تتهمني دائماً بأنني لست قوي الملاحظة ولا ألاحظ ما يدور حولي. كانت تقول: "أنت تعيش في عالم خاص بك". أما الآن فقد لاحظتُ ما يدور حولي. كان من المستحيل أن لا تقرأ عن مقاهي تشيلسي وزبائنها في الصحف كل يوم، كانت هذه فرصتي لتقويم ودراسة الحياة المعاصرة.

كان الجو معتماً في المقهى؛ لذلك لم تكن الرؤية ممكنة

بوضوح، ومعظم الزبائن كانوا من الشباب الصغار. لم يكونوا من جيل الرفض، بل مما يمكن أن أسميه جيل ما بعد الرفض. فقد ظهرت الفتيات قذرات كما أراهن دوماً في هذه الأيام، كما يبدو أنهن يلبسن ملابس ثقيلة بقصد الدفء. لاحظت ذلك عندما خرجت قبل بضع أسابيع لتناول العشاء مع بعض الأصدقاء؛ فالفتاة التي كانت تجلس بجانبي كانت في العشرين من عمرها تقريباً. وكان المطعم حاراً، ولكنها كانت تلبس كنزة صوف صفراء وتنورة سوداء وجوربين من الصوف الأسود والعرق يتصبب من وجهها طوال فترة جلوسها. كانت رائحتها نتنة كرائحة الصوف الذي يتشرب العرق، كما أوحت رائحة شعرها بأنها لم تغسله منذ فترة طويلة. وحسبما قاله أصدقائي، فإنها كانت جذابة جداً، ولكنها لم تكن كذلك في نظري! كنت أرغب لو ألقيتها في حمام ماء ساخن وأعطيتها قطعة من الصابون لتستحم جيداً! وأحسب أن ذلك يُظهر -تماماً- إلى أي مدى كنت بعيداً عن تطورات الزمن...

صحوت من تلك التأملات على صوت قوي مفاجئ؛ فقد بدأت شابتان على الطاولة المجاورة لي شجاراً بينهما. وحاول الشابان اللذان بصحبتهما تسوية الأمور ولكن دون جدوى، وفجأة بدأتا بتبادل الصراخ وصفعت واحدة منهما صاحبتها فقامت الثانية بإيقاع الأولى عن كرسيها. تشابكتا بالأيدي كما يتصارع الرعاع وصرختا وهما تشتمان بعضهما بطريقة هستيرية. كانت إحداهما ذات شعر أحمر أشعث والأخرى ذات شعر

أشقر أملس. لم أعرف سبب الشجار الذي بدأ بينهما، وتدافعت في أذني عبارات الشتائم وصرخات وصيحات الاستهجان من الطاولات الأخرى.

جاء صاحب المقهى (وكان نحيفاً إيطالي القسمات، أظنه هو لويجي الذي أطلق اسمه على المقهى) ليتدخل بينهما بصوت ذي لهجة لندنية خالصة: كفّا عن ذلك... توقفا... توقفا... ستجمعان علينا الناس. سأستدعي لكما الشرطة. قلت لكما توقفا.

لكن الفتاة الشقراء كانت ممسكة بصاحبتها من شعرها تشده بقوة وهي تصرخ: ما أنت سوى قذرة خطافة للرجال!

ردت الثانية: بل أنت القذرة.

ثم قام لويجي والشابان المُحرجان برفقة الفتاتين بالفصل بينهما. كانت الفتاة الشقراء قد نزعت خصلات كبيرة من شعر الفتاة الحمراء وكان الشعر بين أصابعها. رفعت يدها عالياً بنشوة المنتصرة وألقت بالشعر على الأرض.

فُتح الباب المؤدي إلى الشارع بقوة ووقفت «السُلطة» بملابسها الزرقاء عند العتبة! سأل الشرطي بكل فخامة السلطة: "ما الذي يجري هنا؟".

تشكلت على الفور جبهة مشتركة في وجه العدو. قال أحد الشابين: مجرد لهو ولعب.

قال لويجي: هذا كل ما في الأمر.. مجرد لهو بين الأصدقاء.

ثم دفع خصلات الشعر بقدمه تحت أقرب طاولة، وتبسمت المتحاربتان في وجه بعضهما ابتسامة مزيفة. ونظر الشرطي إلى كل واحد من الموجودين نظرات ارتياب.

قالت الشقراء بلطف: إننا ذاهبون الآن... هيا يا دوغ.

وبالصدفة، كان العديد من الزبائن الآخرين يهمون بالخروج. راقبهم الشرطي عابساً وهم يخرجون. كانت عينه تقول إنه قد تغاضى عن **الأمر هذه المرة فقط**... ثم انسحب ببطء.

دفع مرافق الفتاة الحمراء الفاتورة، وقال لويجي للفتاة التي كانت ترتب وشاحها: هل أنت بخير؟ لقد أساءت «لو» التصرف معك بتمزيق شعرك من جذوره بهذا الشكل.

قالت الفتاة دون اهتمام: "إنها لم تؤذِني". ثم ابتسمت له وقالت: أنا آسفة على هذا الشجار يا لويجي.

خرج الجميع وفرغ المقهى. تحسست جيبي لأدفع الثمن، وقال لويجي وهو يرقب الباب: "إنها ذات روح رياضية دون شك". ثم أمسك بالفرشاة وكنس خصلات الشعر.

قلت له: لا بد أن ذلك كان مؤلماً جداً.

اعترف لويجي قائلاً: كنت سأصيح ألماً لو كنت مكانها، لكن تومي هذه ذات روح رياضية حقيقية.

- هل تعرفها جيداً؟

- آه، إنها تأتي إلى هنا في معظم الليالي. اسمها توماسينا تاكرتن. هذا اسمها الكامل، ولكنها معروفة هنا بتومي تاكر، وهي غنية جداً أيضاً. ترك لها والدها ثروة، ولكن ماذا تحسبها تفعل بها؟ إنها تأتي إلى تشيلسي وتعيش في غرفة منتنة قرب جسر واندسورث وتتسكع في المنطقة مع عصابة تعيش كلها على نفس المنوال... وما يدهشني أن لأكثر من نصفهم أموالاً. يمكنهم أن يحصلوا على أي شيء يريدونه ويقيموا في أضخم الفنادق إن أرادوا، ولكن يبدو أنهم يحصلون على شيء من الإثارة من حياتهم بهذا الشكل. نعم... إن ذلك يحيرني.

- لو كنتَ مكانهم: هل كنت ستختار هذه الحياة؟

- أنا رجل عاقل... ولكنني أحصل على أرباح منهم!

نهضت لكي أذهب وسألته عن سبب الشجار.

- آه، لقد سرقت تومي من الفتاة الأخرى صديقها. ولكن صدقني، إنه لا يستحق هذا الشجار عليه!

- يبدو أن الفتاة الأخرى ترى أنه يستحق.

قال لويجي بأريحية: إن «لو» فتاة رومانسية جداً.

لم تكن تلك هي نظرتي للرومانسية، لكني لم أقل ذلك.

* * *

بعد ذلك بأسبوع وقعت عيني على أحد الأسماء في عمود

الوفيات بجريدة التايمز. كان الخبر يقول:

توفيت الآنسة تاكرتن في الثاني من أكتوبر في أمبرلي عن عمر يناهز العشرين عاماً. اسمها توماسينا تاكرتن، وهي الابنة الوحيدة للراحل توماس تاكرتن الحامل للقب فارس، من كارينغتن بارك، أمبرلي. الجنازة خاصة. لا ورود.

* * *

لا ورود للمسكينة تومي تاكر ولا مزيد من الإثارة في الحياة في تشيلسي. لقد أحسستُ بتعاطف سريع مفاجئ مع أمثال تومي تاكر في هذا الزمن. ومع ذلك ذكّرتُ نفسي: "كيف أعرف أن وجهة نظري هي الصحيحة؟ من أكون حتى أسميها حياة ضائعة؟ ربما كانت حياتي أنا، حياتي الهادئة والعلمية المغمورة في بطون الكتب والمنعزلة عن العالم والناس، هي الحياة الضائعة... حياة من الدرجة الثانية. لأكن صادقاً الآن، هل أجد إثارة في هذه الحياة؟ فكرة غريبة جداً. إن الحقيقة بالطبع هي أنني لم أطلب الإثارة، ولكن ربما كان علي أن أطلبها!".

إنها فكرة غريبة ولا تلقى كثيراً من الترحيب من جانبي.

صرفت عن تفكيري تومي تاكر وعدت إلى مراسلاتي. كانت أهم رسالة هي تلك التي تلقيتها من ابنة عمي رودا ديسبارد وتطلب مني فيها تقديم خدمة لها. تعلقت بهذه الخدمة حيث لم أكن أشعر بمزاج للعمل هذا الصباح، وكانت هذه عذراً رائعاً لتأجيل العمل.

خرجت إلى شارع كينغ وأوقفت سيارة أجرة انطلقت بي إلى محل إقامة صديقة لي هي السيدة أريادني أوليفر.

كانت السيدة أوليفر كاتبة روايات بوليسية معروفة مشهورة، وكانت خادمتها ميلي «تنيناً» يحرس سيدته من عاديات العالم الخارجي.

رفعت حاجبيَّ متسائلاً دون أن أتلفظ بالسؤال، فأومأت ميلي برأسها بقوة وقالت: اصعد إليها مباشرة يا سيد مارك. إن مزاجها متعكر هذا الصباح، وقد تستطيع مساعدتها في الخروج من حالتها هذه.

صعدتُ الدرج وطرقت على أحد الأبواب طرقات خفيفة، ثم دخلت دون أن أنتظر السماح لي بالدخول. كانت غرفة عمل السيدة أوليفر كبيرة الحجم وجدرانها مغطاة بورق عليه رسومات طيور مختلفة تبني أعشاشها في غابات استوائية، أما السيدة أوليفر ذاتها فكانت في حالة تبدو أقرب للجنون وتذرع الغرفة جيئة وذهاباً وتتحدث مع نفسها. نظرتْ إليّ نظرةَ لامبالاةٍ قصيرةً ثم أكملت دورانها. كانت عيناها تنظران إلى الجدران دون تركيز، ثم تلقيان نظرة خارج النافذة، ومن وقت لآخر تغلقهما وكأنها تعاني من ألم عظيم.

تساءلت السيدة أوليفر بإلحاح: لماذا؟ لماذا لم يقل الأبله فوراً إنه رأى الببغاء؟ لماذا لم يقل ذلك؟ لم يكن بمقدوره ألاّ يراه! ولكن إن ذكر فعلاً أنه رآه فإن ذلك سيدمر كل شيء. لا بد من وجود طريقة... لا بد...

زمجرت وعبثت بأصابعها بشعرها الرمادي القصير... أمسكته بيد غاضبة ثم قالت وقد نظرت إليّ فجأة: مرحباً يا مارك... إنني سأصاب بالجنون.

ثم تابعت شكواها: ومونيكا أيضاً... كلما حاولت جعلها أكثر لطفاً كلما أصبحت أكثر إثارة للغضب. فتاة غبية... كما أنها راضية بنفسها! مونيكا... مونيكا! أظن أن الاسم غير مناسب. نانسي؟ هل ذلك أفضل؟ جوان؟ الكل اسمهن جوان. سوزان؟ لقد استخدمت هذا الاسم. لوسيا؟ لوسيا؟ لوسيا؟ أحسب أنني أستطيع تخيل فتاة باسم لوسيا: ذات شعر أحمر... تلبس كنزة ذات ياقة مرتفعة... وبنطالاً أسود ضيقاً... أو جوارب سوداء.

لكن هذه الفرحة القصيرة نغّصها تذكّر مشكلة الببغاء، فتابعت السيدة أوليفر مشيتها في الغرفة بحزن وهي ترفع بعض الأغراض عن الطاولات دون تركيز ثم تضعها ثانية في مكان آخر. ثم تنهدت وقالت: إنني سعيدة لأنه أنت.

– هذا لطف منك.

– كان يمكن أن يكون غيرك... امرأة سخيفة تريد مني إقامة سوق خيري، أو رجلاً يريد أن يتحدث عن بطاقة التأمين الخاصة بميلي والتي ترفض ميلي أخذها قطعياً... أو السباك. وقد يكون شخصاً يريد إجراء مقابلة معي... ليطرح تلك الأسئلة المحرجة التي تتكرر في كل حين: ما الذي جعلك تفكرين باحتراف الكتابة؟ كم قصة كتبت؟ كم جمعت من الأموال؟

الخ... الخ... إنني لا أعرف الإجابة على أي واحد منها، مما يجعلني أبدو كالحمقاء. ليس هذا ما يهمني لأنني أظن أنني سأصاب بالجنون بسبب أمر الببغاء هذا.

قلت متعاطفاً معها: أهي فكرة تستعصي على التجسيد؟ ربما كان من الأفضل أن أرحل.

– كلا، لا تفعل؛ فأنت تلهيني عن هذا الموضوع على أية حال.

قبلت هذا الإطراء المشكوك فيه. ثم سألتني السيدة أوليفر بكرم غامض: هل تريد لفافة تبغ؟ هناك بعض اللفافات. انظر في غطاء آلة الطباعة.

– شكراً لك، لدي علبة لفافات. خذي واحدة. آه... لا؛ فأنت لا تدخنين.

قالت السيدة أوليفر: ليتني كنت أدخن... مثل رجال التحري الأمريكيين هؤلاء الذين يضعون علب لفافات التبغ في جيوبهم والتي يبدو أنها تحل كل مشكلاتهم. أتعرف يا مارك، إنني حقاً لا أدري كيف يمكن لأحد أن ينجو بجريمة قتل ارتكبها في الحياة الواقعية. يبدو لي أنك في اللحظة التي ترتكب فيها جريمة قتل يكون كل شيء واضحاً إلى أبعد حد.

– هراء. لقد عملتِ الكثير منها.

– كتبتُ خمساً وخمسين قصة بوليسية على الأقل. نعم،

إن الجريمة سهلة جداً وبسيطة، ولكن حجبها هو الأمر الصعب. أعني: لماذا يكون الفاعل أي شخص آخر عداك؟ إنك تبقى بعيداً أميالاً عن مسرح الجريمة.

- لكن هذا لا يكون في النسخة الأخيرة الكاملة.

قالت السيدة أوليفر بغموض: آه، لكن هذا ما يكلفني كثيراً. قل ما تشاء، ولكن ليس من الطبيعي أن يوجد خمسة أشخاص أو ستة في مكان الجريمة عندما يُقتل شخصٌ ويكون لدى الجميع دافع لقتله... إلاّ إذا كان شخصاً كريهاً إلى حد كبير، وفي هذه الحالة فلن يهتم أحد إن قُتل أو لم يُقتل، ولن يهتم أيضاً بمن قتله.

- لقد فهمتُ مشكلتك. ولكن إن كنتِ قد تعاملتِ معها خمساً وخمسين مرة بنجاح فإنك ستنجحين في التعامل معها مرة أخرى.

- هذا ما أقوله لنفسي المرة تلو الأخرى، ولكني في كل مرة لا أستطيع تصديقه، ولذلك أشعر بعذاب كبير.

أمسكتْ السيدة أوليفر بشعرها وشدته بعنف، فصرختُ: لا تفعلي ذلك، ستخرجينه من جذوره.

- هراء.. إن الشعر قوي. ولكني -عندما أصبت بالحصبة وأنا في سن الرابعة عشرة وكانت حرارة جسمي مرتفعة- تساقط شعري... كل الشعر القريب من جبهتي. كان مخزياً جداً، وقد احتاج ستة أشهر كاملة حتى نما ثانية. إنه شنيع بالنسبة لفتاة؛

فالفتيات يتأثرن كثيراً من هذا. لقد فكرت في هذا الأمر بالأمس عندما كنت في زيارةٍ لماري ديلافونتين في دار الرعاية تلك. كان شعرها يتساقط كما تساقط شعري، وقالت إنها ستضع باروكة عندما تتحسن حالتها... ولكن إذا كنت في الستين من عمرك فإن الشعر لا ينمو مرة أخرى في الغالب.

قلت: لقد رأيت فتاة تشد فتاة أخرى من شعرها من جذوره قبل أيام. (وقد شعرت وأنا أقول ذلك بنبرة فخر خفيفة في صوتي باعتباري امرءاً خَبِرَ الحياة).

سألتني السيدة أوليفر: ما هذه الأماكن الغريبة التي تزورها؟

- حدث هذا في أحد المقاهي في تشيلسي.

- آه، تشيلسي! أظن أن كل شيء يحدث هناك؛ الفوضويون والشيوعيون وجيل الرفض. إنني لا أكتب عنهم كثيراً لأنني أخشى من الخطأ في المفردات والأسماء. أظن أن من الأسلم للكاتب أن يبقى في إطار ما يعرفه. ومع ذلك يمكنك أن تأخذني إلى مقهى في تشيلسي في أحد الأيام... لمجرد إغناء تجربتي.

- في أي وقت تشائين. هذه الليلة؟

- ليس الليلة. إنني مشغولة كثيراً في الكتابة.. أو بالأحرى في القلق لعدم استطاعتي الكتابة. إن ذلك هو -حقاً- أكثر ما يضجر في مسألة الكتابة... رغم أن كل شيء مضجرٌ في الواقع، باستثناء تلك اللحظة التي ترى فيها أن ما تفكر فيه سيكون فكرة

رائعة ولا تحتمل الانتظار. قل لي يا مارك: هل تعتقد أن من الممكن قتل شخص بواسطة التحكم عن بعد؟

– ماذا تقصدين بالتحكم عن بعد؟ أن تضغطي على زر فتنطلق منه إشعاعات قاتلة؟

– لا، لا، ليس الخيال العلمي.

سكتت مترددة ثم قالت: في الحقيقة أنا أعني السحر!

– هل تقصدين الأجسام الشمعية وبداخلها الدبابيس؟

قالت السيدة أوليفر بازدراء: الأجسام الشمعية لا تستحق الذكر. لكن أموراً غريبة تحدث بالفعل في أفريقيا أو في جزر الهند الغربية؛ فالناس يقولون ذلك دائماً... كيف يتلوى السكان على الأرض ثم يموتون. يسمونها هناك «الجوجو» . على أية حال، أنت تعرف ما أعنيه.

قلت: إن كثيراً من ذلك يُعزا هذه الأيام إلى قوة الإيحاء. تقال كلمةٌ لضحية بأن موته قد قرره الطبيب ثم يقوم عقله الباطن بعمل الباقي.

قالت السيدة أوليفر متأففة: لو أشار إليّ شخص بأنني محكوم عليّ بأن أستلقي وَأموت لتلذذت بإحباط آماله!

ضحكتُ وقلت: لأن في عروقكِ دماء غربية اعتادت الشك منذ عدة قرون؛ لا أوهام مسبقة لديك.

– إذن فأنت ترى إمكانية حدوث ذلك؟

– لا أعرف عن هذا الموضوع ما فيه الكفاية حتى أحكم عليه. ما الذي ذكّركِ به؟ هل ستكون رائعتك الجديدة بعنوان «جريمة قتل بالإيحاء» ؟

– لا، يكفيني تماماً سم الفئران القديم أو الزرنيخ أو الأداة الحديدية الثقيلة التي لا تخيب ضربتها، وأفضّل الابتعاد عن الأسلحة النارية إن كان ذلك ممكناً؛ فالأسلحة النارية مخادعة. لكنك لم تأت إلى هنا لتتحدث معي حول قصصي.

– بصراحة، لا. الحقيقة أن ابنة عمي رودا ديسبارد عندها مهرجان في الجمعية و...

– لن أكررها ثانية! أتعرف ماذا حدث في المرة الأخيرة؟ لقد قمت بالتخطيط لمسابقة لكشف القاتل وأول ما حدث هو وجود جثة حقيقية. إنني لم أتخلص بعد من آثار ذلك الحادث!

– إنها ليست مسابقة للبحث عن القاتل. كل ما عليك أن تفعليه هو أن تجلسي في خيمة وتوقعي على قصصك... مقابل خمسة شلنات كل مرة.

قالت السيدة أوليفر متشككة: حـ.. حسناً، لا بأس بذلك. هل سيكون عليّ افتتاح المهرجان؟ أو قول أشياء سخيفة؟ وهل علي ارتداء قبعة؟

أكدتُ لها أن شيئاً من ذلك لن يكون مطلوباً منها، ثم

قلت مشجعاً: وسيكون ذلك لمدة ساعة أو اثنتين فقط. وبعده ربما ستكون مباراة كريكت... لا، أظن أن ذلك لن يحدث في هذا الوقت من السنة. ربما ستكون فقرة للعب الأطفـال، أو مسابقة الثياب التنكرية.

قاطعتني أوليفر بصرخة مدوية: هذه هي.. كرة الكريكت! بالطبع! يراها من النافذة ترتفع في الهواء، فتلفتُ انتباهه.. ولذلك لا يذكر الببغاء أبداً! إن قدومك إليّ جميل يا مارك... أنت رائع!

– إنني لا أفهم تماماً...

– قد لا تفهم، لكنني أفهم... إنها مسألة معقدة ولا أريد إضاعة الوقت في الشرح. إن رؤيتك شيء رائع، وما أريده منك الآن هو أن تذهب... فوراً.

– بالتأكيد، وماذا بخصوص المهرجان؟

– سأفكر في الأمر، لا تزعجني الآن. أين وضعتُ نظـارتي؟ يا إلهي! كيف تختفي الأشياء...؟

* * *

الفصل الثاني

فتحت السيدة جيراهتي باب بيت الأب غورمان بأسلوبها الهجومي الحاد المعتاد. بدا أسلوبها وكأنها تقول: "لقد أمسكت بك هذه المرة!" أكثر مما هو أسلوب استجابة لجرس الباب.

سألت بشكل عدواني: حسناً، وماذا تريد الآن؟

كان الزائر صبياً وقف على عتبات الباب من الخارج، صبياً بدا مهملاً تماماً، وليس من السهل ملاحظته ولا تذكُّرُ شكله، ولد كغيره من الأولاد الكثيرين. وكان مصاباً بالزكام ولذلك كان ينشق بأنفه كثيراً.

– أهذا بيت الكاهن؟

– هل تريد الأب غورمان؟

– إنه مطلوب.

– من الذي يريده، وأين، ولماذا؟

– شارع بينتهول، منزل رقم ٢٣. هناك امرأة يقولون إنها تحتضر، وقد أرسلتني السيدة كوبينز إلى هنا. هل هذا هو بيت الأب غورمان؟ تقول المرأة إنهم بحاجة إليه.

طمأنته السيدة جيراتي وأخبرته أن يبقى مكانه ثم عادت إلى داخل البيت. بعد ثلاث دقائق جاء كاهن كهل طويل القامة حاملاً بيده حقيبة جلدية صغيرة. قال: أنا الأب غورمان. شارع بينتهول؟ أهو الشارع الذي فيه محطة القطار؟

– هذا صحيح. إنه لا يبعد أكثر من بضع خطوات.

انطلقا معاً، وكان الأب غورمان يسير بخطوات واسعة.

– هل قلت إنها السيدة... كوبينز؟ هل هذا هو اسمها؟

– هذه هي صاحبة البيت... التي تؤجر الغرف. إن التي تريدك واحدة من المستأجرات، وأظن أن اسمها ديفيز.

– ديفيز... أنا لا أتذكر؟

– إنها تحتضر الآن، وقالت إنها بحاجة إليك.

أومأ الكاهن برأسه. وصلا إلى شارع بينتهول خلال وقت قصير جداً. أشار الولد إلى بيت قذر مرتفع ضمن صف من البيوت القذرة المرتفعة الأخرى، وقال: هذا هو.

– ألن تدخل معي؟

– لست من أهل البيت. أعطتني السيدة كوبينز شلناً حتى أوصل الرسالة.

– فهمت، وما اسمك؟

– مايك بوتر.

– شكراً يا مايك.

قال مايك "عفواً"، ثم انطلق وهو يصفر، وكأن رهبة موت الآخرين لم تؤثر عليه أبداً.

فُتح باب المنزل رقم ٢٣ وأطلت منه السيدة كوبينز بوجهها الأحمر الضخم ورحبت بالزائر ترحيباً حاراً.

– تفضل... تفضل. أظن أن حالتها سيئة، وكان ينبغي أن تكون في المستشفى وليس هنا. لقد اتصلتُ بهم ولكن الله وحده يعلم متى سيأتي أي منهم، فلقد انتظر زوج أختي ستّ ساعات عندما كسرت ساقه! إنني أعتبره أمراً مخزياً. أية خدمة صحية هذه؟ يأخذون أموالك وعندما تكون بحاجة إليهم لا يأتون.

كانت تسبق الكاهن وهما يصعدان درجات السلم الضيق.

– وما الذي جرى لها؟

– كانت مصابة بالزكام، وبدا وكأن حالتها قد تحسنت، وقد تعجلت الخروج من البيت. على أية حال عادت إلى البيت

الليلة الماضية وهي تبدو كالميتة، فأخذتُها إلى سريرها. لم تأكل أي شيء، كما رفضت حضور الطبيب. وصباح اليوم رأيتها وقد ازدادت الحمى عندها كثيراً وامتدت إلى رئتيها.

- ذات الرئة؟

أصدرت السيدة كوبينز -التي توقفت لالتقاط أنفاسها- صوتاً كأنه صوت محرك بخاري، بدا وكأنه علامة الموافقة.

فتحت الباب بقوة وتنحت جانباً لتسمح للأب غورمان بالدخول وقالت من ورائه: ها هو الكاهن جاء إليك. ستكونين بخير الآن!

قالتها بأسلوب مبتهج ثم تراجعت.

تقدم الأب غورمان. كانت الغرفة مؤثثة بأثاث فكتوري قديم، وكانت نظيفة ومرتبة. وعلى السرير قرب النافذة التفتت امرأة برأسها بحركة واهنة، وعرف الكاهن -على الفور- أنها مريضة جداً.

قالت بعبارات متقطعة بسبب ضيق أنفاسها: لقد جئت... ليس لديّ الكثير... من الوقت. إنه الشر.. الشر... يجب أن... لا يمكن أن أموت هكذا... يجب أن أعترف... أعترف... إن خطيئتي كبيرة... كبيرة...

ثم جالت بعينيها وهما نصف مغمضتين... ثم خرجت من بين شفتيها كلمات مشتتة ذات نغمة موحدة.

اقترب الأب غورمان من السرير وتكلم -كما اعتاد أن يتكلم في مناسبات مماثلة كثيرة من قبل- بكلمات تطمين. خيم الهدوء على الغرفة، وخرج الألم من العينين المعذبتين...

ثم، عندما أنهى الكاهن واجبه، تكلمت المرأة المحتضرة مرة أخرى: إيقاف ذلك... ينبغي إيقافه... أنت ستوقفه.

تكلم الكاهن عبارات للتطمين: سأفعل ما هو ضروري... يمكنك أن تثقي بي.

وصل طبيبٌ مع سيارة إسعاف بعد ذلك بوقت قصير. استقبلتهم السيدة كوبينز قائلة: متأخرون كالعادة... لقد ماتت!

* * *

عاد الأب غورمان مشياً على الأقدام وقد بدأ الليل يرخي سدوله. سيكون ضباب هذه الليلة؛ فالبخار يتكثف بسرعة في الجو. توقف لحظة مقطباً جبينه... يا لها من قصة غريبة خيالية! كم من هذه القصة يمكن أن يُعزا للهذيان والحمى؟ لقد كان بعضها صَحيحاً بالطبع... ولكن كم كان مقدار ذلك البعض؟ على أية حال، كان من المهم كتابة أسماء معينة وهي لما تزل حية في ذاكرته. دخل فجأةً إلى أحد المقاهي وطلب فنجان قهوة وجلس.

تحسس جيب ردائه. آه، السيدة جيراتي... لقد طلب منها أن تخيط البطانة، وكالعادة لم تفعل! لقد دخل دفتره وقلمه وبعض

القطع النقدية (التي كان يحملها في جيبه) إلى داخل البطانة. ضغط حتى أخرج قطعة نقدية أو اثنتين وأخرج القلم، لكن إخراج الدفتر كان صعباً جداً. جاءت القهوة وطلب قطعة من الورق.

- هل تنفعك هذه؟

كانت كيس ورق ممزقاً. أومأ الأب غورمان وأخذها، وبدأ يكتب الأسماء... كان مهماً ألا ينسى الأسماء؛ فمن عادته أن ينسى الأسماء...

فُتح باب المقهى ودخل منه ثلاثة غلمان صغار وجلسوا محدثين جلبة.

أنهى الأب غورمان مذكرته. طوى الورقة وكان على وشك أن يضعها في جيبه عندما تذكر الفتق فيه. عمل ما كان يعمله في الغالب، فدسَّ الورقة المطوية داخل حذائه.

دخل رجل بهدوء وجلس في زاوية بعيدة. ارتشف الأب غورمان رشفة أو رشفتين من القهوة الخفيفة من باب اللباقة فقط، وطلب الفاتورة ودفعها، ثم نهض وخرج. بدا أن الرجل الذي دخل لتوه قد غير رأيه. نظر إلى ساعته وكأنه أخطأ الوقت ونهض ثم أسرع خارجاً.

كان الضباب يتكاثر بسرعة، وأسرع الأب غورمان في خطواته. كان يعرف منطقته جيداً. سلك طريقاً مختصراً بالتفافه من الشارع الصغير القريب من خط السكة الحديدية، وربما شعر

بالخطوات التي تمشي وراءه، ولكنه لم يأبه لها. ولماذا يفعل؟

جاءت ضربة الآلة الثقيلة لتأخذه على حين غرة تماماً. مال إلى الأمام وسقط...

* * *

دخل الدكتور كوريغن غرفة مفتش الشرطة لوجون وهو يصفر ويهذر. قال: لقد فحصت الكاهن.

رد عليه المفتش: وما هي النتيجة؟

- سنوفر المصطلحات الفنية لحين جلسة التحقيق. ضربة قوية ومتقنة بآلة ثقيلة... ربما قتل من أول ضربة، ولكن الفاعل -كائناً من كان- كررها للتأكد. جريمة قذرة جداً.

قال لوجون: نعم.

كان لوجون رجلاً قوي الجسم ذا شعر أسود وعينين رماديتين، وكان سلوكه يعطي انطباعاً مضللاً بالهدوء، ولكن لمحاته والتفاتاته كانت تبدو -أحياناً- معبرة جداً وتكشف جذوره الفرنسية.

قال المفتش متأملاً: أهو عدوان أقذر مما تتطلبه السرقة مثلاً؟

سأل الطبيب: هل كان حادث سرقة؟

- يفترض المرء ذلك؛ فلقد قُلِّبت جيوبُه ومُزِّقت بطانة ردائه.

قال كوريغن: ما كان للمجرم أن يتوقع الحصول على الكثير... إنه رجل فقير مسكين.

– لقد ضربوا رأسه أكثر من مرة ليتأكدوا من وفاته... ولكن لماذا؟

قال كوريغن: توجد إجابتان محتملتان؛ الأولى أن الذي فعلها شاب سفاح شرير يحب العنف من أجل العنف... يوجد منهم الكثير هذه الأيام في هذه المنطقة، وهو أمر مؤسف.

– والإجابة الثانية؟

رفع الطبيب كتفيه حيرة وقال: شخص كان يحقد على الأب غورمان. هل ذلك محتمل؟

هز لوجون رأسه نافياً وقال: مستبعد جداً؛ فقد كان رجلاً محبوباً من أهل المنطقة. وليس له أعداء حسبما نعلم، كما أن السرقة غير محتملة. إلاّ إذا...

– إلاّ إذا ماذا؟ إن الشرطة يملكون دليلاً ما، أليس كذلك؟

– كان معه بالفعل شيء لم يسرقوه منه. كان في حذائه في الواقع.

صفر كوريغن مندهشاً وقال: تبدو مثل قصص التجسس.

ابتسم لوجون وقال: الأمر أكثر بساطة من هذا. كان في جيبه فتق. لقد تحدث الرقيب باين مع مدبرة منزله، ويبدو أنها

امرأة لامبالية. لم تكن تصلح له ملابسه كما ينبغي. لقد اعترفت بأن الأب غورمان كان كثيراً ما يضع ورقة أو رسالة داخل حذائه حتى لا تدخل في بطانة ردائه.

– ألم يعلم القاتل بذلك؟

– لم يفكر بهذا أبداً! هذا على افتراض أن هذه الورقة هي ما كان يريده... وليس النقود القليلة التي كان يحملها.

– وماذا كان في الورقة؟

مد لوجون يده إلى أحد الأدراج وأخرج منه قطعة صغيرة من الورق المتسخ، وقال: قائمة أسماء فقط.

نظر كريغن إليها بفضول وقرأ:

أورميرود
سانفورد
باركنسُن
هيسكيث-دوبوا
شو
هارمُندسورث
تاكرتُن
كوريغَن؟
ديلافونتين؟

رفع حاجبيه دهشة وقال: أرى أنني في القائمة!

سأله المفتش: هل يعني لك أي من هذه الأسماء شيئاً؟

- لا أعرف أي واحد منها.

- ألم تقابل الأب غورمان من قبل؟

- أبداً.

- إذن لن تقدر على مساعدتنا كثيراً.

- هل تعرفون أي شيء عما يمكن أن تعنيه قائمة الأسماء هذه؟

لم يرد لوجون عليه مباشرة، بل قال: ذهب ولد إلى بيت الأب غورمان الساعة السابعة مساء تقريباً. قال إن امرأة تحتضر وأنها تريد الكاهن، وذهب الأب غورمان معه.

- إلى أين؟ إن كنت تعرف.

- نحن نعرف. لم يأخذ التأكد من ذلك منا وقتاً طويلاً. ذهب إلى المنزل رقم ٢٣ في شارع بيتهول. البيت تملكه امرأة تدعى السيدة كوبينز، أما المرأة المريضة فكانت تدعى ديفيز. وصل الكاهن إلى المنزل الساعة السابعة والربع وجلس معها مدة نصف ساعة تقريباً، وقد ماتت السيدة ديفيز قبل أن تصل سيارة الإسعاف لتأخذها إلى المستشفى.

- فهمت.

- وكان ثاني شيء عرفناه عن الأب غورمان هو ذهابه إلى مقهى طوني، وهو مقهى صغير وبسيط. إنه مكان محترم لا تدور

حوله أية شبهات إجرامية، يقدم المرطبات الرديئة ولا يؤمُّه الكثيرون. طلب الأب غورمان فنجان قهوة، ثم تحسس جيبه ولم يستطع أن يعثر على ما كان يريده فطلب من صاحب المقهى (المدعو طوني) قطعة من الورق. هذه...

أشار إلى الورقة بإصبعه وأضاف: هذه هي الورقة.

- وبعد ذلك؟

- عندما أحضر طوني القهوة كان الكاهن يكتب على الورقة. بعد ذلك بوقت قصير غادر المقهى تاركاً قهوته دون أن يتذوقها تقريباً (وهو ما لا ألومه عليه)، وبعد أن أكمل هذه القائمة دسها في حذائه.

- هل كان أحد غيره في المقهى؟

- ثلاثة أولاد مشاكسين دخلوا وجلسوا على طاولة، ثم دخل رجل كهل وجلس على الطاولة الأخرى، وقد خرج دون أن يطلب شيئاً.

- هل تبع الكاهن؟

- يمكن... لم يلحظه طوني عندما خرج، كما لم ينتبه لأوصافه. وصفه فقط بأنه رجل غير واضح المعالم... محترم... شخص عادي جداً. متوسط الطول كما يعتقد ويلبس معطفاً كحلياً... ويمكن أن يكون بنياً. ليس بالأسمر تماماً ولا بالأشقر

تماماً، ولا سبب لديه يدعوه للشك بوجود علاقة له بالحادث. ولكن من يدري؟ لم يتقدم ذلك الرجل إلى الشرطة ليقول إنه رأى الأب غورمان في مقهى طوني... ولكن الوقت ما زال مبكراً. إننا نطلب من كل شخص رأى الأب غورمان بين الثامنة إلاّ ربعاً والثامنة والربع أن يتصل بنا. اثنان فقط استجابا للنداء حتى الآن: امرأة وصيدلي له صيدلية في منطقة قريبة. سأذهب لرؤيتهما الآن. عثر على جثته في الساعة الثامنة والربع ولدان صغيران في شارع ويست... هل تعرفه؟ إنه في الواقع زقاق يحاذي خط السكة الحديدية من الجانب. والبقية... تعرفها.

هز كوريغن رأسه، ونقر على الورقة بيده وقال: ما هو شعورك بخصوص هذه؟

قال لوجون: أظن أنها هامة.

- أخبرته المرأة المحتضرة شيئاً فدون هذه الأسماء على ورقة حالما استطاع ذلك قبل أن ينساها. الشيء الوحيد هو... هل كان سيفعل ذلك إن كانت المعلومات قد قيلت له في إطار اعتراف يُفترض أن يحافظ على أسراره؟

قال لوجون: ليس بالضرورة أن يكون في الأمر تعهد بالسرية. افترض -على سبيل المثال- أن هذه الأسماء لها صلة... بموضوع ابتزاز مثلاً...

- هل هذه فكرتك؟

- ليست عندي أية أفكار حتى الآن. إنها مجرد فرضيات ينطلق المرء منها. ربما تعرض هؤلاء الناس للابتزاز، وربما كانت المرأة المحتضرة هي التي تبتزهم أو أنها كانت تعرف بموضوع الابتزاز. أظن أن الفكرة العامة ستكون في هذه الحالة الندم والاعتراف والرغبة في إصلاح الأمر قدر الإمكان، وقد تولى الأب غورمان مسؤولية ذلك.

- ثم ماذا؟

- كل ما عدا ذلك يحتمل التخمين. لنقل إنها كانت عملية ابتزاز للأموال وأن شخصاً لم يكن يريد توقف عملية الابتزاز هذه. شخص عرف أن السيدة ديفيز تموت وأنها طلبت الكاهن... والبقية معروفة.

قال كوريغن وهو يتفحص الورقة ثانية: إن ما يحيرني الآن هو سبب وجود علامة استفهام بعد الاسمين الأخيرين؟

- ربما كان الأب غورمان غير متأكد من أنه تذكر هذين الاسمين بشكل صحيح.

وافقه الطبيب وقال عابساً: ربما كان هذا الاسم موليغن بدلاً من كوريغن... هذا محتمل، لكنني أظن أن اسماً مميزاً مثل ديلافونتين إما أن تتذكره أو لا تتذكره أبداً... ومن الغريب عدم وجود أي عنوان...

ثم قرأ قائمة الأسماء ثانية: باركنسن... يوجد الكثيرون

ممن يحملون هذا الاسم. سانفورد أيضاً اسم مألوف وشائع... هيسكيث، دوبوا... هذا اسم مميز، لن تجد كثيراً ممن يحملونه.

ثم مال إلى الأمام فجأة وتناول دليل الهاتف عن الطاولة وراح يقلب صفحاته: دعنا نرَ حرف الهاء. السيد... شركة... آه! ها هو: هيسكيث-دوبوا، ليدي، منزل ٤٩ ساحة ليسمير. ما رأيك أن نتصل بها؟

– وماذا نقول لها؟

قال الدكتور كوريغن برقة: سيأتيني الإلهام.

– هيا، اتصل.

حدق كوريغن فيه وقال: ماذا؟

تكلّم لوجون بلطف وقال: قلت لك اتصل. لماذا تبدو مصعوقاً هكذا.

رفع السماعة ونظر إلى كوريغن وقال: الرقم؟

– غروسفينر ٦٤٥٧٨.

كرر لوجون لمأمور البدالة ثم أعطى السماعة لكوريغن وقال: متّع نفسك!

نظر كوريغن إليه محتاراً بينما كان ينتظر. استمر رنين الهاتف لبعض الوقت قبل أن يرفع أحد السماعة، ثم ردت امرأة

بأنفاس متثاقلة وقالت: غروسفينر ٦٤٥٧٨.

– أهذا بيت الليدي هيسكيث-دوبوا؟

– آ... نعم. أقصد...

تجاهل الدكتور كوريغن ترددها وقال: هل يمكنني التحدث معها، من فضلك؟

– كلا، هذا ما لا تستطيع فعله؛ فالليدي هيسكيث-دوبوا ماتت في نيسان الماضي!

– آه!

تجاهل الدكتور كوريغن –في غمرة المفاجأة– سؤالها عن هويته، ووضع السماعة بهدوء.

نظر إلى المفتش لوجون ببرود وقال: إذن هذا السبب الذي جعلك تطلب مني الاتصال بها.

ابتسم لوجون ابتسامة ماكرة وقال: الحق أننا لا نهمل البديهيات.

قال كوريغن متأملاً: نيسان الماضي؟ أي قبل خمسة أشهر. إنها لم تنتحر أو تفعل شيئاً من هذا، أليس كذلك؟

– لا، لقد ماتت نتيجة ورم في الدماغ.

قال كوريغن وهو ينظر إلى الورقة مرة أخرى: إذن نبدأ الآن من جديد.

تنهد لوجون وقال: إننا لا نعرف حقاً إن كان لهذه القائمة أية علاقة بالأمر. ربما كانت مجرد حادثة اعتداء في ليلة ضبابية... وأملنا ضئيل باكتشاف الفاعل إلاّ إذا واتتنا ضربة حظ.

– هل تمانع إذا ما واصلت التركيز على هذه القائمة؟

– افعل ما تشاء، وأتمنى لك حظاً سعيداً.

– تعني أن من غير المحتمل أن أصل إلى نتيجة ما دمتَ لم تصل إليها أنت! لا تكن واثقاً جداً من نفسك. سوف أركز على كوريغن؛ السيد أو السيدة أو الآنسة كوريغن... مع علامة استفهام كبيرة أمام الاسم.

* * *

الفصل الثالث

قالت السيدة كوبينز: لا أدري حقاً يا سيد لوجون ما هي الأمور الأخرى التي أستطيع قولها لك! لقد أخبرت رقيبكم بكل شيء. لا أعرف من هي السيدة ديفيز هذه أو من أين هي، إنها تقيم عندي منذ ستة أشهر فقط. كانت تدفع أجرتها بانتظام وكانت تبدو امرأة لطيفة هادئة ومحترمة، ولا أدري ما الذي تتوقع مني قوله غير ذلك.

سكتت السيدة كوبينز لتأخذ نفساً ونظرت إلى لوجون بشيء من الضيق. ابتسم لها ابتسامته الرقيقة المكتئبة التي كان يعرف من خلال خبرته أن لها تأثيرها.

عدلت موقفها وقالت: هذا لا يعني أنني لا أرغب بمساعدتك إن استطعت.

– شكراً لك. هذا ما نريده... المساعدة. فالنساء يعرفن..

لهن قدرة غريزية على المعرفة... أكثر بكثير من الرجل.

كانت ملاحظة جيدة آتت أُكُلها. قالت السيدة كوبينز: آه، ليت زوجي كوبينز يستطيع سماعك. كان رجلاً متعجرفاً، وكان يقول لي متأففاً: "تقولين بأنك تعرفين أشياء بينما ليس لديك أي أساس لما تدّعين!". وغالباً كنتُ على صواب.

– هذا ما يجعلني راغباً في سماع ما لديك عن السيدة ديفيز. هل كانت امرأة بائسة حزينة برأيك؟

– بالنسبة لهذه النقطة... لا، لا أظن ذلك. كانت عملية. بدت دائماً عملية ومنهجية؛ وكأنها خططت لحياتها وكانت تسير وفق ما خططت. فهمتُ أنها كانت تعمل في وظيفة مع إحدى جمعيات بحوث المستهلك، ممن يتجولون ويسألون الناس عن مساحيق الغسيل التي يستعملونها أو عن الطحين الذي يستهلكونه وما هي مصروفاتهم الأسبوعية وكيف يقسمونها... كنت أشعر -دوماً- أن هذا العمل فيه نوع من التطفل على الناس، ولا أدري لماذا تريد الحكومة أو أية جهة أخرى معرفة ذلك! إن كل ما تسمعه بعد الانتهاء من هذا العمل هو ما يعرفه الجميع تماماً منذ البداية. ولكن... ولكن توجد «صرعة» للقيام بمثل هذه الأشياء في الوقت الحاضر. وإذا أردت أن تعرف فإنني أظن أن السيدة ديفيز المسكينة كانت من النوع الذي يؤدي هذه المهمة على أتم وجه. ذاتِ أسلوب جذاب، غير فضولية وعملية تهمها الحقائق الموضوعية.

– هل تعرفين اسم المؤسسة التي كانت تعمل بها؟

– لا، لا أعرف.

– هل ذكَرَتْ وجود أي أقارب لها؟

– لا. فهمتُ أنها كانت أرملة وأنها فقدت زوجها منذ سنوات عديدة. كان رجلاً مقعداً، لكنها لم تتحدث عنه كثيراً.

– ألم تذكر من أين جاءت... من أي منطقة في البلاد؟

– لا أظنها من لندن. لعلها جاءت من بلدةٍ ما في الشمال.

– ألم تشعري بوجود شيء غامض فيها؟

أحس لوجون بالشك وهو يتكلم. لو أنها كانت امرأة تتأثر بآراء الآخرين بسهولة... ولكن السيدة كوبينز لم تستفد من الفرصة التي مُنحت لها وقالت: لا يمكنني القول إنني أحسست بشيء غامض فيها، وبالتأكيد لم يكن في أي شيء قالته غموض. ربما كان الشيء الوحيد الذي جعلني أتساءل وأحتار هو حقيبة ملابسها. كانت من نوعية جيدة، ولكنها لم تكن جديدة، كما أن الحروف الأولى المرسومة عليها كانت «ج.د.»؛ أي جيسي ديفيز. ولكنها كانت في الأصل «ج» وحرفاً آخر، أظن أنه «هـ»... لكنه ربما كان «أ» أيضاً. ومع ذلك لم أفكر في أي شيء من ذلك في ذلك الوقت. تستطيع دائماً أن تشتري حقيبة مستعملة جيدة ورخيصة جداً، ثم من الطبيعي أن تغير الاسم المكتوب عليها. لم تكن لديها أغراض كثيرة وإنما حقيبة واحدة فقط.

كان لوجون يعرف هذا؛ فالممتلكات الشخصية للمـرأة المتوفاة كانت قليلة إلى حد يدعو للاستغراب. لم تكن تحتفظ بأية رسائل ولا صور، وكان واضحاً أنها لم تكن تملك بطاقة تأمين ولا دفتر حساب بنكي ولا دفتر شيكات. وكانت ملابسها شبه جديدة ومن النوعية الجيدة التي تصلح للاستخدام اليومي.

سألها المفتش: هل كانت تبدو سعيدة؟

- أظن ذلك.

ركز على نبرة الشك الضعيفة التي أحسها في كلامها.

- تظنين ذلك فقط؟

- إنه شيء لا يفكر فيه الإنسان في الظروف العادية، أليس كذلك؟ أظن أنها كانت في بحبوحة من العيش، وتعمل في وظيفة جيدة وراضية تماماً بحياتها. لم تكن من النوع المتحمس كثيراً. ولكن بالطبع عندما مرضت...

حاول تشجيعها: نعم، عندما مرضت؟

- كانت مختاطة في البداية. أقصد عندما أصيبت بالزكام. قالت إن الزكام سيربك برنامج عملها كله، بحيث تضيع عليها المواعيد وغير ذلك. لكن الزكام هو الزكام ولا يمكنك أن تتجاهله عندما تصاب به. ولذلك لزمت سريرها، وكانت تعمل لنفسها الشاي على سخان غاز صغير وتتناول الأسبرين. سألتها: "لماذا لا تحضرين الطبيب؟"، فقالت بأنه لا فائدة من ذلك؛ فلا

شيء ينفع الزكام سوى الراحة في السرير وطلب الدفء، وطلبتْ مني ألا أقترب منها حتى لا أصاب بالعدوى. طبختُ لها بعض الطعام عندما تحسنت حالتها، بعض الحساء الحار مع الخبز والأرز من وقت لآخر. لقد أغمها الزكام وأزعجها ولكن ليس أكثر من المعتاد، فالاكتئاب يصيب المريض بعد انخفاض الحمى... وقد أصيبت بذلك كما يصاب به أي مريض آخر. جلستْ هناك قرب مدفأة الغاز وقالت لي: "أتمنى ألا يتاح لي الوقت الكثير للتفكير. لا أحب وجود وقت للتفكير... إن هذا يصيبني بالاكتئاب".

ظل لوجون مصغياً تماماً لحديث السيدة كويينز، وتشجعت هي فمضت قائلة: أعرتُها بعض المجلات، لكنها لم تكن قـادرة على التركيز على القراءة. أتذكّر أنها قالت ذات مرة: "إذا لم تكن الأمور كما ينبغي أن تكون عليه فمن الأفضل ألاّ نعرف عنها شيئاً، ألا توافقين على ذلك؟". وقلت لها: "هذا صحيح يا عزيزتي"، فقالت: "لا أدري، ولكنني لم أكن في حياتي متأكدة متيقنـة". وقلت لها بأنه لا بأس في ذلك. ثم قالت لي: "كل شيء عملتـه كان دوماً مستقيماً وفوق الشبهات. ليس عندي ما أؤنب نفسي عليه." وأجبتها: "بالطبع يا عزيزتي".

لكن تساءلتُ في نفسي إن كانت قد حدثت في الشركة التي تعمل بها بعض الأمور الغريبة في الحسابات، وشعرَتْ هي بها أو ارتابت ولكنها أحست أن ذلك ليس من شأنها.

وافقها لوجون قائلاً: هذا ممكن.

– على أية حال، لقد تحسنت صحتها مرة أخرى... أو كادت، وعادت إلى عملها. قلت لها: "هذا مبكر جداً... أعطِ نفسكِ يوماً آخر أو يومين"... وقد كنت محقة في ذلك؛ فقد عادت في مساء اليوم التالي فرأيت أنها أصيبت بحمى مرتفعة ولم تستطع الصعود إلى غرفتها. قلت لها إن عليها أن تحضر الطبيب لكنها لم تقبل، وزادت صحتها سوءاً في ذلك اليوم، وباتت عيناها كامدتين وخدّاها كالنار وتنفسها فظيعاً. وفي مساء اليوم التالي قالت لي وهي تخرج الكلمات بصعوبة: "الكاهن... لا بد لي من كاهن وبسرعة، قبل أن يفوت الأوان".

بقي لوجون مصغياً ومضت هي قائلة: رأيت الولد مايك في الشارع فأرسلته إلى الأب غورمان، واتصلت بالطبيب في المستشفى على مسؤوليتي الخاصة دون أن أقول لها ذلك.

– هل أخذت الكاهن إلى غرفتها عندما جاء؟

–نعم، وتركتهما معاً.

– هل قال أي منهما شيئاً؟

– لا أتذكر هذا بالضبط. أنا التي تحدثت وقلت لها: "ها هو الكاهن"، وقلت لها إنها ستكون بخير في محاولة مني لإدخال البهجة على قلبها... ولكني أتذكر الآن أنني عندما أغلقت الباب سمعتها تقول شيئاً عن الشر. نعم، كما سمعتها تقول شيئاً مثل «حصان» أو ما شابه ذلك.

قال لوجون: الشر؟!

أثارت تلك الكلمة خياله؛ «شر»... رأى أن الشر يكتسب مغزى خاصاً عندما يُلاحَقُ الكاهن الذي عرف بأمره ويُضرَبُ ليخرَّ صريعاً...

* * *

لم يجد المفتش ما يمكن معرفته من المستأجرين الثلاثة الآخرين في البيت. كان اثنان منهم (وهما موظف في أحد البنوك ورجل كهل يعمل في محل أحذية) يسكنان في البيت منذ بضع سنوات، أما الثالث فهي فتاة في الثانية والعشرين جاءت إلى المكان حديثاً وحصلت على عمل في أحد المحلات الكبرى القريبة، والثلاثة كانوا يعرفون السيدة ديفيز بالشكل فقط.

أما المرأة التي أبلغت الشرطة بأنها شاهدت الأب غورمان في الشارع في ذلك المساء فلم يكن لديها معلومات مفيدة لتعطيها؛ فقد كانت تعرفه بالشكل فقط، وقد رأته وهو يدخل مقهى طوني الساعة الثانية تقريباً. وكان ذلك كل ما عندها.

أما السيد أوزبورن، صاحب الصيدلية الواقعة عند زاوية شارع بارتون، فقد كانت لديه معلومات أفضل. كان رجلاً صغير الجسم متوسط العمر، أصلع الرأس ذا وجه مستدير بريء، ويلبس نظارات. قال: مساء الخير أيها المفتش. هل تريد الجلوس في الداخل؟

رفع الخشبة القديمة التي كانت تحجزه عن الزبائن ليدخل منها المفتش. دخل لوجون وعبر غرفة أدوية صغيرة حيث كان شاب يلبس معطفاً أبيض يُحضّر زجاجات الأدوية بخفة الساحر المحترف، ومن هناك دخلا غرفة أخرى صغيرة فيها كرسيان مريحان وطاولة ومكتبة. أغلق السيد أوزبورن الستارة التي تغطي مدخل الغرفة المقوّس كمن يكتم سراً، وجلس على أحد الكراسي وهو يشير إلى لوجون بالجلوس على الكرسي الآخر.

مال إلى الأمام وعيناه مليئتان بالإثارة وقال: لقد صدف أن استطعت أن أساعدكم؛ فلم نكن مشغولين كثيراً في العمل في تلك الأمسية إذ لم يكن لدينا الكثير لنعمله بسبب رداءة الجو. كانت الموظفة تقف وراء الكاونتر، فصيدليتنا تظل مفتوحة حتى الساعة الثامنة أيام الخميس دائماً. كان الضباب يزداد ولم يكن في الشارع أناس كثيرون. ذهبت إلى الباب لكي أرى حالة الجو، وفكرت بأن الضباب كان يزداد بسرعة (نشرة الأحوال الجوية قالت إن ذلك سيحدث). وقفت هناك قليلاً، فكل ما كان يجري في الداخل كانت الموظفة كفيلة بمعالجته والتعامل معه. ورأيت الأب غورمان قادماً من الجانب الآخر للشارع. أنا أعرف شكله جيداً بالطبع. كانت جريمة القتل هذه حادثاً صاعقاً، لأن الضحية رجل معروف بحسن سيرته. قلت في نفسي: "ها هو الأب غورمان". كان ذاهباً في اتجاه شارع ويست، عند المنعطف الثاني على اليسار قبل خط السكة الحديدية كما تعرف، وخلفه بقليل كان يسير رجل آخر. ما كان ليخطر لي أن ألاحظ أو

أفكر بأي شيء خاص في ذلك، لولا أن هذا الرجل توقف... توقف فجأة... تماماً عندما كان مقابل باب صيدليتي. تساءلتُ عن سبب وقوفه، وبعدها لاحظت أن الأب غورمان المتقدم عنه قليلاً كان يبطئ خطواته، ولم يتوقف تماماً، وكأنه يفكر في أمر ما باستغراق جعله ينسى أنه يسير في الشارع. ثم واصل سيره، وبدأ هذا الرجل يمشي هو الآخر بخطوات سريعة، وفكرت أنه ربما كان يعرف الأب غورمان ويريد اللحاق به ليتكلم معه.

– لكنه في الواقع ربما كان يتبعه، أليس كذلك؟

– هذا ما أنا متأكد الآن من أنه كان يفعله... لكني لم أفكر به في ذلك الوقت. ثم –مع تصاعد الضباب– غاب الاثنان عن ناظري تماماً.

– هل يمكنك أن تصف لي هذا الرجل؟

لم يكن في صوت لوجون ما يدل على الأمل والرجاء، وكان مستعداً لسماع الأوصاف المعتادة المبهمة التي لا تشفي غليلاً. ولكن السيد أوزبورن كان من معدن يختلف عن معدن طوني صاحب المقهى؛ إذ قال بشيء من الرضا عن الذات: نعم، أظن ذلك. كان رجلاً طويلاً...

– طويلاً؟ كم طوله؟

– حوالي مئة وثمانين سنتمتراً على الأقل (مع أنه ربما بدا لي أطول مما هو عليه لأنه كان نحيفاً جداً)، وله حنجرة بارزة

تماماً، وقد برز شعره طويلاً من تحت قبعته، وله أنف معقوف كبير ملفت حقاً للنظر. ولكن بالطبع لم أتبين لون عينيه، ذلك أني لم أرَ إلاّ منظره الجانبي. لعله كان في الخمسين من عمره، وقد حكمت عليه من خلال مشيته، فالشاب يمشي بطريقة مختلفة تماماً عن الكهول.

كوّن لوجون في ذهنه صورة للمسافة بين الصيدلية والجانب الآخر من الشارع، ثم عاد بوعيه ثانيةً إلى السيد أوزبورن وقد أخذ منه العجب كل مأخذ...

إن وصفاً كهذا الذي أعطاه الصيدلي قد يكون نابعاً من خيال نشيط غير عادي. وقد سبق للمفتش لوجون أن عرف الكثير من الأمثلة على هذا النوع مأخوذة من النساء غالباً؛ ذلك أنهن يرسمن صورة خيالية لما يجب أن يبدو عليه القاتل في نظرهن، وهذه الصور الوهمية تحتوي -في العادة- على بعض التفاصيل الزائفة كالعينين الجاحظتين والحاجبين الكثين وفكين يشبهان فكي القرد والضراوة البالغة. أما الوصف الذي أعطاه السيد أوزبورن فقد بدا وصفاً لرجل حقيقي. ومن المحتمل -في هذه الحالة- أن يكون شاهداً نادراً... أن يكون رجلاً لاحظ بدقة وتفصيل، ولن يتردد في التأكيد والإصرار على ما رآه.

وفكر لوجون مرة أخرى في المسافة عبر الشارع، ثم ركز بصره على الصيدلي سائلاً: هل باستطاعتك التعرف إلى الرجل إذا رأيته ثانية؟

- آه، نعم.

قالها السيد أوزبورن بكل ثقة ثم تابع قائلاً: إنني لا أنسى وجهاً رأيته أبداً... إنها إحدى هواياتي، ولطالما كنت أقول إنه لو قدر لواحد من أولئك الذين يقتلون زوجاتهم أن يأتي إلى صيدليتي ليشتري علبة صغيرة من الزرنيخ فسيكون باستطاعتي التعرف عليه في المحكمة دون شك. وكنت دائماً أرجو أن تتحقق أمنية كهذه في يوم من الأيام.

- لكنها لم تحدث بعد؟

اعترف السيد أوزبورن حزيناً أن ذلك لم يحدث، ثم أضاف بأسف: ومن غير المرجح أن يحدث الآن، فسوف أبيع الصيدلية. لقد حصلت على سعر مُجزٍ لها، وسوف أعود إلى بورنماوث.

- إن لك صيدلية جيدة هنا.

ردَّ عليه أوزبورن باعتزاز: إنها صيدلية راقية؛ فعمرها يقترب من المئة عام، وقد عمل بها من قبل جدي ثم أبي. إنها مهنة قديمة تتوارثها العائلة. إنني أفتخر بها، ولدينا دائماً أدوية جيدة وموثوقة. صحيح أن الصيدلية قديمة الطراز، ولكنها تركز على جودة عالية لما تقدمه. ولكن هذه الأيام...

هز رأسه بحزن وقال: عمل الصيدليات يخيّب الآمال... عليك أن تبيع فيها هذه المواد المستخدمة في المراحيض. إن نصف الأرباح تأتي من هذه القاذورات؛ البودرة وأحمر الشفاه

وكريم الوجه وشامبو الشعر والحقائب الإسفنجية الباهظة الثمن. إنني لا ألمس هذه البضاعة شخصياً؛ فلديّ سيدة تقوم بكل هذا العمل. لا، لم تعد مهنة الصيدلي كما كانت من قبل. ومع ذلك فقد وفرتُ مبلغاً جيداً منها وسوف أحصل على سعر جيد، وقد دفعت عربوناً لشراء بيت جميل وصغير قرب بورنماوث.

ثم أضاف بعد تأمل: تقاعد وأنت ما زلت قادراً على الاستمتاع بالحياة... هذا هو شعاري. لديّ الكثير من الهوايات؛ كصيد الفراش -على سبيل المثال- ومراقبة الطيور من وقت لآخر، وأعمال الحديقة أيضاً... وأملك الكثير من الكتب عن كيفية الاعتناء بالحديقة. وأيضاً لديّ خيار السفر، فقد أذهب في واحدة من تلك الرحلات... لأرى البلاد الأجنبية قبل أن يفوت الأوان.

نهض لوجون، وقال: أتمنى لك حظاً سعيداً، وإذا ما حدث وأن لمحت ذاك الرجل قبل أن ترحل عن هذه المنطقة...

- سأخبرك على الفور يا سيد لوجون... هذا أمر طبيعي، يمكنك الاعتماد عليّ؛ فهذا يسعدني، وكما قلت لك فإنني بارع في تذكر الوجوه. سأظل أراقب. وسأبقى متيقظاً. أجل، يمكنك بالتأكيد الاعتماد علي. سيكون ذلك من دواعي سروري.

* * *

الفصل الرابع

خرجتُ من مسرح «أولد فيك» وصديقتي هيرميا ريدكليف بجانبي، وكنا قد ذهبنا لمشاهدة مسرحية «ماكبث». كان المطر ينهمر غزيراً، وبينما كنا نركض لنعبر الشارع إلى حيث أوقفت سيارتي قالت هيرميا بانفعال: "إن الدنيا تمطر كلما ذهب المرء إلى مسرح أولد فيك". وأضافت قائلة: إنها واحدة من تلك الأمور الغريبة التي تحدث أحياناً.

عارضت نظرتها تلك وقلت لها بأنها لا تتذكر إلاّ الأوقات الممطرة.

أكملت هيرميا بينما كنت أُشغّل السيارة: أما في غليندبورن فقد كنتُ دائماً محظوظة. لا أستطيع أن أتصورها بصورة غير الكمال: الموسيقى، وأحواض الزهور الرائعة... حوض الزهور البيضاء على وجه الخصوص.

ناقشنا ذلك الموضوع لبعض الوقت ثم قالت هيرميا: هل سنذهب إلى مطعم دوفر لتناول الطعام؟

– دوفر؟ أية فكرة غريبة هذه! ظننتُ أننا سنذهب إلى مطعم فانتازيا. إننا نريد طعاماً جيداً بعد كل هذه الدماء والأحزان التي شاهدناها في ماكبث. إن مسرحيات شكسبير تجعلني أشعر بالجوع دوماً.

– نعم، وكذلك أعمال فاغنر. وشطائر سمك السلمون المدخن في كوفنت غاردن في فترات الاستراحة لا تسد رمقاً. وأما ذكري لمطعم دوفر فلأنك متجه بسيارتك في ذلك الاتجاه.

شرحت لها: نريد أن نلتف إلى الجهة الأخرى.

– لكنك استدرت بعيداً. أنت الآن على الطريق المؤدي إلى كِنت.

نظرت حولي فكان علي أن أعترف بأن هيرميا على حق تماماً كما هي العادة. قلت معتذراً: دائماً أضيع في هذه المنطقة.

وافقتني هيرميا: إنها مربكة فعلاً... الالتفاف هنا وهناك حول محطة واترلو.

وبعد أن اجتزنا بنجاح جسر وستمنستر تابعنا حديثنا حول مسرحية ماكبث التي شاهدناها قبل قليل. كانت صديقتي هيرميا ريدكليف شابة أنيقة في الثامنة والعشرين من عمرها، قوية البنية، تشبه تقاطيع وجهها الجانبية وجوه الإغريق، وكانت ذات شعر

كستنائي داكن معقوف. وقد اعتادت أختي أن تشير إليها بعبارة «صديقة مارك»، ويرافق العبارة إيحاءٌ كان دوماً يزعجني.

في مطعم فانتازيا رحبوا بنا ترحيباً حاراً وأرشدونا إلى طاولة صغيرة قرب الحائط المغطى بالستائر المخملية الحمراء. ومطعم الفانتازيا مطعم مشهور عن جدارة، وموائده قريبة من بعضها. وعندما جلسنا حيانا جيراننا الجالسون على الطاولة المجاورة بابتسامة. كان يجلس على الطاولة ديفيد آردينغلي، وهو محاضر في التاريخ في جامعة أكسفورد. وقد قدم لنا مرافقته، وهي فتاة جميلة كانت تسريحة شعرها على أحدث طراز، أما عيناها فكانتا زرقاوين واسعتين جداً وتفتح فمها نصف فتحة دائماً. وكغيرها من صديقات ديفيد، بدت الفتاة بالغة السخافة. لم يكن ديفيد يجد راحته دائماً –وهو الشاب الذكي اللامع– إلاّ مع الفتيات المغفلات السخيفات.

أوضح يقول: هذه بوبي... أُقدّم لكِ مارك وهيرميا؛ إنهما على درجة رفيعة من الثقافة ولذا يجب أن تحاولي إثبات وجودك معهما. أراهن أنكما جئتما مباشرة من مسرحية لشكسبير أو إبسن.

قالت هيرميا: كنا في مسرحية ماكبث.

– آه، ما رأيك بإخراج باترسن للمسرحية؟

قالت هيرميا: لقد أعجبني إخراجه. كانت الإضاءة مثيرة جداً، كما لم أر إخراجاً لمشهد المأدبة يتم بهذا الإتقان.

– آه، ولكن ماذا عن الساحرات؟

قالت هيرميا: فظيعات! وهن دوماً كذلك.

وافقها ديفيد قائلاً: يبدو أنه لا مفر من تسلل شيء من عنصر الإيماء في مشهد الساحرات.

ضحك الجميع فيما سرحت أنا بتأملاتي، ثم رماني ديفيد -الذي امتاز بسرعة الفهم- بنظرة حادة وسأل: ماذا حلَّ بك؟

قلت: لا شيء. مجرد أنني كنت أفكر -قبل أيام- بالشر!

– بأية مناسبة؟

– آه، في مقهى في منطقة تشيلسي.

– يا لك من رجل ذكي وعصري يا مارك! وأنت تتردد على منتديات تشيلسي، حيث تتزوج الوريثات الغنيات اللائي يرتدين البناطيل الضيقة بصبيان الحارة. هناك ينبغي أن تكون بوبي، أليس كذلك يا عزيزتي؟

فتحت بوبي عينيها الواسعتين وقالت محتجة: إنني أكره تشيلسي. يعجبني مطعم فانتازيا أكثر بكثير فطعامه رائع جداً.

قال لها ديفيد: هذا أفضل لك يا بوبي. وأنت -على كل حال- لست غنية بما يكفي لارتياد تشيلسي. هيا يا مارك، حدثنا أكثر عن ماكبث وعن الساحرات الفظيعات. لو قدر لي أن أقوم بإخراج المسرحية لعرفت كيف أقدم الساحرات ومشهدهن فيها.

كان ديفيد عضواً مشهوراً في جمعية التمثيل في جامعة أكسفورد في الماضي.

قلت: حسناً، كيف كنت ستظهرهن؟

– كنت سأجعلهن عاديات جداً. نساء عجائز هادئات ماكرات كساحرات قرية ريفية.

قالت بوبي وهي تحدق فيه: ولكن لا توجد أي ساحرات هذه الأيام؟

– تقولين ذلك لأنك من لندن... لا تزال توجد ساحرة في كل قرية من قرى الريف الإنكليزي. عجوز السحر الأسود التي تسكن في كوخها الصغير فوق التلة، ويوصي الأولاد الصغار بألاّ يزعجوها، ويقدم لها الأهالي بين الحين والآخر هدايا البيض والكعك المنزلي الصنع. لأنكِ إن أزعجتِها فإن البطاطا التي تزرعينها لن تنمو، أو أن ابنك الصغير سوف يُلوى كاحله. وعليك أن تراعي القواعد مع تلك العجوز. لا أحد يقول هذا صراحة... ولكنهم جميعاً يعرفون!

قالت بوبي متجهمة: أنت تمزح!

– كلا، لا أمزح. إنني مصيب في كلامي هذا، أليس كذلك يا مارك؟

قالت هيرميا بارتياب: كل هذه الخرافات قد اختفت مع انتشار التعليم.

– ليس في المناطق الريفية المنعزلة. ما رأيك يا مارك؟

قلت ببطء: ربما تكون على حق. رغم أنني لست واثقاً، إذ أنني لم أعش في الريف كثيراً.

قالت هيرميا وهي تعود لملاحظة ديفيد السابقة: لا أدري كيف يمكنك تقديم ساحرات ماكبث كعجائز عاديات... لا بد من وجود جو خارق للطبيعة في حياتهن بالتأكيد.

قال ديفيد: تأملي الأمر فقط. إنه غريب تماماً، فإن كانت امرأة تهذي وتدور والقش عالق في شعرها المنثور وتبدو مجنونة فإنها لا تخيف إطلاقاً! لكنني أتذكر أنني ذهبت ذات مرة إلى الطبيب في أحد المصحات العقلية حاملاً رسالة له، وأدخلوني إلى غرفة الانتظار، وكانت فيها امرأة لطيفة ترتشف من كوب حليب. وقد ذكرت المرأة بعض الملاحظات المعتادة عن الطقس ثم فجأة مالت إلى الأمام وسألتني بصوت منخفض: أهو طفلك المسكين ذلك المدفون هناك وراء الموقد؟ ثم أومأت برأسها وقالت: "**في الثانية وعشر دقائق بالضبط. دائماً في نفس الوقت كل يوم. تظاهر بأنك لا ترى الدماء**". إن نبرتها الواقعية في الكلام هي التي أصابتني بالقشعريرة.

سألت بوبي: أكان يوجد حقاً شخص مدفون خلف الموقد؟

تجاهلها ديفيد وأكمل يقول: ثم خذ الوسيطات في عمليات استحضار الأرواح... تراهن في لحظة من اللحظات في حالة

الغيبوبة في غرف مظلمة وتسمع دقات وطرقات، ثم لا تلبث الوسيطة بعد ذلك أن تجلس وتسوي شعرها وتذهب إلى البيت لتتناول وجبة سمك وبطاطا كما تفعل أية امرأة عادية.

قلت: إذن فأنت ترى الساحرات ثلاث عجائز شمطاوات يمارسن فنونهن سراً ويستحضرن الأرواح، ولكنهن يبقين ثلاث عجائز عاديات. نعم... يمكن أن يكون هذا مؤثراً.

قالت هيرميا: هذا إن استطعت الحصول على ممثلات يؤدين الدور على هذا النحو.

اعترف ديفيد قائلاً: أنت محقة في هذا. إن أي تلميح للجنون في النص يجعل الممثل يتمادى فوراً في تمثّل الجنون! نفس الأمر مع الوفيات الفجائية... لا يكتفي أي ممثل بمجرد الانهيار بهدوء والسقوط على الأرض ميتاً، بل يجب أن يجأر ويهذي ويقلب عينيه ويلهث ويضع يده على قلبه وعلى رأسه ويجعل الأمر استعراضاً فظيعاً. وما دمنا نتحدث عن التمثيل فماذا تقولين عن إخراج فيلدنغ لمسرحية ماكبث؟ إن النقاد ينقسمون انقساماً كبيراً حول ذلك.

قالت هيرميا: لقد كان الإخراج رائعاً. ذلك المشهد مع الطبيب بعد مشهد المشيَ أثناء النوم. لقد أوضح ما لم أفكر به من قبل أبداً عندما قال: "ألا تستطيع أن تسعف امرأة مريضة في عقلها؟". وكان -في الحقيقة- يأمر الطبيب بقتلها. ومع ذلك فقد أحب زوجته... لقد أظهر الصراع بين الخوف والحب في

نفسه. إن عبارة: "كان يجب أن تموت بعدها"، كانت أكثر العبارات التي سمعتها إثارة.

قلت بجفاء: ربما كان شكسبير سيلقى بعض المفاجآت لو شاهد مسرحياته وهي تُمثل هذه الأيام.

قالت هيرميا: إنها مفاجأة المؤلف الدائمة إزاء ما يفعله المنتج بمسرحيته.

سألت بوبي: ألم يكن شخص يدعى بيكون هو الذي يكتب مسرحيات شكسبير حقيقة؟

قال ديفيد بلطف: هذه النظرية أصبحت قديمة الآن. وماذا تعرفين أنت عن بيكون؟

قالت بوبي فَرِحة: هو الذي اخترع البارود.

قال ديفيد: أعرفتم لماذا أحب هذه الفتاة؟ إن معلوماتها دائماً غير متوقعة. إننا نتكلم عن فرانسيس بيكون وليس عن روجر بيكون يا عزيزتي!

قالت هيرميا: لقد رأيت من الممتع لعب فيلدنغ لدور القاتل الثالث. أتوجد سابقة لهذا؟

قال ديفيد: أظن ذلك. كم كان مريحاً في تلك الأيام أن تتصل بقاتل تحت الطلب كلما أردت تنفيذ مهمة معينة. من الممتع أن يستطيع المرء فعل ذلك في أيامنا هذه.

عارضته هيرميا: ولكن ذلك يحدث الآن. قطاع الطرق وعصابات القتلة وكل هذه الأشياء.

قال ديفيد: آه، ولكن ما قصدته ليس العصابات أو قطاع الطرق أو أقطاب الجريمة، وإنما جماعات عادية تريد أن تتخلص من شخص ما، كالتخلص من المنافس التجاري فلان، أو من العمة فلانة الثرية التي طال بها العمر مع الأسف، أو ذلك الزوج الذي يقف دوماً في الطريق. كم سيكون مريحاً لو استطعت أن تتصل بمخازن هارودز وتقول: "أرجو أن ترسلوا لي قاتلين محترفين على الفور".

ضحكنا جميعاً. قالت بوبي: ولكن يستطيع المرء أن يفعل ذلك بطريقة أو بأخرى، أليس كذلك؟

التفتنا جميعاً إليها، وسألها ديفيد: أية طريقة يا عزيزتي؟

– أقصد أن الناس يستطيعون لو أرادوا... أناس مثلنا. إنما أظن أنه عمل مكلف جداً.

كانت عينا بوبي واسعتين بريئتين، وشفتاها منفرجتين قليلاً. سألها ديفيد بفضول: ماذا تقصدين؟

بدت بوبي مرتبكة، وقالت: آه... أظن... لقد اختلط عليّ الأمر. كنت أقصد «الحصان الأشهب»، أو شيئاً مثل ذلك.

– «الحصان الأشهب»؟ ما هو الحصان الأشهب هذا؟

احمر وجه بوبي وخفضت عينيها. قالت: إنني غبية... إنه مجرد شيء ذكره شخص ما... ولكن لا بد أنني لم أتذكره بطريقة صحيحة.

قال ديفيد بلطف: تناولي بعض العصير المنعش يا عزيزتي!

* * *

كما نعرف جميعاً فإن من أغرب الأمور في هذه الحياة هي أنك عندما تسمع شيئاً يذكر فإنك تقابله أو تراه في أقل من أربع وعشرين ساعة. حدث معي مثل ذلك صباح اليوم التالي.

رن هاتفي فرفعت السماعة وقلت: فلاكسمان ٧٣٨٤١.

سمعت شهقة عبر الهاتف، ثم سمعت صوتاً لاهثاً يقول بشيء من التحدي: لقد فكرت بالأمر، وسوف آتي!

وبدأت أخمن وأفترض أبعد الاحتمالات، ثم قلت في محاولة لكسب الوقت: رائع... هـ... هل هذه...؟

قالت صاحبة الصوت: إن الحظ السعيد لا يأتي مرتين.

– أأنت واثقة أنك طلبت الرقم الصحيح؟

– بالطبع. أنت مارك إيستربروك، أليس كذلك؟

– ها، عرفتك! السيدة أوليفر.

قالت صاحبة الصوت وقد فوجئت: آه، ألم تكن تعرف

من أنا؟ لم أفكر في ذلك أبداً. كنت أريد أن أكلمك بخصوص مهرجان رودا ذاك. سوف أحضر وأوقع على القصص إن كانت تريد مني ذلك.

قلت: هذا لطف منك. وستجمعين –بالطبع– بعض المال من ذلك.

سألت السيدة أوليفر: "هل ستكون –ضمن المهرجان– حفلات؟"، ثم أكملت: أنت تعرف طبيعة هذه الأمور. الناس يأتون إليّ ليسألوني إن كنت أكتب قصة الآن... وهم يرون أنني أشرب العصير ولا أكتب. ويقولون إنهم معجبون بقصصي... وهو بالطبع أمر يسرني لكنني لم أجد له الجواب الصحيح أبداً. وهل تظن أنهم يريدون مني أن أخرج إلى «الحصان الأسود» لأتناول القهوة هناك؟

– «الحصان الأسود»؟!

– أو «الحصان الأشهب»... أقصد المقهى. إنني عديمة الخبرة في المقاهي.

– ماذا تقصدين بعبارة «الحصان الأشهب» بالضبط؟

– يوجد مقهى بهذا الاسم هناك، أليس كذلك؟ أو ربما كان ذلك في مكان آخر. ربما كنت أتخيل هذه الأمور فقط، فأنا أتخيل أشياء كثيرة فعلاً.

سألتها: وكيف حال الببغاء؟

بدت السيدة أوليفر ذاهلة وهي تسأل: الببغاء؟

– وكرة الكريكت؟

قالت: "لا بد أنك أصبت بالجنون أو أنك ثمل... ما هذا الجمع بين الحصان والببغاوات وكرات الكريكت؟!". ثم وضعت السماعة.

كنت أفكر في موضوع «الحصان الأشهب» الذي ذُكر للمرة الثانية خلال أربع وعشرين ساعة عندما رن هاتفي مرة أخرى. هذه المرة كان المخابر هو السيد سومز وايت، وهو محام بارز اتصل بي ليذكرني بأنه بموجب وصية عرّابتي الليدي هيسكيث-دوبوا فإن لي الحق باختيار ثلاثة من لوحاتها.

قال السيد سومز وايت بنبرته المكتئبة الانهزامية: إنها ليست ذات قيمة كبيرة بالطبع، ولكني علمت أنك عبّرت للّيدي الراحلة ذات مرة عن إعجابك ببعض لوحاتها.

– كانت عندها بعض اللوحات الساحرة بالألوان المائية لمناظر من الهند. أظن أنك كتبت لي من قبل بخصوص هذه المسألة لكني نسيت ذلك.

– هذا صحيح. ولكن تم التصديق على الوصية الآن، ولذلك يقوم الأوصياء الذين سينفذون الوصية (وأنا واحد منهم) بترتيب بيع الأغراض الموجودة في بيتها في لندن. لو ذهبت إلى ساحة إيلسمير في المستقبل القريب...

– سأذهب الآن.

كان يبدو صباحاً لا يشجع على العمل.

* * *

خرجت من المنزل رقم ٤٩ بساحة إيلسمير متأبطاً ثلاث لوحات، وسرعان ما اصطدمت بشخص كان يصعد الدرجات أمام بوابة المنزل. اعتذرت له واعتذر لي، وكنت على وشك أن أوقف سيارة أجرة عابرة عندما تذكرت شيئاً فجأة فالتفتُّ وسألته بحدة: مرحباً... ألست كوريغن؟

– نعم... نعم، وأنت مارك إيستربروك؟

كنت وجيم كوريغن صديقين أيام الدراسة في جامعة أكسفورد، ولكنني لم أره منذ أكثر من خمسة عشر عاماً.

قال كوريغن: لقد أدركت أنني أعرفك، ولكنني لم أستطع تحديد تلك المعرفة للوهلة الأولى. إنني أقرأ مقالاتك من وقت لآخر، وأعترف بأنني أستمتع بها.

– وماذا عنك؟ هل دخلت مجال الأبحاث كما كنت تعتزم؟

تنهد كوريغن وقال: لا، إنه عمل مكلف جداً... إذا كنت تريد عمل ذلك على حسابك الخاص. ما لم تجد مليونيراً يرضى بأن يمول أبحاثك أو مؤسسة ما.

– أظن أن أبحاثك كانت منصبة على دودة الكبد، أليس كذلك؟

– يا لذاكرتك! كلا، لقد تخليت عن دودة الكبد. إن اهتمامي ينصبّ الآن على إفرازات الغدد الماندرية. لا أظن أنك سمعت عن هذه الغدد! إن لها علاقة بالطحال، ومن حيث الظاهر ليس لها أي غرض!

كان يتكلم بحماسة العالم.

– إذن ما هو الهدف من البحث؟

– لديّ اعتقاد بأن لها تأثيراً على السلوك. وحتى أبسّط الأمور فإنني أقول إنها قد تعمل كما يعمل زيت الكابح في سيارتك، وبدون هذا الزيت لا تعمل الكوابح أبداً. وفي الإنسان فإن القصور في هذه الإفرازات قد... وأقول قد... يجعل المرء مجرماً.

صفرت متعجباً، ومضى قائلاً: لم أستطع –حتى الآن– إثارة اهتمام أحد بنظريتي هذه لسوء الحظ، لذلك فإنني أعمل الآن طبيباً شرعياً مع الشرطة. عمل ممتع جداً، حيث يرى المرء الكثير من الأعمال الإجرامية. لا أريد الآن أن أضايقك بهذا الكلام... إلاّ إذا جئت وتناولت الغداء معي؟

– أحب ذلك، ولكنك كنت تريد الدخول إلى هناك.

وأومأت باتجاه البيت وراءه. قال كوريغن: ليس لشيء هام.

جئت هكذا فقط... دون دعوة.

– لا أحد في الداخل سوى وكيل البيت.

– هذا ما ظننته، ولكني أردت معرفة شيء بخصوص الليدي هيسكيث–دوبوا الراحلة لو أمكنني.

– أظن أن بإمكاني أن أخبرك عنها أكثر مما يستطيع الوكيل؛ فقد كانت عرّابتي.

– حقاً؟ يا له من حظ! أين نذهب لنأكل؟ يوجد مطعم صغير قرب ساحة لوندز. ليس فخماً، لكنه يقدم نوعاً خاصاً من الحساء والأسماك.

جلسنا في المطعم الصغير... وجاؤوا لنا بمرجل عليه طبق شُربة يتصاعد البخار منه.

قلت وأنا أتذوق الشُّربة: لذيذة! والآن يا كوريغن، ما الذي تريد أن تعرفه عن السيدة العجوز؟ ولماذا؟

قال صديقي: أما «لماذا» فهذه قصة طويلة. قل لي في البداية: كيف كانت السيدة العجوز؟

فكرت ثم قلت: كانت من الطراز القديم... الفكتوري. أرملة لحاكم سابق لإحدى الجزر غير المعروفة. وكانت غنية وتحب راحتها وتسافر في الشتاء إلى الخارج. بيتها بشع ومليء بالأثاث الفيكتوري، إضافة إلى أسوأ الفضيات التي تعود للعصر

الفكتوري. لم يكن لديها أطفال، لكنها كانت تربي كلبين جميلين كانت تحبهما كثيراً. وكانت محافظة ومتشبثة برأيها وقوية. ورغم لطفها فقد كانت مستبدة وعنيدة جداً. ما الذي تريد معرفته غير ذلك؟

قال كوريغن: لست واثقاً تماماً. أيوجد احتمال بوجود أحد كان يبتزها.

سألته ذاهلاً: يبتزها؟ ما من شيء أبعد احتمالاً من هذا، ما الأمر؟

وعندها سمعت -للمرة الأولى- ظروف وملابسات مقتل الأب غورمان.

وضعت ملعقتي على الطاولة وسألته: قائمة الأسماء هذه... هل هي معك؟

- ليس الأصلية، ولكني أخذت نسخة عنها. ها هي.

أخذت الورقة التي أخرجها من جيبه وشرعت في تفحصها: باركنسون؟ أعرف اثنين بهذا الاسم. آرثر باركنسون، الذي ذهب إلى سلاح البحرية، وهنري باركنسون، وهو أحد رجال الدين. أورميرود... يوجد ضابط في الشرطة بهذا الاسم. سانفورد... الكاهن القديم عندنا عندما كنت صبياً كان يدعى سانفورد. هارمُندسْورث؟ كلا... تاكرتُن...

سكتُّ قليلاً ثم قلت: تاكرتن؟ لا أظنها توماسينا تاكرتن؟

نظر كوريغن إليّ بفضول وقال: يمكن أن تكون هي حسبما أعرفه. من هي، وماذا تعمل؟

- لا تعمل شيئاً الآن؛ فقد أُعلن عن وفاتها في الصحيفة قبل أسبوع تقريباً.

- إذن فإن هذا لا يساعدنا كثيراً.

واصلت قراءة الأسماء.

- شو... أعرف طبيب أسنان يدعى شو، ويوجد رجل اسمه جيروم شو، وهو ضابط في البحرية. ديلافونتين... سمعت بهذا الاسم مؤخراً، ولكني لا أتذكر أين. كوريغن، هل أنت المقصود؟

- أرجو -مخلصاً- ألاّ يكون كذلك. لديّ إحساس بأن الذي يوضع اسمه في هذه القائمة شخص غير محظوظ.

- ربما. ما الذي جعلك تفكر بوجود ابتزاز يتصل بهذه القائمة؟

- كانت تلك ملاحظة المفتش لوجون إلّم تخنّي الذاكرة. بدا ذلك أكثر احتمالاً، ولكن يبقى الكثير من الاحتمالات الأخرى. قد تكون هذه قائمة بمهربي المخدرات أو المدمنين عليها أو عملاء سريين... والواقع أنها قد تكون أي شيء. شيء واحد مؤكد: فقد كانت القائمة من الأهمية بحيث ارتُكبت جريمة قتل للحصول عليها.

سألته بفضول: هل تبدي دوماً مثل هذا الاهتمام بالجانب المهني الإجرامي من عملك؟

هز رأسه نافياً وقال: لا أستطيع أن أقول ذلك. إن اهتمامي ينصب على الشخصية الإجرامية... على الخلفية الاجتماعية والتربية وسلامة الغدد، إلى ما هنالك!

– إذن لماذا الاهتمام بهذه القائمة من الأسماء؟

قال كوريغن ببطء: صدقني لا أعرف. ربما لأنني رأيت اسمي فيها. تعصباً لاسم كوريغن... كوريغن يهب لنجدة كوريغن آخر!

– نجدة؟ إذن فأنت ترى –جازماً– أن هذه قائمة ضحايا وليست قائمة مجرمين... ولكنها قد تحتمل كلا الوجهين بالتأكيد؟

– أنت على حق تماماً، وغريب جداً أن أكون متأكداً. ربما مجرد شعور... أو ربما هو شيء يتعلق بالأب غورمان. لم أكن أقابله كثيراً، ولكنه كان رجلاً رائعاً ومحترماً ومحبوباً من الجميع... كان رجلاً مناضلاً مكافحاً، ولا أستطيع أن أبعد عن ذهني التفكير بأنه اعتبر هذه القائمة مسألة حياة أو موت...

– ألن يتوصل الشرطة إلى شيء؟

– بلى، لكنه عمل طويل؛ التدقيق هنا وهناك. تدقيق ماضي المرأة المتوفاة التي استدعته في تلك الليلة إلى بيتها.

– من هي؟

– واضح أنه لا يوجد أي غموض في حياتها. إنها أرملة، وقد كانت لدينا فكرة بأن زوجها ربما كان مرتبطاً بسباقات الخيول، ولكن لا يبدو الأمر كذلك. كانت تعمل في شركة تجارية صغيرة تقوم بأبحاث عن المستهلكين. وليس في عملها ما يثير الشكوك، فالشركة محترمة ومعروفة. ولكنهم لا يعرفون عنها الكثير. جاءت من شمال إنكلترا... من لانكشاير. الشيء الوحيد الغريب المتعلق بها هو قلة أمتعتها الشخصية.

رفعت كتفي تعجباً وقلت: ولكن هذا الأمر ينطبق على أناس كثيرين... أكثر بكثير مما تتصور. إنه عالم العزلة.

– نعم، كما تقول.

– على أي حال، فقد قررتَ الاشتراك في اللعبة، أليس كذلك؟

– مجرد فضول. شعرت بأن هيسكيث-دوبوا اسم غير مألوف، وفكرت أنني لو استطعت معرفة القليل عن السيدة...

ثم ترك الجملة دون أن يكملها، وبعدها عاد ليقول: ولكن مما أخبرتني به لا أجد أي ضوء يقود إلى معرفة شيء.

طمأنته قائلاً: لا هي بمدمنة ولا مهربة مخدرات، وهي ليست عميلة سرية بالتأكيد، وقد عاشت حياة مستقيمة لا يمكن معها ابتزازها. لا أستطيع تصوُّر طبيعة القائمة التي يمكن أن تدرج

بها، وهي تحتفظ بمجوهراتها في البنك ولذلك لم تكن هدفاً محتملاً للسطو.

– وهل تعرف أحداً غيرها باسم هيسكيث-دوبوا؟

– لا أولاد لها. لديها ابن أخ وابنة أخ لكنهما لا يحملان اسم هيسكيث-دوبوا، وزوجها كان وحيداً لأبويه.

شكر لي كوريغن مساعدتي له، ثم نظر إلى ساعته وقال مبتهجاً إن لديه جثة شخص عليه تقطيع أوصالها، وهكذا افترقنا.

عدت إلى البيت مستغرقاً في التفكير ووجدت أن من المستحيل عليّ التركيز على عملي، وفي نهاية الأمر خطر لي خاطرٌ نفذته واتصلت مع ديفيد آردينغلي.

– ديفيد؟ مارك يكلمك. تلك الفتاة التي رأيتها معك في تلك الليلة، بوبي... ما هو اسم عائلتها؟

– هل ستسرق مني فتاتي؟

كان صوت ديفيد يوحي بالسرور. أجبته: لديك الكثيرات منهن... تستطيع الاستغناء عن واحدة بالتأكيد.

– ولكن لديك واحدة من الوزن الثقيل، وكنت أظن أن علاقتك بها راسخة!

– علاقة راسخة؟

ذكرتني هذه العبارة –فجأة– بمدى صحة الوصف. إنها

تصف تماماً علاقتي مع هيرميا. كنت أشعر دائماً –في قرارة نفسي– بأننا سنتزوج يوماً ما؛ فقد كنت معجباً بها وكانت لدينا أشياء كثيرة مشتركة. وتراءى لي المستقبل مبسوطاً أمامي: أنا وهيرميا نذهب إلى المسرحيات الهامة ونتناقش حول الفن... لا شك في أن هيرميا هي رفيقة حياتي التي أريدها.

سألني ديفيد: هل نمت؟

– كلا بالطبع. الحقيقة أنني وجدت صديقتك بوبي ظريفة جداً.

– هذا وصف جيد، وهي فعلاً كذلك. حسناً، اسمها الحقيقي هو باميلا ستبرلنغ، وهي تعمل في أحد محلات الزهور في مي فير حيث ينسقون لك ثلاث زهرات على عجل ويطلبون ثلاثة جنيهات ثمناً لها.

ثم أعطاني العنوان وقال بطريقة لامبالية: هذه الفتاة لا تعرف شيئاً... ورأسها فارغ تماماً. سوف تصدق أي شيء تقوله لها، وهي –بالمناسبة– فتاة مستقيمة، ولذلك إياك أن تمني نفسك بآمال كاذبة.

ثم وضع السماعة.

* * *

غزوت محل الورد وأنا أشعر ببعض الخوف. سررت برائحة

الغاردينيا الطاغية، ووجدت عدداً من الفتيات يلبسن الفساتين الخضراء وكلهن يشبهن بوبي مما أربكني، وأخيراً ميزتها من بينهن. كانت تكتب أحد العناوين ببعض الصعوبة ولا تعرف كيف تتهجى العنوان، وحالما انتهت من عملها هذا وبعد صعوبات واجهتْها في إرجاع باقي خمس جنيهات إلى الزبون لفتُّ انتباهها قائلاً: لقد التقينا قبل بضع ليال... مع ديفيد آردينغلي.

قالت بوبي بحرارة وهي تنظر إلى أعلى رأسي: آه، نعم!

قلت: "كنت أريد سؤالك عن شيء". ثم أحسست بوخز الضمير فقلت: ربما من الأفضل أن أشتري بعض الورد؟

قالت بأسلوب إنسان آلي ضغطتَ على الزر المناسب لديه: لدينا بعض الورود الجميلة، جديدة ووصلت اليوم.

– ربما هذه الورود الصفراء؟ كم ثمنها؟

قالت بوبي بصوت عذب مقنع: رخيصة جداً جداً.. الواحدة بخمسة شلنات فقط.

وافقت دون اعتراض وقلت بأنني أريد ستاً منها.

– وهل تريد معها بعضاً من هذه الأوراق الخاصة؟

نظرت إلى الأوراق الخاصة نظرات شك فتبين أنها أوراق ذابلة. وبدلاً منها اخترت بعض نباتات السرخس الخضراء، وهو اختيار خفّض من مكانتي في نظر بوبي.

قلت لبوبي وهي مشغولة في تنسيق باقة الورد: كنت أريد أن أسألك سؤالاً: في تلك الليلة ذكرت شيئاً يُدعى «الحصان الأشهب» .

جفلت بوبي وأسقطت الورود والسرخس على الأرض.

– هل يمكنك أن تخبريني بالمزيد عن ذلك الأمر؟

انتصبت بوبي واقفة بعد أن كانت تحني ظهرها وقالت: ماذا قلت؟

– كنت أسألك عن «الحصان الأشهب» .

– «الحصان الأشهب »؟ ماذا تقصد؟

– أنت ذكرتِهِ في الليلة التي كنا فيها معاً.

– أنا متأكدة أنني لم أقل شيئاً كهذا أبداً! لم أسمع عن هذا الشيء أبداً.

– لقد أخبرك شخص عنه... من يكون هذا الشخص؟

سحبت بوبي نفساً عميقاً وتكلمت بسرعة: لا أعرف الذي تتحدث عنه أبداً! كما يُفترض ألاّ نتحدث مع الزبائن.

ثم لوحت بورقةٍ وقالت: من فضلك، خمسة وثلاثون شلناً.

أعطيتها ورقة نقدية من فئة الجنيهين فردّت إليّ ستة شلنات وذهبَتْ بسرعة. لاحظتُ أن يديها كانتا ترتعشان قليلاً.

خرجتُ من المحل بخطوات متثاقلة، وعندما ابتعدت قليلاً أدركتُ أنها أخطأت بالسعر فثمن السرخس كان سبعة شلنات، كما أنها أعادت إليّ مبلغاً أكثر من اللازم.

عدت ثانيةً لأرى صاحبة الوجه الجميل والعقل الخاوي والعينين الزرقاوين. كان في تلك العينين شيء ما... قلت في نفسي: خائفة... تتجمد خوفاً... لماذا يا ترى؟ لماذا؟!

* * *

الفصل الخامس

تنهدت السيدة أوليفر وقالت: يا لها من راحة عندما نرى أن الأمر قد انتهى ولم يحدث شيء!

كانت لحظات استرخاء؛ فمهرجان رودا مضى كما تمضي المهرجانات الأخرى، وذلك بعد القلق من الحالة المتقلبة للجو في الصباح الباكر، وبعد الجدال الكبير حول نصب الأكشاك في العراء أم إبقائها في السرادق الطويل، وبعد النزاعات القوية بين أهل المنطقة فيما يتعلق بحفل الشاي. وقد قامت رودا بتسوية الأمور كلها بطريقة لبقة وسارت الأمور بطريقة جيدة، ما عدا الهرج في ساعة تناول الشاي عندما يريد كل الزبائن غزو السرادق ليتناولوا الشاي في وقت واحد. وكانت حركة البيع جيدة، باستثناء الصعوبات المعتادة بخصوص تأمين قطع النقد الصغيرة.

وفي النهاية حل المساء، وانتهى المهرجان. وأطلقت رودا كلابها التي كانت قد حبستها طوال الوقت خشية أن تعيث فساداً

في المكان، وها هي الآن تقعي تحت الطاولة تلعق العظام.

قالت رودا بمرح: سوف نجني أكثر مما جنيناه في السنة الماضية لجمعية إنقاذ الطفولة.

قالت الآنسة ماكاليستر الإسكتلندية، وهي مشرفة حضانة الأطفال: أجد من الغريب أن يعثر مايكل برنت على العنوان المدفون ثلاث سنوات متتالية. أشك في حصوله على معلومات مسبقة عن مكانه؟

قالت رودا: الليدي بروكبناك فازت بالأرنب. لا أظنها كانت تريده؛ فلقد بدت مرتبكة كثيراً.

كان الجمع يتألف من ابنة عمي رودا، وزوجها الكولونيل ديسبارد، والآنسة ماكاليسترا، وفتاة ذات شعر أحمر تدعى غينغر، والسيدة أوليفر، والكاهن كالب كالثروب وزوجته. كان كالثروب عالماً كهلاً وجذاباً، متعته الكبرى تكمن في العثور على تعليق مناسب يستقيه من الكلاسيكيات القديمة. ورغم أن ذلك غالباً ما يسبب الحرج ويؤدي إلى إنهاء الحديث إلا أن استشهاداته كانت الآن في وقتها تماماً. لم يكن ليطلب من أحد أبداً الاعتراف بمعرفته للغة اللاتينية المفخمة، إذ كان يكتفي بالسعادة التي يجلبها له عثوره على استشهاد مناسب.

قال وهو يوزع ابتسامته على الجالسين حول الطاولة: كما يقول الشاعر هوريس...

ساد الصمت المعتاد لبعض الوقت ثم قالت غينغر: أظن أن السيدة هورسفول قد غشّت في مسألة زجاجة الشراب. لقد فاز بها أخوها.

كانت السيدة كالثروب تنظر إلى السيدة أوليفر نظرات متفحصة، سألتها فجأة: ما الذي توقعت حدوثه في هذا المهرجان؟

- الحق أنني توقعت حدوث جريمة قتل أو شيء يشبهها.

بدت السيدة كالثروب مهتمة لهذا الأمر. قالت: ولماذا يحدث ذلك؟

- لا توجد أية أسباب. والحق أنه أمر بعيد الاحتمال، ولكن حدثت جريمة قتل في آخر مهرجان ذهبت إليه.

- فهمت. وهل أزعجك ذلك؟

- كثيراً.

غيّر كالثروب من اللاتينية إلى الإغريقية. وبعد فترة الصمت المعتادة بعد استشهاداته ألقت الآنسة ماكاليسترا الشكوك على صدق وأمانة اليانصيب الذي جرى على بطة حية.

قال ديسبارد: لقد تكرم العجوز لَغ صاحب مقهى «كينغز آرمز» وأرسل لنا بالكثير من أباريق القهوة لبيعها لصالح المهرجان.

سألتُه بحدة: «كينغز آرمز»؟

قالت رودا: إنه المقهى الموجود في قريتنا يا عزيزي.

- ألا يوجد هنا مقهى آخر؟

التفتُّ إلى السيدة أوليفر وقلت: ألم تقولي إنه «الحصان الأشهب»؟

لم ترتقِ ردود الفعل على ما قلته إلى نصف ما كنت أنتظره، وكانت الوجوه التي التفتت إليّ جامدة غير مكترثة.

قالت رودا: «الحصان الأشهب» ليس مقهى... أقصد في الوقت الحاضر.

قال ديسبارد: كان «الحصان الأشهب» نزلاً قديماً. أظنه يعود إلى القرن السادس عشر، لكنه الآن مجرد بيت عادي. كنت أرى دوماً أن عليهم أن يبدلوا اسمه.

صاحت غينغر: آه، كلا. سيكون من السخف أن يطلقوا عليه أحد تلك الأسماء الحديثة. أظن أن «الحصان الأشهب» اسم لطيف، كما أنه توجد لوحة قديمة ورائعة مكتوب عليها اسم المنزل. لقد صنعْنَ لها إطاراً ووضعْنَها في الصالة.

سألتها: من هن هؤلاء؟

- إنه ملك تيريزا غري. لا أعرف إن كنتَ قد رأيتها اليوم؟ امرأة طويلة القامة ذات شعر رمادي قصير.

قال ديسبارد: إنها غامضة جداً تتعامل بالروحانيات والسحر، أو بشيء يقرب من ذلك.

قالت رودا: لا تقل هذا أمام الكاهن.

- آسف يا سيد كالثروب.

قال الكاهن مبتسماً: "لا بأس؛ فكما يقول القدماء..."، ثم أكمل عبارته باللغة الإغريقية، لبعض الوقت.

وبعد لحظات من صمت الاحترام والتقدير عدت أنا للهجوم: ما زلت أريد معرفة «هؤلاء»... الآنسة غري، ومن غيرها؟

- آه، صديقة تعيش معها تدعى سايبل ستامفورديز. أظنها تعمل كوسيطة أرواح. لا بد أنك رأيتها في المهرجان... تلبس الخرز والأحجار على شكل الخنافس وأحياناً تلبس الساري... لا أعرف لماذا؛ إذ لم يسبق لها أن زارت الهند أبداً!

قالت السيدة كالثروب: ومعهما تعيش بيلا، وهي الطاهية التي تعمل في المنزل، وهي ساحرة أيضاً. جاءت من قرية ليتل دانِنغ، وهي مشهورة هناك باحترافها السحر. إنها مهنة يتوارثها أفراد عائلتها... والدتها كانت ساحرة هي الأخرى.

كانت تتكلم بأسلوب واقعي.

قلت: يبدو أنك تؤمنين بالسحر يا سيدة كالثروب.

- بالطبع! ليس فيه ما هو غامض أو سري.. إنه أمر واقعي تماماً. إنه إرث عائلي تتوارثه الأسر. يقال للأطفال بأن لا يثيروا قطة الساحرة، كما يعطيها الناس جبنة الحلوم أو قارورة مربى

من صنع محلي من وقت لآخر.

نظرت إليها نظرات شك وارتياب. كانت تبدو جادة تماماً. قالت رودا: لقد ساعدتنا سايبل اليوم في قراءة البخت. وكانت تجلس في الخيمة الخضراء.

قالت غينغر: لقد قرأت لي طالعاً رائعاً. مالٌ سأحصل عليه... شاب وسيم أسمر من بلد بعيد... زوجان اثنان وستة أطفال. الحق أنه كرم كبير!

قالت رودا: لقد رأيتُ تلك الفتاة التي تدعى كيرتيس وهي تخرج من الخيمة تقهقه، وقد أصبحت شديدة الخجل مع صديقها الشاب بعد ذلك... أخبرتْهُ بألاّ يظن أنه الرجل الوحيد في هذه الدنيا.

قال زوجها: مسكين توم. هل رد عليها بالمثل؟

– آه، نعم. قال لها: "لن أقول لك ما وعدتْني به. ربما لن يروق لك ما أقوله يا فتاتي".

– هذا جيد من توم.

قالت غينغر ضاحكة: كانت السيدة باركر العجوز فظة وهي تقول لهما: "إن هذا كله حماقة فلا تصدّقا شيئاً منه". لكن السيدة كريبس شرعت في الكلام وقالت: "أنت تعرفين يا ليزي -كما أعرف- بأن الآنسة ستامفورديز ترى أشياء لا يراها الآخرون وأن الآنسة غري تتنبأ باليوم الذي تحدث فيه حالة

وفاة، وهي لا تخطئ أبداً في ذلك! إنها توقع في نفسي الذعر أحياناً". وقالت السيدة باركر: "الوفاة شيء مختلف؛ إنها موهبة". وردت عليها السيدة كريبس: "على أية حال ما كنت لأُغضِب أياً من هؤلاء الثلاث!".

قالت السيدة أوليفر: يبدو ذلك كله مثيراً. أحب لو ألقاهُنّ.

قال الكولونيل ديسبارد واعداً: سنأخذك إلى هناك غداً؛ فالنزل القديم يستحق المشاهدة فعلاً. كنّ ذكيات جداً في جعله مريحاً دون أن يفسدن ميزاته العمرانية الخاصة.

قالت رودا: سأتصل بثيريزا صباح الغد.

عليّ أن أعترف بأنني ذهبت إلى النوم وأنا أحسُّ إحساساً بسيطاً بأن توقعاتي الكبيرة قد انحلت عن حقيقة تافهة. إن «الحصان الأشهب» الذي خيم على عقلي كرمز لشيء مجهول قد ظهر الآن أنه ليس كذلك.

إلاّ إن كان يوجد حصان أشهب آخر غيره بالطبع؟

فكرت في تلك الفكرة إلى أن غشيني النوم.

* * *

أحسست في صباح اليوم التالي بالارتياح، وهو إحساس يتبع أي حفلة في العادة. كان السرادق على الأرض الخضراء

وكانت الخيام هناك تخفق محدثة أصواتاً واهنة في انتظار من يزيلها من مكانها في صباح الغد الباكر. وكنا سنشرع يوم الإثنين بالعمل في جرد التلفيات والأضرار التي حدثت وفي تنظيف المنطقة التي جرى عليها الاحتفال. أما اليوم فقد قرَّرَتْ رودا (وبحكمة بالغة) بأن من الأفضل لنا أن نخرج.

أوضحت رودا: سنذهب لتناول الغداء مع السيد فينابلز. سوف تحبه يا مارك؛ إنه رجل مُشوِّق جداً، وقد ذهب إلى كل مناطق العالم وعمل كل شيء ويعرف كل الأشياء غير المألوفة. وقد اشترى منزلاً يُقال له «برايورز كورت» قبل حوالي ثلاث سنوات، ولا بد أنه أنفق أموالاً طائلة في الإصلاحات التي قام بها فيه. لقد أصيب بالشلل وأصبح شبه مقعد ولذلك فهو يتنقل مستعيناً بكرسي عجلات. أمر محزن له لأنه كان -قبل ذلك- من الرحالة العظماء. إنه ينعم بثروة كبيرة بالطبع، وكما قلت، فقد أحسن في ترميم البيت وإصلاحه، فقد كان مدمراً تماماً وآيلاً إلى السقوط، وهو مليء بالأشياء الجميلة الرائعة. وأظن أن المزادات هي محط اهتمامه هذه الأيام.

كان برايورز كورت على بعد بضعة أميال فقط. ذهبنا إليه بالسيارة وجاء مضيفنا لاستقبالنا بنفسه على كرسي عجلات في صالة المنزل.

قال بحرارة: جميل منكم أن جئتم جميعاً. لا بد أنكم تعبتم من عمل الأمس. كان المهرجان رائعاً يا رودا.

كان السيد فينابلز في الخمسين من عمره تقريباً. كان وجهه رفيعاً كوجه الصقر، يبرز منه أنف معقوف بارز، وكان يلبس قميصاً من طراز قديم.

قامت رودا بتعريفنا. وابتسم فينابلز عندما قدَّمَتْ له السيدة أوليفر وقال: لقد قابلت هذه السيدة بصفتها الرسمية أمس. لقد اشتريت ستاً من قصصها وعليها تواقيعها. إنك تكتبين أشياء عظيمة ورائعة يا سيدة أوليفر... نريد منك المزيد منها.

ثم ابتسم في وجه غينغر وقال: لا تقربي الكثير منها. على فكرة، كنتِ على وشك أن تجعليني أفوز بالبطة أيتها الفتاة.

ثم التفت إليَّ وقال: لقد استمتعت بمقالتك في مجلة «ريفيو» الشهر الماضي.

قالت رودا: جميل منك أن تأتي إلى مهرجاننا يا سيد فينابلز. بعد أن بعثتَ لنا بذلك الشيك السخي لم أتوقع أن تأتي إلى المهرجان شخصياً.

- آه، إنني أستمتع بمثل هذه الأشياء. إنها جزء من الحياة الريفية الإنكليزية، أليس كذلك؟ عدت إلى البيت بعد أن فزت بلعبة مخيفة، كما أن سايبل قرأت لي حظي (وكانت تلبس قلنسوة كبيرة عليها نحو طن من الخرز المصري المزيف).

قال الكولونيل ديسبارد: رائعة سايبل هذه. سنذهب هناك لتناول الشاي مع تيريزا بعد ظهر اليوم. إنه مكان قديم ومثير.

– «الحصان الأشهب»؟ نعم. كنت أتمنى لو أنهن أبقينه نزلاً كما كان. كنت أشعر دائماً أنه كان لذلك المكان تاريخ غامض وشرير جداً. لا أحسبه كان مكاناً للتهريب فنحن بعيدون عن البحر. ربما كان مكان استراحة لقطاع الطرق؟ أو المسافرين الأغنياء الذين يقضون ليلة فيه ولا يراهم أحد بعد ذلك أبداً. يبدو أمراً تافهاً أن يتحول إلى مأوى لثلاث خادمات عجائز.

صاحت رودا: آه، إنني لم أفكر بهن بهذه الطريقة أبداً! ربما بدت سايبل ستامفورديز سخيفة بالساري الذي تلبسه والتعاويذ التي تضعها، ولكن يوجد في تيريزا شيء يوحي بالرهبة، أليس ذلك صحيحاً؟ تشعر بأنها تعرف ما يجول برأسك. إنها لا تتحدث عن نفسها... لكن الجميع يقولون إنها ذات بصيرة.

أضاف الكولونيل ديسبارد: كما أن بيلا –بعيداً عن كونها خادمة عجوزاً– قد دفنت زوجين لها.

قال فينابلز ضاحكاً: إنني أرجو العفو منها مخلصاً.

وأضاف ديسبارد: مع وجود تعليقات شريرة عن سبب وفاتهما سمعتْها بيلا من جيرانها. يقال إنهما أثارا استياءها ولذلك قلبت أنظارها عليهما فمرضا ثم ماتا!

– لقد نسيت... إنها ساحرة القرية، أليس كذلك؟

– هكذا تقول السيدة كالثروب.

قال فينابلز متأملاً: إن السحر لأمر مثير. حيثما ذهبت في هذا العالم تجد أنواعاً مختلفة منه... أذكر إنني عندما كنت في شرق أفريقيا...

تحدث باسترخاء ومتعة حول الموضوع. تكلم عن الأطباء في أفريقيا وعن الطقوس المجهولة في بورنيو، ثم وعد بأن يرينا بعد الغداء بعضاً من أقنعة السحر الموجودة في أفريقيا.

قالت رودا وهي تضحك: كل شيء موجود في هذا البيت.

رفع مضيفنا كتفيه وقال: آه، إذا كنت لا أستطيع الخروج للحصول على شيء فلا بد أن يأتي هذا الشيء لي.

بدت في صوته للحظات مرارةٌ مفاجئة، ثم نظر نظرة سريعة إلى ساقيه المشلولتين وقال: العالم مليء بالكثير من الأشياء. أظن أن ذلك هو سبب مشكلتي؛ إذ يوجد الكثير مما أريد معرفته ورؤيته... مع أنني لم أقصر في ذلك في شبابي. وحتى الآن... فإنني أجد ما يعزيني.

سألته السيدة أوليفر فجأة: لماذا هنا؟

أحس البقية بشيء من عدم الارتياح، كما يحس الناس عندما تخيم في الأجواء إشارة لمأساة ما. وحدها السيدة أوليفر لم تتأثر. لقد سألته ذلك السؤال لأنها أرادت أن تعرف، وقد أعاد فضولها الصريح جو المرح.

نظر فينابلز إليها متسائلاً فقالت السيدة أوليفر: أقصد لماذا

جئت للعيش هنا، في هذه المنطقة؟ إنها بعيدة جداً عن الأحداث التي تجري. ألأن لديك أصدقاء هنا؟

- لا... بما أنك مهتمة بمعرفة السبب، فقد اخترت هذه المنطقة لأنه لا أصدقاء لي فيها.

ظهرت على شفتيه ابتسامة ساحرة باهتة.

تساءلتُ في نفسي إلى أي مدى أثّر فيه عجزه؟ هل أثر عجزه عن الحركة وحرية السفر إلى العالم على روحه أم أنه نجح في تكييف نفسه مع الظروف المتغيرة وظل متزناً عظيم النفس؟

قال فينابلز وكأنه قرأ أفكاري: في مقالك تساءلت عن معنى مصطلح «عظمة» وقارنت بين معانيه المختلفة في الشرق وفي الغرب. ولكن ماذا نقصد نحن في إنكلترا هذه الأيام عندما نستخدم عبارة «رجل عظيم»؟

قلت: عظمة العقل بالتأكيد، إضافة إلى القوة الأخلاقية... أليس كذلك؟

نظر إليّ وكانت عيناه تلمعان وسألني: إذن ألا يوجد رجل شرير يمكن وصفه بالعظيم؟

صاحت رودا: بلى بالطبع. نابليون وهتلر وكثير من الناس. كلهم كانوا رجالاً عظاماً.

قال ديسبارد: أذلك بسبب التأثير الذي أحدثوه؟ ولكن لو عرفناهم معرفة شخصية فإنني أشك في أننا سنعجب بهم.

مالت غينغر إلى الأمام وأدخلت أصابعها في شعرها الكثيف ثم قالت: هذه فكرة مثيرة. ربما بدوا مثيرين للشفقة وأصغر من حجمهم الظاهر. إنهم مختالون مُدَّعون يشعرون بعدم ثقة في أنفسهم... مصممون على أن يكونوا مميزين، حتى لو اضطروا إلى تدمير العالم.

قالت رودا بحماسة: آه، كلا. لو كانوا كذلك فعلاً لما استطاعوا أن يصلوا إلى النتائج التي وصلوا إليها.

قالت السيدة أوليفر: لا أدري... إن أغبى طفل يستطيع إشعال النار في أي بيت بسهولة.

قال فينابلز: ما بالكم؟ إنني لا أستطيع تقبل هذا المفهوم الحديث الذي يقلل من قيمة الشر ويراه شيئاً غير موجود. يوجد شر، بل هو شر قوي، وأحياناً يكون أقوى من الخير. إنه موجود، يجب الاعتراف به... ومحاربته. وإلا...

رفع ذراعيه في الهواء ثم أضاف: فإننا نلقي بأنفسنا في لجة الظلام.

قالت السيدة أوليفر معتذرة: إنني أبتكر -في الغالب- شخصية مجرمة في قصصي؛ فالناس يحبون ذلك. ولكنني أجد -بالفعل- صعوبة متزايدة في رسم مثل هذه الشخصية. وطالما أن القارئ لا يعرف من هو المجرم فإنني أستطيع إبقاءه مؤثراً، ولكن عندما يظهر كل شيء فإنه يبدو غير مناسب أبداً... يبدو

نوعاً من الهبوط عن ذروة الحدث والشخصية. إنه لمن الأسهل كثيراً وضع مدير بنك يختلس من أموال البنك أو زوج يريد أن يتخلص من زوجته ويتزوج مربية أطفاله. هذا كله أكثر طبيعية.. إن كنتم تفهمون قصدي.

ضحك الجميع فقالت السيدة أوليفر معتذرة: أعرف أنني لم أعبر عما أريد قوله بطريقة صحيحة... ولكنكم تعرفون ما أعنيه؟

أجبناها بأننا نعرف بالضبط ما كانت تعنيه.

* * *

الفصل السادس

كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة عندما غادرنا برايورز كورت. فبعد غداء لذيذ أخذنا فينابلز في جولة في أرجاء بيته، وقد استمتع كثيراً وهو يرينا ممتلكاته المختلفة. كان بيته كنزاً حقيقياً.

قلت بعد أن غادرنا منزله: لا بد أن ثروته واسعة. تلك الحجارة الكريمة، وذلك التمثال الأفريقي الثمين، ناهيك عن خزفياته التاريخية الثمينة. إنك محظوظة لأن لك مثل هذا الجار.

قالت رودا: معظم الناس الذين يعيشون هنا لطفاء، ولكنهم يثيرون الملل. أما السيد فينابلز فلا شك أن غرابة أطواره تميزه عنهم إيجابياً.

سألتها السيدة أوليفر: كيف جمع ثروته؟ أم أنه غني بالوراثة؟

قال ديسبارد ساخراً إن أحداً لا يستطيع هذه الأيام أن يتباهى بثروة موروثة بهذا الحجم بسبب الضرائب التي تفرض على الأموال الموروثة. ثم أضاف: أخبرني أحدهم أن فينابلز بدأ حياته حمالاً في أحد الموانئ، ولكن ذلك يبدو بعيد الاحتمال. إنه لم يتحدث أبداً عن صباه أو عن عائلته.

ثم التفت إلى السيدة أوليفر وقال: إنه رجل غامض يصلح موضوعاً لك...

ردت السيدة أوليفر بأن الناس يعرضون عليها دائماً أشياء لا تريدها.

كان «الحصان الأشهب» مبنى نصف خشبي. وقد أقيم بعيداً قليلاً عن شارع القرية، ويمكن ملاحظة حديقة مسورة وراءه مما يعطيه منظراً جميلاً فيه عبق الماضي. وقد خاب أملي عندما رأيته وعبّرت عن شعوري هذا. قلت متذمراً: لا يوحي البيت بكل ذلك الشر... ليس فيه أي جو غريب.

قالت غينغر: انتظر حتى تدخل إليه.

خرجنا من السيارة وصعدنا باتجاه باب البيت الذي فتح عندما اقتربنا منه.

وقفت الآنسة تيريزا غري على عتبة الباب. كانت امرأة طويلة القامة ذات جسم رجولي بعض الشيء وترتدي معطفاً

صوفياً وتنورة. كان شعرها خشناً رمادياً يرتفع فوق جبهة عالية وأنفها كبيراً معقوفاً وعيناها زرقاوين حادتين.

قالت بصوت عميق ودي: لقد وصلتم أخيراً. ظننت أنكم ضللتم الطريق.

رأيت وراءها وجهاً كان يطل من ظلال الصالة المعتمة. كان وجهاً غريباً عديم الشكل والمعالم، أشبه بوجه من المعجون صاغه طفل دخل ليلعب في ورشة أحد النحاتين، أو كصورة رسم بدائي.

قدمتنا رودا وأوضحَتْ لها بأننا كنا نتناول الغداء عند السيد فينابلز في برايورز كوت.

قالت الآنسة غري: آه! هذا يوضح الأمر! تلك الطباخة الإيطالية لديه تُعد أفخر أنواع الطعام! وكل هذه الكنوز وبيته الذي يعد كنزاً بحد ذاته. آه، إنه مسكين... يجب أن يكون لديه شيء يفرحه. تفضلوا... تفضلوا. إننا نفخر ببيتنا الصغير هذا... إنه من القرن الخامس عشر، وبعض أجزائه تعود إلى القرن الرابع عشر.

كان الصالة معتمة ذات سقف منخفض وبها سلم ملتو يؤدي إلى الطابق العلوي. وكان فيها أيضاً موقد عريض فوقه لُوحة.

قالت الآنسة غري وقد لاحظت نظراتي: إنها لوحة اسم النزل القديم. لا يمكنك أن تراها بوضوح من خلال هذا الضوء، ومكتوب عليها: «الحصان الأشهب».

قالت غينغر: سأنظفها لك... لقد وعدتك بذلك. أعطني إياها وسوف تفاجئين.

قالت تيريزا غري بغلظة: أشك بذلك... وماذا لو أتلفتِها.

ردت عليها غينغر بشيء من الحنق: "لن أتلفها بالطبع. إنه عملي". ثم أوضحت تقول لي: إنني أعمل لدى قاعات الفنون بلندن، وهو عمل ممتع.

قالت تيريزا: ترميم اللوحات الحديثة يتطلب بعض خبرة. إنني أذهل في كل مرة أدخل فيها صالة المعارض الوطنية هذه الأيام؛ فكل اللوحات تبدو وكأنها غسلت بأحدث المنظفات.

احتجت غينغر قائلة: "لا يمكن أن تفضليها مغبرّة"... ثم حدقت بلوحة النزل وقالت: سيظهر الكثير لو نُظفت، فقد يظهر فارس على صهوة هذا الحصان.

أخذتُ أحدق في الصورة معها. كانت لوحة بدائية لا يميزها إلا القِدَم والاتساخ إن كان ذلك ميزة... كانت صورةٌ لحصان أشهب تومض على خلفية معتمة غير محددة.

صاحت تيريزا: أهلاً سايبل... الضيوف ينتقدون حصاننا، يا لتدخلاتهم!

خرجت الآنسة سايبل من أحد الأبواب لتنضم إلينا. كانت امرأة طويلة نحيلة القامة ذات شعر أسود دهني وابتسامة متكلفة وفم كفم السمكة.

كانت تلبس سارياً أخضر لامعاً لم يساهم في تحسين شكلها. كان صوتها خافتاً مرتعشاً. قالت: "حصاننا العزيز! لقد أحببنا تلك اللوحة القديمة الخاصة بالنزل منذ أن رأيناها، وأظنها أثّرت فعلاً في قرار شرائنا للبيت. أليس كذلك يا تيريزا؟". ثم أضافت: تفضلوا... تفضلوا.

كانت الغرفة التي أدخلتنا إليها صغيرة مربعة الشكل ومؤثثة بأثاث متواضع وفيها أحواض زهور، وكان واضحاً أنها غرفة جلوس لسيدة على النمط الريفي.

بعد ذلك أخذتْنا لرؤية الحديقة التي قدّرتُ أن من شأنها أن تسحر الأنظار في الصيف، ثم عدنا إلى البيت لنجد الشاي في استقبالنا. أكلنا الشطائر والكعك المصنوع في البيت، وبينما كنا نجلس دخلت المرأة العجوز التي لمحتُ وجهها للحظة في الصالة قبل دخولنا وهي تحمل إبريق شاي فضياً. كانت تلبس ثوباً أخضر داكناً، وتأكد -لدى التدقيق عن قرب- انطباعي عن شكل رأسٍ صاغه طفل على عجل من مادة المعجون. كانت ذات وجه بدائي يخلو من الفطنة، ولكنني لم أستطع فهم سبب إحساسي بأنه وجه شرير.

فجأة أحسست بالغضب من نفسي. ما كل هذا الهراء حول نزل تم تحويره وثلاث نساء في أوساط عمرهن!

قالت تيريزا: شكراً لك يا بيلا.

– هل أخذتم كل ما تريدون؟

خرجت هذه العبارة منها كالغمغمة تقريباً.

– نعم، شكراً لك.

تراجعت بيلا صوب الباب. لم تكن قد نظرت إلى أحد ولكن قبل أن تخرج رفعت عينيها وألقت عليّ نظرة سريعة. كان في نظرتها تلك شيء أخافني... رغم صعوبة تفسير السبب. كان في تلك النظرة ضغينة، ومعرفة حميمة غريبة. شعرت بأنها عرفت تماماً –دون فضول تقريباً– الأفكار التي كانت تجول في خاطري.

* * *

كانت تيريزا غري قد لاحظت رد فعلي. قالت بهدوء: إن بيلا مزعجة يا سيد إيستربروك، أليس كذلك؟ لقد لاحظتُ نظرتها إليك.

جاهدت لأظهر أن ما انتابني لا يعدو الاهتمام المؤدب، وسألتها: إنها من أهل المنطقة، أليس كذلك؟

– بلى. لا بد أن أحداً أخبرك بأنها الساحرة المحلية في القرية.

عبثت سايبل ستامفورديز بعقد الخرز الذي يلف عنقها وقالت: والآن اعترف يا سيد... سيد...

– إيستربروك.

– إيستربروك. أنا واثقة أنك سمعت بأننا جميعاً نمارس السحر... لقد اكتسبنا شهرة واسعة كما تعرف... وربما كانت شهرة عن جدارة! إن لدى سايبل مواهب عظيمة.

تنهدت سايبل بارتياح وتمتمت: لقد جذبتني الخوارق دوماً، وحتى عندما كنت طفلة أدركت أن لديّ قوى غير طبيعية، وكنتُ دوماً فائقة الحساسية والإدراك. أُغمي عليّ ذات مرة عندما أخذوني لتناول الشاي في بيت إحدى الصديقات. كان شيء مخيف قد حدث في تلك الغرفة... أحسست بذلك! وقد اتضح الأمر لدينا فيما بعد؛ فقد وقعت جريمة قتل هناك... قبل خمس وعشرين سنة. في تلك الغرفة بعينها!

أومأت برأسها ونظرت إلينا بارتياح عظيم.

قال الكولونيل ديسبارد بأدب يخفي تحته اشمئزازاً: أمر ملفت تماماً للنظر.

وتدخلت رودا قائلة: إن لون الساري الذي تلبسينه رائع.

تهلل وجه سايبل وقالت: اشتريته عندما كنت في الهند. لقد قضيت وقتاً ممتعاً هناك، وقد درست اليوغا، ولكني شعرت بأنها من الطقوس شديدة التطور والتعقيد. أنا أشعر بأن علينا أن نعود إلى البدايات، إلى القوى البدائية الأولى!

نهضت سايبل وذهبت لتحضر شيئاً من حافة النافذة وعادت

تقول: طوطمي هذا يدعى آسون. إنه ثَمَرة قَرعٍ مُجففة فيها شبكة من الخرز و... وهل ترى هذه القطع الصغيرة؟... إنها فقرات أفعى حافة.

نظرنا بأدب رغم عدم حماستنا، وخشخشت سايبل بلعبتها المرعبة بكل إعجاب.

قال ديسبارد من باب اللباقة والذوق: إنها مثيرة جداً.

- يمكنني أن أخبرك بالمزيد...

عند هذه النقطة ابتعد انتباهي عنها، وباتت كلماتها تـأتيني ضبابية بعيدة وهي تمضي في التباهي بمعرفتها بأسرار عـالم السحر وأنواعه البدائية المختلفة.

التفتُّ برأسي لأجد تيريزا تنظر إليّ نظرات متفحصة. قـالت: أنت لا تصدق شيئاً من هذا، أليس كذلك؟ ولكنك مخطـئ. لا يمكنك أن تنحي كل شيء جانباً بوصفه خرافات أو بسـبب الخوف. توجد حقائق وقوى جوهرية ذات علاقة بعناصر الطبيعـة. كانت موجودة دائماً، وستبقى كذلك.

قلت: لا أظن أن بإمكاني المجادلة في هذا.

- رجل حكيم... تعال لترى مكتبتي.

تبعتها وهي تخرج إلى الحديقة ثم إلى جـانب البيـت. أوضحت تقول: لقد حولنا الإسطبلات القديمة إلى مكتبة.

كانت الإسطبلات والمباني الخارجية قد أعيد إنشـاؤها لتشكل غرفة واحدة كبيرة، وكانت الكتب مصفوفة علـى طـول الجدار. ذهبت باتجاهها وصحت على الفور من الدهشة: لديك كتب نادرة جداً هنا يا آنسة غري... لديك كنوز من الكتب.

- نعم.

أنزلتُ المجلد تلو الآخر عن الرفوف. وراقبتنـي تيريزا... كانت تبدو راضية ومسرورة بطريقة لم أفهمها.

أعدت أحد المجلدات بينما كانت تيريزا تقول: جميل أن يقابل المرء شخصاً يقدر قيمة كنوزه. إن معظم النـاس يكتفـون بالتثاؤب أو يحدقون كالبُله فقط.

- لا أظن أن الكثير قد فاتك من معلومات السحر والخوارق وغير ذلك. ما الذي جعلك تهتمين بذلك أصلاً؟

- يصعب تذكر ذلك الآن؛ فقد مضى عليه وقت طويـل جداً. ينظر المرء في العادة إلى شيء دون اهتمام... ثم لا يلبـث ذلك الشيء أن يستحوذ عليه. إنه أمر رائع؛ الأشياء التي يعتقدها الناس، والأشياء السخيفة التي يفعلونها!

ضحكت وقلت: هذا ممتع. إنني مسرور لأنك لا تصدقين كل ما يُكتب.

- يجب ألا تحكم عليَّ قياساً على المسـكينة سـايبل. آه، نعم، لقد رأيتك تنظر إليها نظرات فوقية. لكنك كنـتَ مخطئاً.

إنها امرأة سخيفة في كثير من النواحي. إنها تأخذ سحر القبائل البدائية والسحر الأسود وتخلط ذلك كله لتخرج بوجبة خوارق رهيبة القوة.

– القوة؟

– لا أدري ماذا يمكن أن تسميها غير ذلك... يوجد أناس يستطيعون أن يكونوا جسراً حياً بين هذا العالم وعالم القوى الغريبة والخارقة، وسايبل واحدة منهم. إنها وسيطة من الدرجة الأولى، كما أنها لم تقم بهذا العمل مقابل النقود أبداً. إن موهبتها استثنائية. عندما كنا هي وأنا وبيلا...

– بيلا؟

– آه، نعم. إن لدى بيلا قواها الخاصة أيضاً. كلنا نمتلك قوى خاصة ولكن بدرجات مختلفة... كفريق.

سكتت، فقلت مبتسماً: أنت تصدقين ذلك، أليس كذلك؟

– لا أصدقه تصديقاً وحسب، بل أعرفه على وجه اليقين.

كانت تتكلم بنشوة المنتصر... نظرت إليها وقلت: ولكن كيف؟ ولأي سبب؟

مدت يدها نحو رفوف الكتب وقالت: كل هذا... إن معظمه هراء! مجرد تلاعب سخيف بالكلمات الفخمة! ولكن إذا وضعت الخرافات جانباً وجدت أن اللُبَّ صحيح! إنه لا يعدو

أن يكون مزيناً ومبهرجاً بغرض التأثير على الناس.

– لست واثقاً من أنني أفهمك.

– يا عزيزي، لماذا يأتي الناس –على مر العصور– إلى العرّاف أو إلى الساحر؟ لسببين اثنين فقط؛ الحب والموت.

سألتها: الموت؟

– الموت؟

ضحكت ضحكة غريبة أشعرتني بعدم الارتياح ثم قالت: هل أنت مهتم كثيراً بالموت؟

قلت بمرح: ومن لا يهتم؟

قالت: "عجباً". ثم رمقتني بنظرة حادة متفحصة أربكتني، وقالت: الموت... لقد كان دوماً تجارة رائجة. ومع ذلك... كم كان تفكير الناس بذلك طفولياً في الماضي! عائلة «بورجيا» وسمومها السرية المشهورة. هل تعرف ما الذي كانوا يستخدمونه في الحقيقة؟ زرنيخ أبيض عادي! تماماً كأية امرأة تقتل زوجها بالسم في الشوارع الخلفية. لكننا تطورنا كثيراً في هذا الزمن. لقد وسَّع العلم آفاقنا.

– بالسموم التي لا يمكن كشفها؟

كان صوتي حافلاً بالشك.

-السموم! إنها سخيفة.. أعمال طفولية. توجد آفاق جديدة.

- مثل ماذا؟

- العقل... معرفة طبيعة العقل، ماذا يمكنه أن يفعل... وماذا يمكن أن نجعله يعمل.

- استمري من فضلك، هذا مشوق للغاية.

- المبدأ معروف جيداً. الأطباء استخدموه في المجتمعات البدائية قروناً طويلة. لا حاجة بك لأن تقتل ضحيتك. كل ما عليك فعله هو... أن تخبره بأن يموت.

- الإيحاء؟ لكنه لن ينفع إلاّ إذا آمن الضحية به.

صحّحَتْ لي قائلة: أنت تقصد أنه لا ينفع مع المتمدنين.. بل هو ينفع أحياناً، لكن هذه ليست هي النقطة الأساسية. لقد تقدمنا كثيراً عن أطباء السحر. لقد أوضح علماء النفس الطريق؛ الرغبة بالموت! إنها موجودة في نفس كل إنسان. اعمل على هذه! اعمل على الرغبة بالموت.

- فكرة مثيرة. التأثير على المريض لحمله على الانتحار؟ هل هذا ما تقصدينه؟

- ما زالت معلوماتك رجعية. ألم تسمع بأناس تظهر عليهم أعراض أمراض حقيقية بسبب رغبة غير واعية في نفوسهم لتجنب العودة إلى العمل؟ ليس تمارضاً... بل مرض حقيقي له أعراض

وآلام حقيقية. لقد حير هذا الأطباء فترة طويلة.

قلت ببطء: لقد بدأتُ أستوعب ما تعنينه.

- حتى تدمر خصمك، يجب أن تمارس قوة على نفسه السرية اللاواعية. يجب تحفيز رغبة الموت الموجودة في نفس كل واحد منا وإيصالها إلى الذروة. ألا ترى؟ سيتم إحداث مرض حقيقي تسببه تلك النفس التي تبحث عن الموت. إنك ترغب في المرض، ترغب في الموت... وهكذا، تمرض فعلاً وتموت.

كان انفعالها يتصاعد مع الحديث، ثم رفعت رأسها عالياً من نشوة النصر. أحسستُ فجأة بالبرودة. كله هراء بالطبع. هذه المرأة مجنونة بعض الشيء، ومع ذلك...

ضحكت تيريزا غري فجأة وقالت: أنت لا تصدقني، أليس كذلك؟.

- إنها نظرية آسرة يا آنسة غري... ولكن كيف تقترحين تحفيز رغبة الموت هذه الموجودة عندنا جميعاً؟

- إنه سري الخاص. الطريقة! الوسائل! يمكن لتواصل أن يحدث دون اتصال. فكر في أجهزة الاتصال اللاسلكي والرادار والتلفزيون. إن التجارب على الإدراك الحسي الفائق لم تتقدم كما كان الناس يرجون، ولكن هذا لأنهم لم يفهموا المبدأ الأول البسيط. إنك تستطيع عمل ذلك أحياناً بطريق الصدفة، ولكن عندما تعلم كيف تعمل فإنك تستطيع عملها كل مرة...

- هل يمكنك أنت أن تعمليها؟

لم تجبني على الفور... ثم قالت وهي تبتعد: يجب ألا تطلب مني يا سيد إيستربروك كشف أسراري كلها.

تبعتها نحو الباب الحديقة... ثم سألتها: لماذا أخبرتني بكل هذا؟

- أنت عرفت كتبي. أحياناً يحتاج المرء إلى... إلى أن يتحدث مع شخص. إضافة إلى ذلك...

- نعم؟

- لدي فكرة، وبيلا أيضاً لديها نفس الفكرة... بأنك... قد تحتاجنا.

- أحتاجكن؟

- تعتقد بيلا أنك جئت إلى هنا... للعثور علينا. وهي نادراً ما تخطئ.

- ولماذا أريد «العثور عليكن» كما تقولين؟

قالت تيريزا غري بهدوء: هذا ما لا أعرفه... حتى الآن.

* * *

الفصل السابع

دخلت رودا من الباب والآخرون وراءها وهي تقول: "أنتما هنا إذن! لقد تساءلنا عن مكانكما". ثم نظرت حولها وقالت: هل هذه هي الغرفة التي تعقدين فيها جلسات تحضير الأرواح؟

ضحكت تيريزا غري وقالت: إنك مطلعة جيداً. الكل في القرية يعرفون عن عمل المرء أفضل مما يعرفه هو. لدينا سمعة قوية في الشر كما سمعت، ولو كنا نعيش قبل مئة عام من الآن لكنا تعرضنا للقتل حرقاً فوق كومة حطب. أظن أن إحدى جدات جدتي قد حُرقت في أيرلندا باعتبارها ساحرة... هكذا كان مصيرهن في تلك الأيام!

- كنت دوماً أحسبك من أصل اسكتلندي؟

- من طرف والدي، أما من ناحية والدتي فإنني أيرلندية. أما سايبل، عرافتنا، فهي من أصل يوناني. فيما تمثل بيلا التراث الإنكليزي القديم.

قالَ الكولونيل ديسبارد: كوكتيل بشري فظيع.

– كما تقول.

قالت غينغر: أمر ممتع!

نظرت تيريزا إليها نظرة سريعة وقالت: "نعم، ممتع بطريقة ما". ثم التفتت إلى السيدة أوليفر وقالت: يجب أن تكتبي قصة عن جريمة بواسطة السحر الأسود. يمكنني إعطاؤك الكثير من المعلومات عن ذلك.

بدت السيدة أوليفر مرتبكة وقالت معتذرة: إنني لا أكتب إلاّ قصصاً عن جرائم قتل واضحة... عن أناس يريدون التخلص من أناس آخرين ويحاولون قتلهم بطريقة ذكية.

قال الكولونيل ديسبارد: "إنهم دوماً أذكى من أن أستطيع تخمين تصرفاتهم". ثم نظر إلى ساعته وقال: رودا، أظن...

– آه، نعم، يجب أن ننطلق. لقد تأخر الوقت أكثر مما كنت أظن.

تم تبادل عبارات الشكر والوداع وانطلقنا خارجين. قالت السيدة أوليفر عندما انطلقنا في السيارة: لا أحب تلك المرأة، لا أحبها أبداً.

قال ديسبارد متسامحاً: يجب ألاّ تأخذي تيريزا على محمل الجد، إنها تحب التبجح بكل ذلك اللغو لترى تأثيره عليك.

– لا أقصد تيريزا. صحيح أنها امرأة بلا وازع حريصة كل الحرص على مصالحها الخاصة، ولكنها ليست بخطورة المرأة الأخرى.

– بيلا؟ إنها حقاً غامضة، أوافقك على ذلك.

– لم أقصدها هي الأخرى، وإنما قصدت سايل. إنها تبدو مجرد امرأة سخيفة. كل هذا الخرز وهذه الأقمشة التي تلف جسدها وكل هذا اللغو عن السحر البدائي وهذه القصص الغريبة عن تناسخ الأرواح التي حدثتنا بها. (وبالمناسبة: لماذا لم تتعرض خادمة عادية أو فلاح قبيح بسيط لعملية تناسخ الأرواح؟ ولماذا لا يكون التناسخ إلاّ لأرواح ملوك الفراعنة أو الأميرات البابليات؟ إن ذلك يدعو للريبة). ومع ذلك، وبرغم أن سايل غبية سخيفة، إلاّ أن لديّ إحساساً بأنها قد تستطيع عمل أشياء فعلاً... أشياء غريبة. لا أستطيع وصف أفكاري بشكل جيد، لكني أقصد أنها يمكن أن يستخدمها شخصٌ ما... بطريقة ما... لمجرد أنها غبية وسخيفة. لا أظن أن أياً منكم يفهم ما أعنيه.

قالت غينغر: أنا أفهم، ولن أتعجب إن صحّ ظنك.

قالت رودا: علينا أن نحضر واحدة من جلسات تحضير الأرواح هذه، فربما كانت مسلية.

قال ديسبارد بحزم: كلا، لا يمكن ذلك. لن أدعك تتورطين في عمل كهذا.

ثم دار بينهما جدل هزلي. ولم أتدخل أنا إلاّ حين سمعت السيدة أوليفر تسأل عن مواعيد القطارات صباح اليوم التالي. قلت: يمكنك أن تعودي معي في السيارة.

بدت السيدة أوليفر مرتابة قالت: أظن أن من الأفضل أن أذهب بالقطار.

– آه، ما بالك؟ لقد ركبت معي في السيارة من قبل. إنني سائق يعتمد عليه.

– لا أعني هذا يا مارك، ولكن يجب أن أذهب لحضور جنازة غداً؛ لذلك يجب ألاّ أتأخر في العودة إلى البلدة.

ثم أضافت وهي تتنهد: إنني أكره حضور الجنائز.

– وهل يجب عليك ذلك؟

– أظن أن ذهابي واجب في هذه الحالة؛ فماري ديلافونتين كانت صديقة قديمة لي، وأظنها كانت سترغب بمشاركتي في الجنازة.

صحتُ قائلاً: بالطبع. ديلافونتين... بالطبع.

حدق الآخرون فيّ مندهشين فقلت: آسف. إنني.. فقط.. أعني أنني كنت أتساءل أين سمعت بذلك الاسم من قبل.

نظرتُ إلى السيدة أوليفر وقلت: أنت التي ذكرت لي اسمها، أليس كذلك؟ قلتِ شيئاً عن زيارتك لها في مصح.

– أحقاً؟ هذا محتمل.

– وما هو سب موتها؟

تجعد جبين السيدة أوليفر وقالت: الالتهاب التسممي للأعصاب المتعددة... أذكر شيئاً كهذا.

كانت غينغر تنظر إليّ بفضول، وكانت لها نظرة خارقة حادة. وعندما خرجنا من السيارة قلت فجأة: أريد أن أمشي قليلاً؛ فقد تناولت طعاماً كثيراً. ذلك الغداء الرائع ثم الشاي فوقه... يجب التخلص منه بطريقة ما.

انطلقت بسرعة قبل أن يعرض أحد مرافقتي. كنت أريد الاختلاء بنفسي حتى أرتب أفكاري.

ما كل هذا الذي أراه؟ أريد على الأقل أن أوضح الأمر مع نفسي. لقد بدأ الأمر كله بتلك الملاحظة المفاجئة والعرضية التي قالتها بوبي وهي أنك إذا أردت أن **تتخلص من أي شخص** فإن «الحصان الأشهب» هو المكان الذي تذهب إليه. وتبع ذلك لقائي مع جيم كوريغن وقائمة الأسماء واسم تاكرتُن، مما جعلني أعود بذاكرتي إلى تلك الليلة في مقهى لويجي. وكان فيها اسم ديلافونتين أيضاً، اسم مألوف لديَّ بطريقة غامضة. كانت السيدة أوليفر هي التي ذكرته على أنه اسم صديقة مريضة، وهذه الصديقة المريضة ماتت الآن.

بعد ذلك كنت قد ذهبت –لسبب لم أستطع تحديده تماماً–

لمقابلة بوبي في المحل الذي تعمل فيه. وقد أنكرت بوبي بقـوة أية معرفة لها بشيء يحمل اسم «الحصان الأشهب»، ولكن الأمر الذي يحمل المغزى الأكبر هو أن بوبي كانت خائفة. واليوم... تيريزا غري.

ولكن المؤكد أن «الحصان الأشهب» والسيدات اللاتي يقمن فيه كان شيئاً، بينما كانت قائمة الأسماء شيئاً آخر منفصلاً ليس له أية صلة به. لماذا كنت أجمعهما معاً في عقلي؟ لماذا أتخيل وجود صلة لهما ببعضهما.

لقد عاشت السيدة ديلافونتين في لندن كما يفترض. وكان منزل توماسينا تاكرتن في مكان ما في صرّي. لا يوجد لأحد من المذكورين في القائمة صلة بقرية متش دينغ الصغيرة، إلاّ إذا...

كنت أقترب من كينغز آرمز، وكان كينغز آرمز هذا نزلاً فخماً له شكل جذاب ومكتوب عند مدخله إعلان حديث عن وجود غداء وعشاء وشاي.

فتحت بابه ودخلت. كانت تمتد إلى يمين الداخل قائمة صغيرة تشتم منها بقايا روائح دخان، وبجانب السلم كانت علامة «مكتب». كان المكتب يتألف من نافذة زجاجية مغلقة بإحكام وبطاقة مطبوع عليها عبارة «اضغط الجرس». كان المكان كله يوحي بأنه مهجور خال من الناس في مثل هذه الساعة من النهار، وعلى رف نافذة المكتب كان يوجد سجل زوار مهترئ. فتحته وتصفحته.

لم يكن السجل قد أولي عناية كبيرة. كانت فيه خمسة أسماء أو ستة سجلت في كل أسبوع، ومعظمهم أقام فيه لليلة واحدة. نفضت الغبار عن الصفحات ولاحظت الأسماء.

لم يطل الأمر كثيراً حتى أغلقت الدفتر. لم يكن في الداخل أي شخص، ولم تكن لديّ أي أسئلة أريد أن أسألها في تلك المرحلة. خرجت مرة أخرى إلى الجو الرطب.

هل كان مجرد صدفة أن شخصاً يدعى ستانفورد وشخصاً آخر يدعى باركنسون كانا قد أقاما في «كينغز آرمز» العام الماضي؟ كلا؛ فالاسمان كانا موجودين في قائمة كوريغن. نعم، لكنهما كانا اسمين شائعين. لكني لاحظت اسماً آخر... اسم مارتن ديغبي. إنْ كان هو مارتن ديغبي الذي أعرفه، فقد كان حفيد أخ المرأة التي كنت أدعوها باسم العمة مينليدي هيسكيث-دوبوا.

مشيت على الطريق دون أن أعرف إلى أين كنت ذاهباً. كنت أتوق إلى الحديث مع شخص ما... مع جيم كوريغن، أو مع ديفيد آردينغلي، أو هيرميا ذات العقل الهادئ الرزين. كنت أسير وحيداً مع أفكاري المشوشة ولم أرد أن أكون وحيداً. إن ما أردته -بصراحة- هو شخص يناقشني ويبعدني بحجته عما كنت أفكر فيه.

وبعد ذلك بحوالي نصف ساعة من المشي في الأزقة الموحلة وصلت إلى بوابة بيت الكاهن، ودخلت الطريق المؤدي إلى الباب الرئيس ثم ضربت جرس الباب.

قالت السيدة كالثروب عندما ظهرت عند الباب فجأة: إنه لا يرن.

كنت قد ارتبت في تلك الحقيقة أصلاً. وأضافت السيدة كالثروب تقول: لقد أصلحوه مرتين، ولكنه لا يدوم طويلاً؛ ولذلك يجب أن أظلّ يقظة خشية ورود شيء هام. إن مسألتك هامة، أليس كذلك؟

- إنها... نعم، هامة... أقصد بالنسبة لي.

- هذا ما قصدته أنا أيضاً.

نظرت إليّ نظرات متأملة ثم قالت: نعم، الأمر مُلحٌّ تماماً. أرى ذلك... من تريد؟ الكاهن؟

- إنني... إنني لست واثقاً...

كنت قد جئت لرؤية الكاهن... ولكنني أحسست الآن بالارتياب على غير توقع. لم أعرف السبب، لكن السيدة كالثروب أخبرتني على الفور. قالت: زوجي رجل طيب جداً.. أقصد إلى جانب كونه الكاهن، وهذا ما يجعل الأمور صعبة أحياناً؛ فالطيبون لا يفهمون الشر على حقيقته.

سكتت قليلاً ثم قالت بشيء من الكفاءة الحازمة: أظن من الأفضل أن تراني أنا.

ارتسمت على شفتيّ ابتسامة باهتة، وسألتها: هل الشر من

اختصاصك؟

- نعم، إنه كذلك! وإذا عرف المرء ذلك فإنه يساعد في حماية الآخرين من أذاه.

قلت: لا أستطيع المنافسة مع معرفتك الخبيرة، ولكنني أحب حماية الناس من الأذى.

نظرت إليّ نظرة سريعة وقالت: الأمر كذلك إذن؟ من الأفضل أن تدخل حتى نستريح.

كانت غرفة الجلوس في بيت الكاهن كبيرة الحجم غير مرتبة. كانت نوافذها مظللة من الخارج بشجيرة قديمة بدا أن أحداً لا يملك القدرة على تقليمها. ولكن العتمة التي كانت تحدثها لم تكن تثير الكآبة لسبب غريب، بل كانت -على العكس من ذلك- مريحة. كانت كل الكراسي الكبيرة تحمل آثار أجيال جلست عليها لسنوات طويلة، وكانت الساعة الكبيرة على رف المدفأة تدق دقات ثقيلة منتظمة ومريحة. ستجد دوماً الوقت الكافي للحديث لتقول كل ما تريد قوله.

هنا، في هذه الغرفة -كما شعرت- أتى الأقارب الغاضبون ليفرغوا غضبهم على أنسبائهم وأصهارهم، وهنا أتت الأمهات ليشرحن أن أولادهن لم يكونوا سيئين، بل مجرد مندفعين، ولذلك فمن السخف إرسالهم إلى إصلاحيات الأحداث. وهنا أتى الأزواج والزوجات ليبوحوا بمصاعب حياتهم الزوجية. وهنا كنت أنا (مارك إيستربروك) العالم والمؤلف والإنسان في

مواجهة امرأة رمادية الشعر سفعاء البشرة مستعداً لأضخَّ متاعبي وهمومي أمامها. لماذا؟

بدأت حديثي قائلاً: لقد عدنا لتونا من زيارة تيريزا غري وتناول الشاي عندها.

لم يكن شرح الأمور للسيدة كالثروب بالعمل الصعب أبداً؛ فهي تبادر لتكمل عنك كلامك. قالت: آه، فهمت. هل تضايقت من الزيارة؟ أوافقك على أن هؤلاء الثلاث يصعب فهمهن. لقد حيرني أمرهن كثيراً... إنهن يتباهين بأنفسهن كثيراً، وحسب خبرتي فإن الشرير لا يتباهى بقدراته بشكل عام. إن ساحرات القرى هن –في العادة– من العجائز السخيفات سيئات الطبع اللاتي يحببن إخافة الناس والحصول على أشياء دون مقابل بهذه الطريقة. إنه عمل سهل بالطبع، فعندما تموت دجاجات فلانة من الناس ما عليك إلاّ أن تهز رأسك وتقول بأسلوب مبهم: "آه، إنها قد أغضبت قطتي يوم الثلاثاء الماضي". قد تكون بيلا ساحرة من هذا النوع، ولكنها قد تكون أكثر من ذلك. ربما، ربما كانت امتداداً لظاهرة موغلة في القدم في الأرياف. أما سايبل فهي من أغبى النساء اللاتي رأيتهن، ولكنها وسيطة فعلاً... كائناً ما كان معنى كلمة وسيطة. أما تيريزا، فلا أعرف! ما الذي قالته لك؟ أظن أن شيئاً مما قالته هو الذي أزعجك، أليس كذلك؟

– لديك خبرة واسعة يا سيدة كالثروب. هل تظنين –من كل ما تعرفينه وما تسمعينه– بأنه يمكن لشخص أن يحطم إنساناً

عن بعد ودون اتصال ظاهر؟

فتحت السيدة كالثروب عينيها قليلاً وقالت: هل تعني بالتحطيم ما أفهمه أنا، أي القتل؟ القتل كواقعة مادية واضحة؟

– نعم.

قالت بقوة: أظن ذلك هراء.

قلت بارتياح: آه.

– لكني قد أكون مخطئة بالطبع. كان والدي يقول إن المناطيد هراء، وربما كان جدي الأكبر يقول إن القطارات هراء. كانت تلك الاختراعات مستحيلة في زمان أبي وجدي، ولكنها الآن ليست مستحيلة. ما الذي تفعله تيريزا؟ هل تبث أشعة قاتلة أم ماذا؟

ابتسمتُ وقلت: إنك تضعين الأمور في مكانها الصحيح بالنسبة لي. لا بد أنني سمحت لتلك المرأة بأن تنومني مغنطيسياً.

– آه، كلا. ما كنتَ لتنام مغنطيسياً؛ فلستَ من النوع الذي يسهل تأثره بالإيحاء. يجب أن يكون في الأمر شيء آخر. شيء حدث أولاً... قبل كل هذا.

قلت لها: أنت على حق.

ثم أخبرتها بكلمات مختصرة وبسيطة قدر الإمكان عن مقتل الأب غورمان وذلك الذكر العارض في المطعم للحصان

الأشهب. ثم أخرجت من جيبي قائمة الأسماء التي نسختها من الورقة التي أراني إياها الدكتور كوريغن.

نظرت السيدة كالثروب إليها عابسة ثم قالت: فهمت. وهؤلاء الناس؟ ما هو الشيء الذي يجمع بينهم؟

- لسنا متأكدين. قد يكون ابتزازاً... أو المخدرات...

- هراء؛ ليس هذا ما يقلقك. إن ما تعتقده حقيقة... هو أنهم جميعاً موتى؟

تنهدت بعمق وقلت: نعم، هذا ما أظنه. لكني -في الحقيقة- لا أعرف إن كان الأمر كذلك. ثلاثة منهم موتى بالفعل. الليدي هيسكيث-دوبوا، وتوماسينا تاكرتن، وماري ديلافونتين. ثلاثتهن مُتنَ على أسرتهن لأسباب طبيعية... وهو ما تزعم تيريزا غري أنه يمكن أن يحدث!

- تقصد أنها تزعم بأنها جعلت ذلك يحدث؟

- لا، لا. لم تكن تتكلم عن أناس بعينهم. كانت تشرح ما تعتقد أنه احتمال علمي.

قالت السيدة كالثروب متأملة: أعرف. وقد كان من شأني أن أتصرف بأدب تجاه طرحها وأكتفي بالضحك في داخلي لولا ذلك الذكر الغريب لعبارة «الحصان الأشهب» .

- نعم. الحصان الأشهب... أمر يوحي بالكثير.

سكتت لحظة ثم رفعت رأسها وقالت: إنه أمر سيء... سيء جداً. ومهما كان خلف هذا الأمر، فإنه يجب إيقافه. لكنك تعرف هذا. هذا ما عليك أن تكتشفه. ولا وقت لإضاعته.

نهضت السيدة كالثروب وكلها نشاط وقوة. قالت: يجب أن تباشر العمل في الأمر... فوراً.

ثم فكّرَتْ قليلاً وقالت: هل لديك صديق يمكنه مساعدتك؟

فكرتُ. جيم كوريغن؟ رجل مشغول دائماً ليس لديه الوقت الكافي، كما أنه يفعل ما بوسعه. ديفيد آردينغلي؟ ولكن هل سيصدق ديفيد كلمة واحدة من هذا؟ هيرميا؟ نعم، هيرميا. فتاة ذات عقل صاف ومنطق يثير الإعجاب. إنها بالغة الصلابة لو استطعت إقناعها لمساعدتي في هذا العمل؛ فأنا وهي في نهاية المطاف... لم أكمل الحملة. إن هيرميا هي المرشحة لتغدو زوجتي... هيرميا هي الشخص المطلوب.

- هل فكرت في أحد؟ جيد.

كانت السيدة كالثروب سريعة وعملية. قالت: سأراقب الساحرات الثلاث. ما زلت أشعر أنهن... بشكل ما، لا يشكلن حقاً الجواب الصحيح. إن الأمر أشبه بما تفعله سايبل هذه عندما تتكلم بعبارات كثيرة وغبيّة عن الألغاز المصرية المذكورة في نصوص المصريين القدامى. إن كل ما تقوله هراء واضح، ولكن توجد بالفعل أسرار للمصريين القدامى تتعلق بالأهرامات وبالمعابد

الفرعونية. إنني أشعر بأن تيريزا غري تعرف شيئاً وهي تستخدمه برعونة للتباهي بأهميتها وسيطرتها على القوى الخارقة. الناس يفتخرون كثيراً بالشر. أليس غريباً ألاّ يفتخر الطيبون بطيبتهم؟ هنا تبرز أهمية نعمة التواضع؛ فالطيبون لا يدركون حتى حقيقة طيبتهم.

سكتت لحظة ثم قالت: إن ما نحتاجه -في الحقيقة- هو صلة من نوع ما. صلة بين واحد من هذه الأسماء في القائمة وبين «الحصان الأشهب»... شيء ملموس.

* * *

الفصل الثامن

سمع المفتش لوجون أحدهم يتغنى بأغنية شعبية في الممر خارج غرفته فرفع رأسه ليرى الدكتور كوريغن وهو يدخل عليه.

قال كوريغن: آسف لإزعاج الجميع، لكن سائق تلك السيارة لم يكن ثملاً أبداً... إن ما شمّه الشرطي في أنفاسه لا بد أن يكون من خياله أو رائحة أنفاس السائق الكريهة فقط.

لكن لوجون لم يكن -في تلك اللحظة- مهتماً بمشكلات وحوادث سائقي السيارات التي تحدث يومياً. قال: تعال وألقِ نظرة على هذه.

أخذ كوريغن الرسالة التي أعطاها له. كانت مكتوبة بخط صغير وأنيق، وقد جاء فيها:

"عزيزي المفتش لوجون،

ربما تذكر أنك طلبت مني الاتصال بك إن حدث ورأيتُ الرجل الذي كان يتبع الأب غورمان في الليلة التي قتل فيها.

لقد ظللت أرقب المنطقة المحيطة بصيدليتي، لكني لم أره مرة أخرى. ولكني حضرت بالأمس مهرجاناً خيرياً في قرية تبعد حوالي عشرين ميلاً من هنا. وقد جذبني إلى المهرجان وجود السيدة أوليفر (كاتبة الروايات البوليسية المعروفة) هناك، حيث كانت توقّع على قصصها. وأنا أحب قراءة القصص البوليسية، وقد شعرت بفضول كبير لرؤية تلك السيدة.

وما أدهشني أنني رأيت هناك الرجل الذي وصفتُه لك عندما مر من أمام صيدليتي في الليلة التي قتل فيها الأب غورمان. ويبدو أنه أصيب بعدها بحادث حيث رأيته في المهرجان يحرك نفسه جالساً على كرسي عجلات. وقد قمتُ سراً بعمل بعض التحريات عن شخصيته، فظهر لي أنه واحد من سكان المنطقة ويدعى فينابلز، وهو يقطن في بيت يدعى برايورز كورت في مَتش دينغ، ويقال إنه رجل ثري جداً.

أرجو أن تكون هذه المعلومات ذات فائدة لك.

المخلص: زكريا أوزبورن"

قال لوجون: حسناً، ماذا تقول؟

قال كوريغن ذاهلاً: يبدو أمراً بعيد الاحتمال.

- ربما من حيث الظاهر فقط. لكني لست متأكداً.

- لا يعقل أن يكون أوزبورن هذا قد رأى بوضوح تام وجه أي امرئ في ليلة ضباب كتلك الليلة. أظن أن ذلك مجرد تشابه؛ فأنت تعرف كيف يتصرف الناس عادة؛ يتصلون من

أقصى البلاد ليؤكدوا أنهم رأوا الشخص الفلاني المفقود... وفي معظم الحالات لا يكون بين من رآه وبين الشخص المفقود المنشورة أوصافه في الصحف أي تشابه!

قال لوجون: إن أوزبورن ليس مثلهم.

- كيف هو إذن؟

- إنه صيدلي محترم، من طراز قديم، ذو شخصية متميزة، ولديه قدرة عظيمة على ملاحظة الناس. إن إحدى أمنياته في هذه الدنيا هي أن يرتقي منصة الشهود ليتعرف إلى زوجٍ قاتل جاء إليه ليشتري الزرنيخ لقتل زوجته.

ضحك كوريغن وقال: إن هذا دليل واضح على أن تفكيره لا ينبع إلاّ من أمنياته.

- ربما.

نظر كوريغن إليه بفضول ثم قال: إذن فأنت ترى أنه ربما كان في الأمر شيء؟ وما الذي ستفعله حيال ذلك؟

- على أية حال لا يوجد أي ضرر لو قمنا ببعض التحريات السرية عن السيد فينابلز هذا الذي يسكن في...

عاد إلى الرسالة ليتأكد من العنوان وقال: برايورز كورت، في متش دينغ.

* * *

الفصل التاسع

قالت هيرميا بمرح: يا لها من أشياء مثيرة تحدث في الريف!

كنا قد انتهينا من تناول العشاء، وكان أمامنا إبريق قهوة. نظرت إليها. لم تكن الكلمات ما توقعتُه منها بالضبط، فقد أمضيتُ آخر ربع ساعة وأنا أحدثها بقصتي. وقد أصغت إليّ بتركيز عميق واهتمام كبير، ولكن إجابتها لم تكن ما توقعته منها أبداً. كانت نبرة صوتها تدل على استمتاع بالحديث، ولكن لم يبدُ أن قصتي صدمتها أو أثارتها.

أكملت تقول: الناس الذين يقولون إن الريف ممل بينما المدينة مليئة بالإثارة لا يعرفون عما يتكلمون... الخرافات والشعوذة والسحر. إن المرء يستطيع كتابة سلسلة مثيرة من المقالات حولها. لم لا تحاول أن تجرب الكتابة عن ذلك؟

– لا أظن أنك قد فهمت ما حدثتك عنه يا هيرميا.

– لقد فهمتك يا مارك! أظن أن الأمر كله مثير جداً. إنها صفحة من التاريخ... صفحة من التقاليد المنسية المتبقية من العصور الوسطى.

قلت غاضباً: إن اهتمامي لا ينصب على الجانب التاريخي للقضية. إنني مهتم فقط بالحقائق؛ مهتم بقائمة أسماء على ورقة. وأنا أعرف ما حدث لبعض أصحاب هذه الأسماء، ولكن ما الذي حدث أو سيحدث للبقية؟

– ألا ترى أنك تنجرف عاطفياً في هذا الأمر؟

قلت معانداً: لا، لا أظن ذلك. أحسب أن الخطر حقيقي.

رفعت هيرميا كتفيها حيرة وقالت: ربما.

– ولكنك لا ترين ما أراه، أليس كذلك؟

– أرى أن خيالك قد جمح بعيداً بعض الشيء يا مارك. أظن أن نساءك العجائز مخلصات تماماً في تصديقهن لذلك. إنني واثقة من أنهن عجائز قذرات جداً!

– لكنهن لسن شريرات حقيقة؟

– كيف يكُنَّ كذلك يا مارك؟

سكتُّ لبعض الوقت وسرحت مفكراً، ثم عاد تفكيري مرة أخرى إلى النقطة التي كنت أتحدث بها. قلت حازماً معانداً:

أريد أن أحقق في هذا الأمر... أريد معرفة حقيقة ما يجري.

– أنا متفقة معك. أرى أن عليك أن تفعل ذلك؛ فقد يكون الأمر مثيراً تماماً. والحقيقة أن فيه متعة بعض الشيء.

قلت بحدة: "ليس متعة!"، ثم أكملت: أردتُ أن أعرف إن كنتِ تستطيعين مساعدتي يا هيرميا.

– مساعدتك؟ كيف؟

– في التحقيق. أريد الوصول إلى حقيقة هذه الأشياء كلها.

– ولكنني -يا عزيزي مارك- مشغولة جداً في الوقت الحالي. لديّ المقال الذي أكتبه للصحيفة، وذلك البحث عن البيزنطيين، كما أنني وعدت اثنين من طلابي...

ومضى صوتها يرر بشكل معقول ومقنع، ولكن دون كبير إصغاء مني. قلت: فهمت، لديك الكثير من المشاغل.

– بالضبط.

ارتاحت هيرميا من تقبلي للأمر. ابتسمت لي ومرة أخرى صدمني ما أبدته من مظاهر الاستمتاع. استمتاع كالذي تظهره الأم نحو ولدها الصغير المنهمك في لعبته الجديدة.

تباً لهذا كله، فأنا لست ولداً صغيراً! لم أكن أبحث عن أم... وخاصة من هذا النوع؛ فأمي كانت جذابة و ضعيفة وكان كل من حولها -بما فيهم ابنها- يحب أن يرعاها.

تفحصت هيرميا الجالسة أمامي على الطاولة فحصاً هادئاً. أنيقة جداً، ناضجة جداً، ذكية جداً، واسعة الاطلاع جداً! وهي بالتالي... كيف أقول؟ نعم، وهي بالتالي مملة جداً!

* * *

في صباح اليوم التالي حاولت العثور على جيم كوريغن دون جدوى، ومع ذلك تركت له رسالة بأنني سأكون في البيت بين السادسة والسابعة إن كان بوسعه الحضور وتناول فنجان قهوة معي. كنت أعرف أنه رجل مشغول وكنت أشك في أنه سيستطيع المجيء دون ترتيب مسبق، ولكنه جاء في الساعة السابعة إلاّ عشر دقائق. وعندما كنت أحضر له القهوة تجول في البيت ليشاهد لوحاتي وكتبي، وفي نهاية الأمر قال إنه ما كان ليمانع في أن يكون إمبراطوراً مغولياً بدلاً من أن يكون جراحاً في الشرطة لا يجد وقتاً للراحة.

قال بعد أن جلس على كرسي: أظنك غير متزوج (كما يبدو من هذه الفوضى التي تعيش فيها). إن الزوجة ترتب كل هذا خلال لحظات. أنا أيضاً نجوت من النساء!

أخبرته بأنني لا أرى النساء سيئات كما يظن، ثم أخذت فنجاني وجلست على الكرسي المقابل له وبدأت الحديث: لا بد أنك تتساءل عن سبب طلبي لك بهذه السرعة، ولكن حدث في الواقع شيء قد يكون له صلة بالموضوع الذي كنا نناقشه في آخر مرة التقينا بها.

- ما هو ذلك الموضوع؟ آه، بالطبع. مقتل الأب غورمان.

-نعم... ولكن قبل كل شيء هل تعني عبارة «الحصان الأشهب» شيئاً بالنسبة لك؟ لأني أظن أن صلة ما قد تكون موجودة بين هذه العبارة وقائمة الأسماء تلك التي رأيتها معك. كنت في الريف مع بعض الأصدقاء... في قرية تدعى متش ديينغ، وأخذوني إلى نزل قديم (أو أنه كان نزلاً قديماً) يُدعى «الحصان الأشهب».

- انتظر قليلاً! متش ديينغ؟ متش ديينغ... أهي قرية قرب بورنماوث؟

- إنها تبعد عن بورنماوث حوالي خمسة عشر ميلاً.

- لا أحسبك قابلت شخصاً يدعى فينابلز هناك؟

- قابلته بالتأكيد.

سألني كوريغن بدهشة: قابلته؟ إن لديك بالتأكيد غريزة اختيار صحيحة للأماكن التي ترتادها! صفه لي.

- إنه رجل ملفت للنظر تماماً.

- صحيح؟ ملفت للنظر من أية ناحية؟

- بشكل رئيس في قوة شخصيته. رغم أنه مقعد تماماً بسبب الشلل...

قاطعني كوريغن قائلاً بحدة: ماذا؟

– لقد أصيب بالشلل قبل سنوات... نصفه السفلي مشلول.

ألقى كوريغن بظهره على الكرسي وعليه علامات الاستياء.

– هذا يقضي على الفرضية! لقد أحسستُ بأنها فرضية أروع من أن تكون حقيقية.

– لا أفهم ما تعنيه.

– لا بد أن تقابل المفتش لوجون؛ فسيكون مهتماً بما ستقوله له. عندما قتل غورمان، طلب لوجون معلومات من أي شخص رآه في الشارع في تلك الليلة. كانت معظم الإجابات عديمة الفائدة كما هي العادة، ولكن صيدلانياً يدعى أوزبورن (ويملك صيدلية في ذلك الشارع) أبلغ بأنه شاهد غورمان وهو يمر من أمام صيدلية في تلك الليلة، كما أنه رأى رجلاً كان يتبعه على بعد خطوات منه... وكان طبيعياً أن لا يشك في ذلك الأمر وقتها. لكنه نجح في وصف هذا الرجل وصفاً دقيقاً، وكان يبدو أنه واثق تماماً من أنه سيعرفه لو رآه ثانية. وقبل يومين تلقى لوجون رسالة من أوزبورن. إذ أنه تقاعد من عمله ويعيش الآن في بورنماوث وقد ذهب إلى مهرجان محلي، وقال إنه رأى الرجل موضوع الحديث هناك. كان في المهرجان يسير على كرسي عجلات، وقد سأل أوزبورن عن ذلك الرجل فأخبروه بأنه فينابلز.

نظر إليَّ متسائلاً، فأومأت برأسي وقلت: صحيح، كان

فينابلز. كان موجوداً في المهرجان، لكنه لا يمكن أن يكون هو الرجل الذي كان يسير في الشارع في باديتغتن خلف الأب غورمان. إن هذا مستحيل من الناحية الجسمانية... لقد أخطأ أوزبورن.

– لقد وصفه وصفاً دقيقاً ومفصلاً. إنه ذو أنف بارز معوج وحنجرته بارزة، أهذا صحيح؟

– نعم، إنها تطابق أوصاف فينابلز. ومع ذلك...

– أعرف. ليس بالضرورة أن يكون السيد أوزبورن بارعاً في معرفة الوجوه وتمييزها كما يعتقد. واضح أنه اختلط عليه الأمر بسبب التشابه. ولكن ما يثير العقل هو أن تأتي لتتحدث عن تلك المنطقة بذاتها... وتتحدث عن «الحصان الأشهب». ما هو الحصان الأشهب هذا؟ دعنا نسمع قصتك.

حذرته قائلاً: لن تصدقها... والحقيقة أنني أنا نفسي لا أصدقها.

– هيا، لنسمعها.

أخبرته عن حديثي مع تيريزا غري، وكان رد فعله فورياً.

– أي هراء فظيع هذا!

– إنه هراء فعلاً، أليس كذلك؟

– بالطبع! ماذا دهاك يا مارك؟ وسيطة أرواح، وساحرة

المنطقة، وعانس ريفية يمكنها إرسال إشعاعات الموت! إنه جنون... جنون دون شك!

قلت باكتئاب: نعم، جنون.

– آه! توقف عن موافقتي يا مارك. إنك تجعلني أشعر وكأن في الأمر شيئاً ما عندما تفعل ذلك. إنك تصدق وجود شيء في الأمر، أليس كذلك؟

– دعني أسألك سؤالاً في البداية: هل في هذا أية حقيقة علمية؟

تردد كوريغن لحظة ثم قال: لست طبيباً نفسياً، ولا أخفيك أنني أرى أن نصف أولئك الأطباء النفسانيين هم أنفسهم مجانين إلى حد ما. لقد ذهبت النظريات بعقولهم، وتراهم يذهبون فيها كل مذهب. والشرطة –أيضاً– لا يحبون الشاهد الطبيب الخبير الذي يُستدعى للدفاع عن المتهم وليبرر إقدامه على قتل امرأة عجوز لا حيلة لها ولا قوة لكي يسرق النقود التي في درجها بزعم الدوافع النفسية.

– هل تفضل تبريره بنظريتك عن تأثير الغدد؟

ابتسم وقال: حسناً، حسناً. إنني صاحب نظريات أيضاً... أعترف بذلك. ولكن وراء نظريتي سبباً فيزيائياً وجيهاً لو استطعت فقط وضع يدي عليه. أما هذا اللغو عن العقل الباطن فكله هراء!

– ألا تؤمن به؟

– بلى بالطبع، لكن هؤلاء الناس يتمادون فيه كثيراً. إن في «رغبة الموت» اللاواعية شيئاً من الحقيقة بالطبع، ولكن ليس بالدرجة التي يصورونها بها.

ألححت عليه قائلاً: لكن هذا الشيء موجود.

– من الأفضل أن تشتري كتاباً في علم النفس لتقرأ عن هذا الموضوع.

– تدَّعي تيريزا غري أنها تعرف كل شيء عن الموضوع.

تأفف قائلاً: تيريزا غري! ماذا تعرف عانس مخبولة تعيش في قرية عن سيكولوجية العقل؟

– تقول إنها تعرف الكثير.

– كما قلت من قبل... هراء!

– هذا ما يقوله الناس دائماً بخصوص أي اكتشاف لا يتوافق مع الأفكار المتعارف عليها...

قاطعني قائلاً: إذن فقد انطلى عليك كل هذا؟

– أبداً. كنت أريد أن أعرف فقط إن كانت لهذا الأمر أية أسس علمية.

قال كوريغن متأففاً: تباً للأسس العلمية!

– لا بأس... كنت أريد أن أعرف فقط.

- لن تلبث أن تخبرني بأنها المرأة ذات الصندوق!

- ومن هي المرأة ذات الصندوق هذه؟

- قصة خرافية تظهر من وقت لآخر... وهي من تأليف نوستراداموس. بعض الناس يصدقون كل شيء.

- أرجو أن تخبرني عما توصلت إليه بخصوص قائمة الأسماء هذه.

- لقد بذل الشرطة جهدهم في هذا الأمر، ولكن هذه الأشياء تستغرق وقتاً طويلاً وكثيراً من الجهد؛ فليس من السهل أن تتعرف على أسماء غير مكتملة أو على أسماء دون عناوين.

- لنأخذها من زاوية مختلفة. إنني مستعد على مراهنتك على شيء واحد. فخلال فترة قصيرة... بين سنة واحدة وسنة ونصف، توفي جميعُ من هم في هذه القائمة. هل أنا على صواب؟

نظر إليّ نظرة غريبة وقال: إنك على حق... دون شك.

- إنه الشيء المشترك بينهم... الموت.

- نعم، ولكن هذا قد لا يعني الكثير كما يُخيل إليك يا مارك. هل تعرف كم عدد الذين يموتون في الجزر البريطانية كل يوم؟ كما أن بعض تلك الأسماء شائعة جداً، مما لا يساعدنا.

قلت: ديلافونتين... ماري ديلافونتين. إنه اسم غير شائع، أليس كذلك؟ علمت أن جنازتها كانت يوم الثلاثاء الماضي.

نظر إلي نظرة سريعة وقال: كيف عرفت هذا؟ أظن أنك قرأت الخبر في الصحف.

- بل سمعته من صديقة لها.

- لم يكن في موتها ما يثير الشكوك... أستطيع أن أقول لك هذا. والواقع أنه لم توجد أية شكوك بخصوص وفاة أي من أصحاب تلك الأسماء التي كان الشرطة يحققون فيها. لو كانت وفيات ناتجة عن حوادث لكان في الأمر ما يريب، لكنها كانت وفيات طبيعية تماماً... ذات الرئة، نزيف في المخ، ورم بالدماغ، الحصاة الصفراوية، حالة شلل واحدة... وكلها لا تثير أية شكوك.

أومأت برأسي وقلت: لا حادث، ولا تسمم، مجرد أمراض عادية تؤدي إلى الوفاة. تماماً كما تزعم تيريزا غري.

- هل تريد -فعلاً- أن تقول إن تلك المرأة تستطيع إصابة شخص لم تره أبداً ويبعد عنها مسافة أميال بمرض ذات الرئة، ومن ثم يموت بهذا المرض؟

- لست أنا من يقول ذلك. هي التي قالت. وأظن أنه أمر غريب... وأتمنى أن يكون هذا مستحيلاً. ولكن توجد بالفعل عوامل غريبة: الذكر العرضي للحصان الأشهب في صلته بالتخلص من الأشخاص غير المرغوب فيهم. يوجد مكان يدعى «الحصان الأشهب» بالفعل، والمرأة التي تعيش هناك تتباهى بأن مثل هذا العمل ممكن. ويعيش في تلك المنطقة بالذات رجل تعرف عليه أحدهم معرفة أكيدة بأنه الذي شاهده وهو يتبع الأب غورمان

في الليلة التي قتل فيها... الليلة التي استُدعي فيها لرؤية امرأة تحتضر سُمعت وهي تقول: «شر عظيم». إن في هذا الكثير من المصادفات، ألا ترى ذلك؟

– الرجل لا يمكن أن يكون فينابلز لأنه كما تقول مصاب بالشلل منذ سنوات.

– أليس ممكناً –طبياً– أن يكون هذا الشلل مزيفاً؟

– بالطبع لا؛ فالأطراف تكون ضامرة.

اعترفتُ قائلاً: هذا يحل المسألة بالتأكيد.. أمر محزن. لو كانت توجد.. لا أعرف ماذا أسميها بالضبط.. منظمة متخصصة في «التخلص من البشر»، فإنني أرى أن فينابلز هو الشخص الذي يمكنه إدارتها. إن المقتنيات الموجودة في بيته تكشف امتلاكه لثروة كبيرة. من أين تأتي هذه الأموال؟

سكتُّ قليلاً، ثم قلت: كل هؤلاء الذين ماتوا على أسرّتهم، من هذا المرض أو ذاك... هل وُجد من استفاد من موتهم؟

– يوجد دائماً من يستفيد من حالة وفاة.. بدرجات متفاوتة. لا توجد ظروف مريبة يمكن ملاحظتها إن كان هذا ما تقصده.

– ليس تماماً.

– الليدي هيسكيث-دوبوا تركت حوالي خمسين ألف جنيه، وربما تعرف هذا. وقد ورثها ابن أخ وابنة أخ لها. ابن

الأخ يعيش في كندا، وابنة أخيها متزوجة وتعيش في شمال إنكلترا، وكلاهما بحاجة إلى المال. أما توماسينا تاكرتن فقد ورثت ثروة كبيرة جداً عن أبيها، ولو توفيت دون زواج قبل سن الحادية والعشرين فإن النقود ترجع إلى زوجة أبيها، وزوجة أبيها هذه تبدو بريئة جداً. أما السيدة ديلافونتين فقد تركت أموالها لابنة عم لها.

– آه، نعم. وماذا عن ابنة عمها هذه؟

– هي في كينيا مع زوجها.

قلت معلقاً: كلهم غائبون.

نظر كوريغن إليّ نظرات ضيق وقال: من بين ثلاثة أشخاص يدعون سانفورد ماتوا، ترك واحدٌ خلفه امرأة تصغره بكثير، وقد تزوجت ثانية... بسرعة، وقد كان سانفورد الراحل ذا آراء خاصة، ولم يكن ليطلقها. وقد كان يوجد شخص يدعى هارمندسورث توفي من نزيف في الدماغ. وكان شرطة سكوتلانديارد قد اشتبهوا في أن دخله كان يزداد من عمليات ابتزاز خفية، ولا بد أن كثيراً من ذوي المناصب الرفيعة قد ارتاحوا من وفاته.

– إن ما تقوله –في الواقع– هو أن كل هذه الوفيات كانت وفيات طبيعية. وماذا عن كوريغن؟

ابتسم كوريغن وقال: هذا اسم شائع، وقد مات الكثيرون ممن يحملونه... لكن وفاتهم لم تكن ذات نفع خاص لأي

شخص معين حسب علمنا.

– هذا يحل اللغز... أنت الضحية المتوقعة التالية؛ اهتم بنفسك.

– سوف أفعل. ولا تعتقد أن ساحرتك هذه ستصرعني بقرحة في المعدة أو بالأنفلونزا. هذا لا ينفع مع طبيب عركته الحياة والتجارب!

– اسمع يا جيم، أريد أن أحقق في مزاعم تيريزا غري. هل تساعدني؟

– كلا، لن أفعل! لا أستطيع أن أفهم كيف يُخدع شخص مثقف مثلك بهذا الهراء.

تنهدت وقلت: ألا يمكنك أن تستخدم كلمة أخرى؟ لقد مللت من تلك الكلمة.

– إن شئت سمه كلاماً فارغاً.

– كلا، لا أريد.

– ألست ترى أنك رجل عنيد يا مارك؟

– يخيل إلي أنه يجب على أحدٍ ما –في حالتنا هذه– أن يكون عنيداً!

* * *

الفصل العاشر

كانت منطقة غليندأور كلوز جديدة جداً جداً، وقد التفت بيوتها وشوارعها في شبه دائرة، وفي طرفها السفلي كان البناة يعملون، وفي وسطها تقريباً كانت بوابة مكتوب عليها اسم «إيفرست».

تعرف المفتش لوجون إلى السيد زكريا أوزبورن بسهولة رغم أنه كان يدير ظهره منحنياً فوق أحد أحواض الزهور في حديقة منزله. فتح لوجون البوابة ودخل. انتصب السيد أوزبورن واقفاً والتفت ليرى الذي دخل بيته، وعندما عرف زائره احمرَّ وجهه من فرط سعادته بقدوم هذا الضيف مما زاد وجهه احمراراً. كان السيد أوزبورن في الريف يبدو نفس السيد أوزبورن في صيدليته في لندن. كان ينتعل حذاء ريفياً متيناً مكتفياً بقميصه الداخلي، إلاّ أن حالة ملابسه تلك لم تُنقص من أناقة مظهره. لمعت حبات العرق على صلعته الملساء. مسح العرق بمنديل

أخرجه من جيبه قبل أن يتقدم لتحية زائره وهو يصيح فرحاً: مفتش لوجون! إنني أعتبر هذا شرفاً لي... نعم يا سيدي. لقد تلقيت منك إقراراً باستلام رسالتي لكنني لم أتوقع تشريفك لي شخصياً. مرحباً بك في بيتي الصغير... مرحباً بك في «إيفرست». ربما كان الاسم يدهشك، أليس كذلك؟ لقد كنت دوماً شديد الاهتمام بجبال الهملايا، وقد تابعت كل ما يتعلق بحملة تسلق قمة إيفرست. إنه نصر كبير لبلدنا... السير إدموند هيلاري؛ يا له من رجل! ويا لما أظهره من تحمل! إنني أقدر شجاعة هؤلاء الذين تسلقوا الجبال التي لم يقهرها أحد أو الذين أبحروا في البحار الجليدية لاكتشاف أسرار القطب. تفضل إلى الداخل لنشرب شيئاً معاً.

تقدم السيد أوزبورن ضيفه لوجون إلى الدارة الصغيرة التي كانت قمة في الذوق والأناقة رغم قلة الأثاث الموجود فيها.

– لم أستقر تماماً بعد، وأنا أحضر بعض المزادات المحلية كلما كان ذلك ممكناً. توجد أشياء جيدة يمكن اصطيادها من هذه المزادات بربع قيمتها الحقيقية في المحلات. ماذا يمكنني أن أقدم لك، فنجان قهوة؟ فنجان شاي؟

طلب لوجون فنجان قهوة.

عاد السيد أوزبورن بعد قليل حاملاً صينية القهوة، وبعد أن انتهت طقوس الترحيب مال إلى الأمام وقال: هل استفدت من معلوماتي؟

خفف لوجون الضربة قدر الإمكان وقال: أخشى أنها لم تفدنا بقدر ما كنا نرجو.

– آه، أعترف بأن أملي قد خاب، رغم عدم وجود سبب يدعونا إلى الافتراض بأن رجلاً كان يسير في نفس الاتجاه الذي سار فيه الأب غورمان يجب أن يكون هو الذي قتله بالضرورة. لقد كان ذلك أكثر ما يمكن أن يأمله المرء، كما أن السيد فينابلز هذا ثري جداً ومحترم من أهل منطقته كما علمت ويختلط بأفضل الطبقات الاجتماعية.

قال لوجون: النقطة هي أنه لا يمكن أن يكون الذي رأيته في تلك الليلة هو السيد فينابلز.

– آه، بل هو هو. ليس عندي أدنى شك في نفسي. إنني لا أخطئ أبداً في تمييز الوجوه.

قال لوجون بلطف: أخشى أن تكون قد أخطأت هذه المرة. إن السيد فينابلز مريض بالشلل منذ أكثر من ثلاث سنوات، وهو مشلول من نصفه السفلي ولا يستطيع المشي.

صاح السيد أوزبورن: شلل! يا إلهي، يا إلهي! يبدو أن هذا يبطل فعلاً شهادتي. ومع ذلك... أرجو أن تعذرني حضرة المفتش. أرجو ألا تغضب. ولكن هل هذا صحيح حقاً؟ أقصد هل لديكم إثبات طبي واضح على هذا؟

– نعم يا سيد أوزبورن، لدينا. فالسيد فينابلز أحد مرضى

السير وليَم داغديل في شارع هارلي، وهو طبيب بارز جداً.

– بالطبع، بالطبع، اسم معروف جداً! آه، يبدو أنني ارتكبت خطأً فظيعاً. كنت واثقاً جداً، وقد أتعبتك بلا فائدة.

أسرع لوجون يقول: لا يجب أن تقول هذا؛ فما زالت معلوماتك قيمة للغاية. واضح أن الرجل الذي رأيته لا بد أن يشبه السيد فينابلز، وبما أن السيد فينابلز رجل ذو مظهر مميز غير عادي فإن هذه المعلومات قيمة جداً. لا يمكن أن يحمل كثير من الأشخاص نفس الصفات.

انفرجت أسارير السيد أوزبورن قليلاً وهو يقول: صحيح، صحيح. رجل ذو تاريخ إجرامي يشبه السيد فينابلز من حيث الشكل. لا يمكن أن يوجد الكثيرون ممن يشبهونه في ملفات سكوتلانديارد...

نظر إلى المفتش على سبيل الرجاء، لكن لوجون رد ببطء: قد لا يكون الأمر بمثل هذه البساطة؛ فقد لا يكون للرجل سجل إجرامي جنائي. وعلى أية حال -كما قلت قبل قليل- لا يوجد سبب يدعو للافتراض بأن لهذا الرجل الذي رأيته علاقة بالاعتداء على الأب غورمان.

عاد السيد أوزبورن إلى عبوسه ثانية وقال: أرجو أن تسامحني؛ إذ أخشى أن أكون قد قلت كلامي هذا بدافع من رغبتي في أن يكون الأمر كذلك. إنني أحب كثيراً أن تتاح لي الفرصة للإدلاء

بشهادتي في محاكمة بخصوص جريمة قتل... وأؤكد أنهم لن يستطيعوا أن يزعزعوا موقفي. كلا، كنت سأتشبث برأيي!

كان لوجون صامتاً ينظر إلى مضيفه نظرات تأمل. استجاب السيد أوزبورن لهذا التأمل الصامت وتساءل: نعم؟

– يا سيد أوزبورن، لماذا كنت ستتشبث برأيك كما قلت؟

بدا السيد أوزبورن ذاهلاً وقال: لأنني متأكد جداً... آه... نعم، فهمت قصدك، الرجل لم يكن هو الرجل. ولذلك لا داعي لأن أشعر بالثقة والتأكيد. ومع ذلك فإنني...

مال لوجون إلى الأمام وقال: قد تتساءل عن سبب مجيئي لرؤيتك اليوم. تريد أن تسأل لماذا أنا هنا بعد أن حصلت على إثبات طبي بأن الرجل الذي رأيته أنت ليس هو السيد فينابلز، أليس كذلك؟

– تماماً، تماماً. حسناً أيها المفتش، لماذا جئت؟

– لقد جئت لأن تأكيدك الشديد على هوية الرجل قد ترك لديّ انطباعاً. أردت أن أعرف على ماذا تستند في تأكيدك هذا. كانت ليلة ضبابية كما تذكر. لقد جئتُ إلى صيدليتك، ووقفتُ حيث وقفتَ أنت عند مدخل الباب، ونظرتُ إلى الشارع. وبدا لي أن من غير الممكن -في ليلة ضبابية- رؤية شخص بوضوح من ذلك البُعد، وبالتالي يكاد يستحيل تمييز الملامح بوضوح.

– أنت محق تماماً، ولكن إلى حدٍ ما فقط. فقد كان

الضباب قد بدأ وقتها بالانتشار. ولكنه كان يأتي على شكل هبّات متقطعة. كان الجو يصفو من وقت لآخر لبعض الوقت. وقد حدث ذلك في تلك اللحظة التي رأيت فيها الأب غورمان يسير بسرعة على الرصيف المقابل. هذا ما جعلني أراه وأرى الرجل الذي كان يتبعه بوضوح تام. كما أن الرجل الثاني أخرج -عندما مرّ من أمام صيدليتي- ولاعته ليشعل لفافة تبغ، وقد بدا الشكل الجانبي لوجهه واضحاً جداً في تلك اللحظة... الأنف، والذقن، وحنجرته البارزة. رأيت في نفسي أنه رجل غريب؛ إذ أنني لم أره في المنطقة من قبل. لو كان جاء إلى صيدليتي مرة واحدة لتذكرته. وهكذا، كما ترى...

سكت السيد أوزبورن. وقال لوجون متأملاً: نعم، فهمت.

اقترح السيد أوزبورن قائلاً: ربما كان أخاً له، أو ربما كان أخاه التوأم؟ قد يكون ذلك حلاً.

- حل التوائم المتطابقة؟

ابتسم لوجون وهز رأسه نافياً وهو يقول: هذا مناسب جداً في الروايات، ولكنه في الحياة الواقعية...

هز رأسه ثانية وأكمل: لا يحدث... إنه لا يحدث حقيقة.

- كلا، كلا. لا أظن ذلك... ولكن يمكن أن يكون أخاً عادياً. تشابه كبير في العائلة...

قال لوجون: على حسب علمنا لا يوجد للسيد فينابلز أخ.

كرر السيد أوزبورن الكلمات: على حسب علمكم؟

- نعم، فرغم أنه بريطاني الجنسية إلاّ أنه ولد في الخارج وأحضره والده إلى إنكلترا عندما كان في سن الحادية عشرة.

- إذن فأنتم لا تعرفون عنه الكثير؟ أقصد عن عائلته؟

- كلا. ليس من السهل معرفة الكثير عن السيد فينابلز... بدون أن تسأله شخصياً. ولا توجد لدينا أسباب لفعل ذلك.

كان يتكلم بعبارات متأنية. كانت لديه أساليب لاكتشاف أشياء دون الذهاب إليه وسؤاله، ولكنه لم يكن يعتزم إخبار السيد أوزبورن بذلك.

قال لوجون وهو ينهض من مجلسه: إذن لولا الإثبات الطبي هذا لكنت واثقاً من تعرفك عليه؟

قال السيد أوزبورن: آه، نعم. إنها إحدى هواياتي، أقصد تذكر الوجوه.

ضحك ضحكة قصيرة وقال: لقد فاجأت كثيراً من الزبائن بتلك الطريقة. كنت أتذكر متى جاء الزبون آخر مرة وما هي الوصفة التي كان يحملها وأي طبيب كتبها، مما كان يفاجئهم. وهذا ما أفادني كثيراً في عملي. يفرح الناس إذا تذكرهم أحد، رغم أنني لم أكن ماهراً في تذكر الأسماء كما أتذكر الوجوه. وقد بدأت هذه الهواية عندما كنت صغيراً... كنت أقول في

نفسي: إذا كان بعض الناس يستطيعون فعل ذلك، فإنك تستطيع ذلك يا زكريا أوزبورن! وبعد فترة أصبحت المسألة آلية بالنسبة لي... لم يعد يلزمني جهد كبير لتذكر الوجوه.

تنهد لوجون وقال: أود لو أن لي شاهداً مثلك في المحكمة. إن التعرف على وجوه الناس عمل مخادع دائماً؛ فمعظم الناس لا يستطيعون إخبارك بأي شيء أبداً. سيقولون أشياء مثل: "آه، أظن أنه يميل إلى الطول... أشقر الشعر، ليس أشقر كثيراً، وإنما عادي. العينان زرقاوان... أو رماديتان... أو ربما بنيتان. يلبس معطفاً رمادي اللون، أو قد يكون كحلياً".

ضحك أوزبورن: مثل هذه الأوصاف لا تفيدكم كثيراً.

- بصراحة، إن شاهداً مثلك سيكون هبة من السماء!

بدا السيد أوزبورن مسروراً. قال بتواضع: إنها موهبة... ولكن تذكّر أنني طورتها، وهي موهبة تنمو بالممارسة. لعلك تذكر لعبة الأطفال تلك التي يأتون فيها بصينية عليها عشرات الأغراض ويعطونك دقيقتين لحفظها وتذكرها فيما بعد. لقد كنت بارعاً فيها، أتذكر كل الأغراض تماماً، وكان الجميع يندهش لذلك. إنه أمر يأتي بالممارسة.. كما أنني أمارس بعض الألعاب السحرية. إنني أفعل بعض الأشياء لتسلية الأطفال في الحفلات والمناسبات... أرجو المعذرة يا سيد لوجون، ما هذا الذي في جيب سترتك؟

مال إلى الأمام ونشل منفضة دخان صغيرة.

- ها ها... وأنت ضابط الشرطة أيضاً!

ضحك من كل قلبه وضحك لوجون معه، ثم تنهد وقال: إن بيتي هذا صغير وجميل يا سيدي والجيران طيبون ومريحون. إنها الحياة التي كنت أتطلع إليها منذ سنوات. لكني سأعترف لك -يا سيد لوجون- بأنني فقدت الاهتمام بعملي ومهنتي؛ ففي عملي يراجعني الكثير من الناس، بحيث أنشغل بدراسة أنواع مختلفة من البشر. كنت فيما مضى أتطلع لأن تكون عندي حديقة صغيرة خاصة بي. وأنا صاحب هوايات واهتمامات كثيرة؛ هواية جمع الفراش -كما قلت لك- ومراقبة الطيور من وقت لآخر. لم أدرك أنني سأفتقد ما أسميه بالعنصر الإنساني إلى هذا الحد. إن ذلك يريك كيف هي الطبيعة البشرية؛ فقد كنت أتطلع بكل شوق إلى التقاعد من مهنتي، والآن... أنا أفتقد تلك الأيام، وأظن أن هذا ما سيحدث معك أيضاً. ستضع خططاً لمستقبلك، ولكن عندما يحين الوقت ستكون قد فقدت متعة حياتك الحالية.

ابتسم لوجون وقال: إن حياة رجل الشرطة ليست مثيرة وممتعة كما تعتقد يا سيد أوزبورن. إن لك نظرة هواة إلى موضوع الجريمة. معظم عملنا ممل روتيني... نحن لا نقضي وقتنا دوماً في تعقب المجرمين أو البحث عن حلول الأسرار الغامضة. إنه عمل ممل فعلاً.

بدا السيد أوزبورن غير مقتنع بكلامه. قال: أنت تعرف

أفضل مني... وداعاً يا سيد لوجون. إنني آسف حقاً لأنني لم أستطع مساعدتك. إن كان هناك أي شيء... في أي وقت...

وعده لوجون قائلاً: سأبلغك به.

همس أوزبورن حزيناً: لقد بدا ما حدث في ذلك اليوم في المهرجان فرصة رائعة.

– أعرف. من المؤسف أن يكون الإثبات الطبي قاطعاً إلى هذا الحد. ولكن المرء لا يستطيع تجاوز مثل هذا الإثبات، أليس كذلك؟

– حسناً...

قال السيد أوزبورن تلك الكلمة كمن يريد أن يكملها، لكن لوجون لم يلحظ ذلك وخرج مسرعاً. وقف السيد أوزبورن بجانب البوابة ينظر إليه. قال: الدليل الطبي! أطباء! لو كان يعرف نصف ما أعرفه عن الأطباء... كم هم ساذجون!

هكذا الأطباء فعلاً! أناس ساذجون!

* * *

الفصل الحادي عشر

في البداية هيرميا... والآن كوريغن. لا بأس إذن، فقد جعلت من نفسي أضحوكة!

كنت أقبل بالهراء على أنه حقيقة ثابتة. لقد نومتني تلك المرأة الدجالة تيريزا غري تنويماً مغنطيسياً وجعلتني أقبل بهذا الهراء. كنت حماراً سخيفاً أصدق الخرافات.

قررت نسيان كل شيء عن هذا الأمر. ما علاقتي أنا بكل ذلك على أية حال؟

وفي وسط خيبة الأمل التي كنت أعيشها جاءني صوت السيدة كالثروب بنبرته الملحة وهي تقول لي: يجب أن تفعل شيئاً!

من السهل قول أشياء كهذه. أكملت تقول: إنك بحاجة لشخص يساعدك...

كنت قد احتجت هيرميا، واحتجت كوريغن. ولكـن لا أحد منهما يريد مساعدتي... لم يكن عندي أحد غيرهما. إلاّ إذا...

جلست أفكر في الفكرة... ثم ذهبت دون إبطاء صوب الهاتف واتصلت بالسيدة أوليفر.

– مرحباً... أنا مارك إيستربروك.

– نعم؟

– هل يمكنك أن تخبريني باسم الفتاة التي كانت تقيم في البيت للمشاركة في المهرجان؟

– أظن ذلك. دعني أفكر... نعم، بالطبع، غينغر. هذا هو اسمها.

– أعرف هذا، ولكني أريد الاسم الآخر.

– أي اسم آخر؟

– لا أظن أن هذا هو اسمها الحقيقي... كما يجـب أن يكون لها اسم عائلة أو لقب.

– بالطبع، ولكني لا أعرفه. يبدو أن الناس لا يستخدمون أسماء العائلة هذه الأيام. كانت تلك أول مرة أقابلها فيها.

سكتت السيدة أوليفر قليلاً ثم قالت: عليك أن تتصل بـرودا لتسألها.

لم ترُقْ لي تلك الفكرة؛ فقد أحسست بالخجل من هـذا الفعل. قلت: آه، لا أستطيع ذلك.

قالت السيدة أوليفر تشجعني: هذا من أبسط ما يكون. قل لها بأنك فقدت عنوانها ولا تذكر اسمها وأنك قد وعدتها بإرسال واحد من كتبك، أو بإبلاغها عن اسم المحل الذي يبيع كافيـاراً رخيصاً، أو أنك تريد أن تعيد لها منديلاً كنت قد استعرته منها عندما نزف أنفك ذات يوم، أو أنك تريد أن تخبرها بعنـوان صديق ثري يريد تحديد لوحة عنده. أي واحدة يمكن أن تؤدي الغرض، أليس كذلك؟ أستطيع أن أفكر لك بالكثير من هذه الأعذار إن شئت.

طمأنتها قائلاً: إن أي واحد منها سيؤدي الغرض حتماً.

وضعت السماعة واتصلت برودا. قالت رودا: غينغر؟ إنها تعيش في ميوز. في منطقة كالغاري، المنزل رقم ٤٥. انتظر لحظة... سأعطيك رقم هاتفها.

ذهبت ثم عادت بعد قليل وقالت: الهاتف هو: كـابريكون ٣٥٩٨٧. هل سجلته؟

– نعم، أشكرك. ولكني لم أحصل على اسمها. لم أسمعه أبداً.

– اسمها؟ آه، تقصد اسم عائلتها؟ كوريغن... كاثرين كوريغن. ماذا قلت؟

- لا شيء... شكراً لك يا رودا.

بدت لي مصادفة غريبة. كوريغن... اثنان باسم كوريغن، ربما كانت نذير سوء. واتصلت بالرقم ٣٥٩٨٧ كابريكون.

* * *

جلست غينغر قبالتي على طاولة في مقهى وايت كوكاتو، حيث تواعدنا هناك لشرب فنجان قهوة. كانت تبدو نشيطة وحيوية كما كانت تبدو عندما التقيتها في متش دينغ... شعر أحمر كث، ووجه فاتن منمش وعينان خضراوان يقظتان. كانت تلبس بنطالاً غريباً وكنزة وجورباً صوفياً أسود... وفيما عدا ذلك كانت هي غينغر نفسها. لقد أُعجبتُ بها كثيراً.

قلت: لقد بذلتُ مجهوداً كبيراً حتى وصلت إليك. اسم عائلتك وعنوانك ورقم هاتفك... كلها لم أكن أعرفها. كانت لدي مشكلة.

- هذه الجملة تقولها خادمتي دائماً، وهي تعني في العادة أن أشتري لها طنجرة جديدة أو فرشاة سجاد أو أي شيء آخر.

طمأنتها قائلاً: لن يتطلب الأمر منك شراء أي شيء.

ثم أخبرتها. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً كما حدث عندما قصصته على هيرميا لأنها كانت تعرف نُزُل «الحصان الأشهب» والسيدات اللاتي يعشن فيه. أبعدت نظري عنها بعد أن أنهيت

قصتي؛ فلم أرد رؤية رد فعلها... لم أرد رؤية إن كانت راضية مهتمة أو أنها غير مصدقة، فالأمر كان يبدو سخيفاً جداً. لا أحد باستثناء السيدة كالثروب يمكنه أن يشعر به كما شعرت به.

تشاغلتُ برسم أشكال على غطاء الطاولة بشوكة كانت في يدي.

كان رد غينغر سريعاً: هل هذه كل القصة؟

- نعم.

- وماذا ستفعل إذن؟

- هل تعتقدين أن عليَّ أن أفعل شيئاً؟

-.بالطبع... يجب أن يفعل أحدٌ ما شيئاً! لا يمكنك أن تترك منظمةً تقتل الناس دون أن تفعل شيئاً لمنعها.

- ولكن ما الذي يمكنني عمله؟

كنتُ أوشك أن أقفز لمعانقتها امتناناً.

ارتشفَتْ من فنجان القهوة وهي عابسة، وانتشرت الحماسة والنشاط في دمائي؛ فلم أعد وحيداً.

قالت على الفور وهي تتأمل: يجب أن تكشف ما يعنيه هذا.

- أنا موافق، ولكن كيف؟

– أرى مؤشراً أو اثنين... ربما أستطيع مساعدتك.

– حقاً؟ ولكن عملك؟

– يمكن عمل الكثير بعد ساعات الدوام.

عبسَتْ ثانية وهي تفكر ثم قالت: تلك الفتاة التي تحدثَتْ عن «الحصان الأشهب» بعد المسرحية... ماذا قلت اسمها؟ بوبي، نعم. إنها تعرف عن الأمر... لا بد أنها تعرف وينبغي أن تقول ما تعرفه.

– نعم، ولكنها كانت خائفة، وهربت مني عندما حاولت سؤالها. كانت مرعوبة... لم تكن تريد الحديث أبداً.

قالت غينغر واثقة: هنا أستطيع مساعدتك. إنها ستقول لي أشياء لن تقولها لك. هل يمكنك أن ترتب لنا لقاء؟ صديقتك وهي وأنت وأنا؟ في مسرحية أو عشاء أو شيء كهذا؟

ثم بدت مرتابة وهي تقول: أم أن هذا مُكلف جداً؟

أكدت لها أن باستطاعتي تحمل النفقات.

فكرت غينغر دقيقة وقالت ببطء: وبالنسبة لك، فإنني أرى أن أفضل مدخل لك هو موضوع توماسينا تاكرتن.

– ولكن كيف؟ إنها ميتة.

– يوجد شخص كان يريدها أن تموت (إن كانت أفكارك صحيحة) وقد رتب هذا الأمر مع السيدات في «الحصان الأشهب»!

يبدو لدينا احتمالان: زوجة الأب أو الفتاة التي تشاجرت معها في مقهى لويجي والتي سرقت منها صديقها. ربما كانت ستتزوج به، وربما كان من شأن ذلك الزواج أن يتناقض مع مصالح زوجة الأب... ومصالح الفتاة أيضاً إن كانت تحبه كثيراً. ربما ذهب أحدهما إلى «الحصان الأشهب». قد نجد في ذلك طرف خيط نسترشد به. هل تعرف اسم تلك الفتاة؟

– أظن أن اسمها «لو».

– متوسطة الطول وذات شعر أشقر سرح؟

– وافقتها على تلك الأوصاف.

– أظن أنني التقيت بها. اسمها لو إيليس. إنها غنية بعض الشيء هي الأخرى...

– لم تكن تبدو كذلك.

– ذلك ما لا يبدو عليهن، ولكنها فتاة غنية دون شك. على أية حال كانت تستطيع أن تدفع أجرة السيدات في «الحصان الأشهب». أظن أنهن لا يفعلن ذلك مجاناً.

– لا أظن ذلك.

– عليك أن تتولى أمر زوجة أبيها بنفسك. إنها قريبة منك أكثر مني... اذهب وقابلها.

– ولكن لا أعرف أين تسكن؟

– لويجي يعرف شيئاً عن منزل تومي وسوف يعرف البلدة التي تعيش فيها على ما أظن، ثم سنعرف البقية من الدليل. ولكن.. يا لنا من حمقى! لقد شاهدتَ خبر نعيها في جريدة التايمز. عليك أن تذهب إلى الجريدة وتبحث في الملفات هناك.

قلت متأملاً: يجب أن تكون لديّ ذريعة للاتصال بزوجة الأب.

قالت غينغر إن ذلك سهل للغاية. أشارت قائلة: أنت شخص هام ومعروف... مؤرخ وتلقي محاضرات، وسوف ترغب السيدة تاكرتن بلقائك، بل ربما تاقت لرؤيتك.

– وما هي الذريعة؟

اقترحت غينغر: أظهر بعض الاهتمام ببيتها. لابد أن يكون بيتاً يستحق ذلك إن كان قديماً.

عارضتها قائلاً: ليس له علاقة بالفترة التاريخية موضوع تخصصي.

– لن تعرف المرأة ذلك... الناس يعتقدون دائماً أن أي شيء يزيد عمره عن مئة عام لا بد أن يثير اهتمام المؤرخ أو عالم الآثار. أو ماذا عن لوحة؟ لا بد أن عندها لوحات قديمة. على أية حال خذ موعداً واذهب إليها وتملقها وكن لطيفاً معها ثم قل لها بأنك قابلت ذات مرة ابنتها... أقصد ابنة زوجها... وقل لها كيف أن خبر وفاتها كان له وقع سيء عليك... إلخ. ثم

اذكر فجأة موضوع الحصان الأشهب. كن شريراً بعض الشيء إن شئت.

– ثم ماذا؟

– ثم لاحظ رد فعلها. إذا ذكرت الحصان الأشهب على نحو غير متوقع وكانت تشعر بالذنب في قرارة نفسها فإنني واثقة تماماً بأنها ستظهر إشارة ما أو رد فعل.

– ولو أظهرتْ ذلك، ماذا سيحدث بعدها؟

– الشيء المهم أن نتأكد بأننا نسير على الطريق الصحيح. عندما نتأكد من ذلك نستطيع أن نسير قدماً في عملنا.

ثم أومأت برأسها قائلة وهي تتأمل: ويوجد شيء آخر... لماذا تعتقد أن السيدة تيريزا غري قد قالت لك كل ما قالته. لماذا تطوعت لك بتلك المعلومات؟

– الإجابة الطبيعية هي لأنها تافهة ومخبولة.

– لا أقصد هذا. ما أقصده هو... لماذا أنت بالذات؟ أنت بالتحديد؟ لقد تساءلت في نفسي عن أية صلة أو ارتباط؟

– صلة بماذا؟

– انتظر قليلاً... ريثما أرتب أفكاري.

انتظرتها. أومأت غينغر برأسها ثم قالت: افترض... افترض

فقط أن الأمر كالتالي: الفتاة بوبي تعرف كل شيء عن «الحصان الأشهب» بطريقة غامضة. ليس معرفة شخصية، وإنما سمعت أحداً يتكلم عنه. إنها تبدو من النوع الذي لا يلتفت إليه أحد عندما يتكلم... ولكنها ربما استوعبت أكثر مما يعتقده الآخرون عنهـا؛ فالناس السخفاء الحمقى يكونون كذلك في العادة. لنفترض أن أحداً سمعها وهي تتكلم معك عن «الحصان الأشهب» في تلك الليلة ثم وبّخها على ذلك، وفي اليوم التالي ذهبت أنت إليها وسألتها بعض الأسئلة فكانت خائفة ولذلك لم تتكلم، وقد وصلت حقيقة ذهابك إليها وسؤالك لها إلى أسماع الذين وبّخوها. سيتساءلون عن سبب توجيهك الأسئلة إليها؛ فأنت لست من الشرطة. سيكون السبب المرجح هو أنك زبون محتمل.

– ولكن...

– إنه تفسير منطقي... أن تكون سمعت إشاعات عن هذا الشيء وتريد أن تكشف أمره لأسباب خاصة بك. وعلى الفور تظهر في ذلك المهرجان، ثم يأخذونك إلى «الحصان الأشهب». ويُفترض أن السبب في ذهابك إليه هو أنك طلبت أن يأخذوك إليه... فماذا يحدث؟ تقوم تيريزا غري بمكاشفتك مباشرة بعملها.

– أظن أن هذا محتمل. هل تعتقدين أنها تستطيع أن تفعل ما تزعم أنها تستطيعه يا غينغر؟

– أنا أميل –شخصياً– إلى عدم الاقتناع بقدرتها هذه، ولكن الأشياء الغريبة يمكن أن تحدث... وخصوصاً عن طريق

وسائل مثل التنويم المغنطيسي!

– نعم، هذا يوضح الأمر جيداً.

– قد أركز على الفتاة لو بعض الشيء. أعرف الكثير من الأماكن التي يمكن أن أراها فيها، كما أن لويجي قد يعرف بعض الأمور أيضاً.

ثم أضافت تقول: ولكن أول شيء هو الاتصال ببوبي.

تم تدبير هذا الأمر الأخير بسهولة. فقد كان ديفيد غير مرتبط بمواعيد لثلاث ليال تالية، وهكذا حددنا موعداً لحضور أحد العروض الموسيقية فجاء مع بوبي. ذهبنا إلى مطعم الفانتازيـا لتناول العشاء ولاحظت أن غينغر وبوبي قد عادتا من خلوة لوضع المساحيق على وجهيهما وهما تبدوان صديقتين حميمتين. ولم تُثَرْ أية مواضيع خلافية أثناء الحفلة بناء على تعليمات غينغر.

وفي نهاية الحفل افترقنا وأخذت غينغر إلي بيتها بسيارتي. قالت مبتهجة: ليس لديّ الكثير لأقوله لك؛ لقد تحدثت مع لو. إن الرجل الذي تشاجرَتْ مع صديقتها من أجله هو بلايـدون، وهو شخص سيء إن أردت رأيي. كان يسعى جاهداً خلف لو، ثم جاءت تومي هذه. تقول لو إنه لم يحبها أبداً بل كان يريد أموالها... ولكنها ربما كانت تود إقناع نفسها بذلك. على أية حال فقد أهمل لو وكان طبيعياً أن تغضب. ووفقاً لكلامها لم يكن شجاراً بمعنى الكلمة وإنما مجرد حدة مزاج نسائية.

– حدة مزاج نسائية! لقد اقتلعت شعر تومي من جذوره.

– أنا أخبرك بما أخبرتني به لو.

– يبدو أنها كانت مستعدة لإعطاء المعلومات.

– آه، كلهن يحببن أن يتحدثن عن مشكلاتهن، وهن يتحدثن مع أي شخص يصغي إليهن. على أية حال صار للو صديق جديد؛ شخص آخر تافه ولكنها مجنونة بحبه؛ ولذلك فإنها لا تبدو لي كما لو كانت زبونة سابقة. ولقد ذكرت الاسم أمامها عرضاً، ولم يبد عليها أي تأثر. أظن أن بإمكاننا استبعادها من دائرة الشك، كما أن لويجي لم يكن يعتقد أن ذلك الحادث كان فيه أي شيء، وهو يظن أن تومي كانت جادة في علاقتها مع ذلك الفتى، كما أنه هو كان يسعى خلفها بكل جدية. ماذا فعلت بخصوص زوجة أبيها؟

– إنها في الخارج وستعود غداً. كتبت لها رسالة... أو بالأحرى طلبت من سكرتيرتي أن تكتب لها طالباً منها موعداً لمقابلة.

– جيد، إننا نحرك الأمور. أرجو ألاّ يذهب جهدنا كله هباء.

– هذا إن كان جهدنا سيوصلنا إلى شيء!

قالت غينغر بحماسة: سنصل بطريقة ما. إذا عدنا إلى الوراء حيث البداية فإن الفرضية هي أن الأب غورمان قد قتل بعد أن

استُدعي لرؤية امرأة تحتضر، وأنه قتل بسبب شيء أخبرته به أو اعترفت به له، ما الذي حدث لتلك المرأة؟ هل ماتت؟ ومن كانت؟ لا بد أن يكون في هذا مفتاح نعتمد عليه.

– لقد توفيت، والحق أنني لا أعرف عنها الكثير. أظن أن اسمها كان ديفيز.

– حسناً، ألا يمكنك أن تعرف عنها المزيد؟

– سأرى ما يمكنني عمله.

– لو استطعنا معرفة خلفيتها، فقد نعرف كيف عرفت ما عرفته.

– فهمت قصدك.

اتصلت بجيم كوريغن في وقت مبكر من صباح اليوم التالي ووضعت أسئلتي أمامه، فقال: لقد حصلنا على بعض المعلومات الأخرى، لكنها لست كثيرة... ديفيز لم يكن اسمها الحقيقي، وهذا هو السبب الذي جعلنا نتأخر قليلاً في التحقق من شخصيتها. لحظة واحدة، فقد دونت الأشياء... آه، نعم، اسمها الحقيقي هو أرتشر، وكان زوجها لصاً تافهاً، فتركته وعادت إلى اسمها قبل الزواج.

– أي نوع من اللصوص آرتشر هذا؟ وأين هو الآن؟

– آه، إنه لص صغير. كان يسرق أشياء من المستودعات

والمخازن؛ أشياء تافهة من هنا وهناك، وقد أدين بعض المرات. وبالنسبة لمكانه الآن، فإنه ميت.

– ليس في هذا الكثير مما يساعدنا.

– كلا. كانت السيدة ديفيز تعمل وقت وفاتها في شركة تقوم بأبحاث عن سلوك المستهلكين، ولا تعلم هذه الشركة عنها أو عن خلفيتها أي شيء.

شكرته ثم أغلقت السماعة.

* * *

الفصل الثاني عشر

بعد ثلاثة أيام اتصلت بي غينغر وقالت: عندي لك شيء؛ اسم وعنوان. سجلهما.

أخرجت من جيبي دفتر الملاحظات وقلت: هيا.

– الاسم هو برادلي والعنوان هو ٧٨، مباني ساحة البلدية، بيرمنغهام.

– حسناً، وما كل هذا بالله عليك؟

– الله أعلم! لا أعرف، وأشك في أن بوبي تعرف أيضاً.

– بوبي؟ هل هذا...

– نعم. لقد بذلت جهدي في حمل بوبي على الكلام. قلت لك إن بإمكاني أن أحصل على شيء منها لو حاولت، وقد أصبح ذلك سهلاً بمجرد أن نجحت في كسب ودها.

سألتها بفضول: كيف عملت ذلك؟

ضحكت غينغر وقالت: إنه عمل يخص البنات، أنت لن تفهمه. النقطة هي أنه إذا قالت فتاة شيئاً لفتاة أخرى فإن ذلك لا يُؤخذ حقاً بالحسبان. إنها لا تعتقد أنه كلام هام.

– باعتبار الجميع في سلة واحدة، أليس كذلك؟

– يمكنك أن تصف الأمر على هذا النحو. على أية حال فقد تناولنا الغداء معاً، وقد لغوت قليلاً عن حياتي العاطفية... والعوائق الكثيرة... وعن رجل أحببته كان متزوجاً بامرأة لا تطاق جعلت حياته جحيماً لا يطاق، وكيف أنها كانت معوقة ودائمة التألم، ولكن كان من غير المحتمل أن تموت قبل عدة سنوات، وأنه من الأفضل كثيراً لها لو تموت. وقلت لها إنني فكرت في تجربة الحصان الأشهب لكني لا أعرف كيف أبداً، وسألتها إن كان ذلك يكلف كثيراً... وقد أجابتني بوبي بأنه مكلف فعلاً؛ فقد سمعت بأنهن يأخذن مبالغ ضخمة. قلت لها "حسناً، إنني موعودة بإرث كبير".. وهو صحيح كما تعلم (من عمي الكبير، وهو عم أحبه كثيراً وأكره أن يموت، ولكن هذه الحقيقة كانت مفيدة). قلت لها: "عسى أن يقبلن بدفعة أولى مبدئياً؟ ولكن كيف أفاتحهن بالأمر؟"، ثم جاءتني بوبي بهذا الاسم والعنوان. قالت إن علي أن أذهب إليه أولاً لتسوية الأمر معه.

– هذا غريب!

– إنه كذلك فعلاً.

سكتنا بعض الوقت ثم قلت لها بارتياب: هل أخبرتك بذلك بكل صراحة؟ ألم تبدُ... مرعوبة؟

قالت غينغر وقد نفد صبرها: أنت لا تفهم... إن إخباري بالأمر لا يهم. ومع ذلك، إذا كان ما نعتقده صحيحاً يا مارك فلا بد أن يحتاج عملهن هذا إلى بعض الإعلان، أليس ذلك؟ أعني أنهن بحاجة إلى «زبائن جدد» طوال الوقت.

– نحن مجانين إذ نصدق شيئاً كهذا.

– حسناً، نحن مجانين. هل أنت ذاهب إلى بيرمنغهام لرؤية السيد برادلي؟

– نعم، سأذهب لأراه... إن كان له وجود.

لم أكن أصدق وجوده، ولكني كنت مخطئاً؛ فقد كان السيد برادلي موجوداً.

كانت مباني ساحة البلدية عبارة عن مكاتب ضخمة متراصة، وكان المكتب رقم ٧٨ في الطابق الثالث. كان مكتوباً على الباب الزجاجي بحروف مطبوعة وجميلة: «س. ر. برادلي، سمسار». وتحته بحروف صغيرة: «ادخل من فضلك».

دخلت. كان هناك مكتب خارجي صغير فارغ، وباب مكتوب عليه «خاص»، وكان مفتوحاً قليلاً. وسمعت صوتاً من

الداخل يقول: ادخل من فضلك.

كان المكتب الداخلي أكبر حجماً من الخارجي، وفيه طاولة مكتب وبعض الكراسي المريحة وهاتف ومجموعة من الملفات، وكان السيد برادلي جالساً وراء المكتب.

كان رجلاً ضئيل الجسم داكن البشرة ذا عينين سوداوين حادتين، وقد ارتدى بدلة عمل سوداء وبدا في منتهى الاحترام. قال بمرح: أرجو أن تغلق الباب. تفضل، ذلك الكرسي مريح. هل تشرب قهوة؟ لا؟ حسناً، ما الذي يمكنني عمله لك؟

نظرت إليه. لم أكن أعرف كيف أبدأ ولم تكن لديّ أدنى فكرة عما أقوله، وأظن أن اليأس المطبق هو الذي جعلني أبدأ بالعبارة الهجومية التي بدأت بها... أو ربما كان ذلك بسبب عينيه الخرزيتين الصغيرتين. قلت: كم تطلب؟

سرني أن ألاحظ أن قولي جعله يحفل قليلاً، وإن لم يكن بالقدر الذي كان يجدر به أن يحفل. إنه لم يفترض -كما كنت سأفعل لو كنت مكانه- بأن الذي دخل مكتبه شخص مخبول. رفع حاجبين وقال: حسناً، حسناً، حسناً. يبدو أنك لا تضيع وقتاً، أليس كذلك؟

تمسكت بالأسلوب الذي بدأت به، وقلت: ما هو ردك؟

هز رأسه بلطف بأسلوب يشي ببعض التوبيخ وقال: ما هكذا يُستهل الأمر... يجب أن نشرع بالأسلوب الصحيح.

رفعت كتفي بلامبالاة وقلت: كما تريد. ما هو الأسلوب الصحيح؟

– نحن لم نتعارف، أليس كذلك؟ إنني لا أعرف اسمك.

– في الوقت الحالي لا أشعر بالميل لإخبارك عنه.

– الحذر... نعم، الحذر. تلك ميزة تثير الإعجاب... رغم أنها ليست عملية دائماً. من الذي أرسلك إلي؟ من هو صديقنا المشترك؟

– صديق لي له صديق يعرف صديقاً لك.

أومأ السيد برادلي وقال: هذا الطريقة التي يأتي بها كثير من زبائني؛ فبعض المشاكل تكون حساسة. أظن أنك تعرف مهنتي؟

لم يكن يعتزم الانتظار ليسمع إجابتي، فقد أسرع ليعطيني الإجابة: قال: سمسار لسباقات الخيل... الأحصنة!

توقف برهة قصيرة جداً قبل أن ينطق الكلمة الأخيرة.

قلت له بأسلوب غامض: لست رجل سباقات.

– للخيل عدة استخدامات؛ سباقات وصيد وحراثة أراض. أنا مهتم بالسباقات... الرهانات.

سكت قليلاً ثم سألني سؤالاً عرضياً.. سؤالاً يكاد -لفرط عرضيته- يخفي شيئاً: أيوجد حصان معين تفكر فيه؟

رفعت كتفي بلامبالاة، ثم جازفت بكل ما عندي وقلت: الحصان الأشهب.

- آه، جيد، ممتاز. أنت نفسك تبدو حصاناً أسود. هاها! يجب ألاّ تغضب... لا حاجة لأن تغضب.

قلت بوقاحة: هذا ما تراه أنت.

بدأ السيد برادلي في تهدئتي: إنني أتفهم مشاعرك تماماً، لكنني أؤكد لك بأنه لا حاجة بك لأن تقلق. أنا -شخصياً- محام... ولكني مشطوب من جدول المحامين بالطبع.

أضاف جملته الأخيرة بشكل اعتراضي، وبأسلوب يكاد يكون ساحراً حقاً، ثم أكمل قائلاً: وإلا ما كنت هنا... لكني أستطيع أن أؤكد لك بأنني أعرف القانون. إن كل ما أوصي به قانوني تماماً وفوق الشبهات؛ إنها مسألة رهان فقط! يستطيع الإنسان أن يراهن على أي شيء يروق له، مثلاً: هل ستمطر غداً أم لا، أو إن كان الروس سيرسلون رحلاً إلى القمر أم لا، أو إن كانت زوجتك ستضع توأمين أم لا. ويمكنك أيضاً أن تراهن إن كانت السيدة «ب» ستموت قبل نهاية السنة أو أن السيدة «س» ستعيش حتى تبلغ المئة عام مثلاً. إنك تراهن على رأيك وحدسك، أو سَمِّهِ كما تشاء. المسألةَ بهذه البساطة!

أحسست تماماً كأن جرّاحاً يطمئنني قبل إجراء العملية الجراحية! كانت غرفة استشارات السيد برادلي مثالية.

قلت ببطء: أنا لا أفهم عمل الحصان الأشهب هذا.

- وهل هذا يقلقك؟ نعم، إنه يقلق كثيراً من الناس. أنا -بصراحة- لا أفهمه شخصياً، لكنه عمل يعطي نتائج... يعطي نتائج بطريقة رائعة جداً!

- لو تخبرني بالمزيد عنه...

كنت قد حددت دوري الآن... دور الحذر المتلهف رغم خوفه، وبدا واضحاً أنه موقف توجب على السيد برادلي التكيف معه في كثير من الأحيان.

- هل تعرف المكان؟

أخذت قراراً سريعاً؛ فسيكون من غير الحكمة أن أكذب.

- إنني... إن... نعم، ذهبت إليه مع بعض الأصدقاء. هم أخذوني إليه...

- إنه نزل قديم رائع يعبق بالتاريخ، وقد عملوا الأعاجيب في ترميمه. إذن فقد قابلتها... أقصد الآنسة غري يا صديقي؟

- نعم... نعم، بالطبع. امرأة غير عادية.

- أليس كذلك؟ نعمَ، أليس كذلك؟ لقد عبرت عن ذلك بالضبط. امرأة غير عادية، ولها قوى غير عادية أيضاً.

- يا للأشياء التي تزعمها! إنها بالتأكيد مستحيلة.. تماماً؟

- بالضبط، هذه هي النقطة الأساسية. الأشياء التي تزعم قدرتها على معرفتها وعملها مستحيلة! من شأن الجميع أن يقولوا ذلك، ففي محكمة مثلاً...

كانت العينان السوداوان الصغيرتان تركزان النظر عليّ. أعاد السيد برادلي كلماته مشدداً: في محكمة مثلاً سيكون الأمر موضع سخرية! إذا ما وقفت تلك المرأة واعترفت بارتكابها جريمة القتل، القتل بواسطة التحكم عن بعد أو بقوة الإرادة، أو أي شيء من ذلك اللغو الذي يروق لها أن تتحدث عنه، فإن ذلك الاعتراف لن يمكن تصديقه والعمل بموجبه! حتى لو كانت شهادتها صحيحة، وهو بالطبع ما لن يصدقه أي عاقل مثلي ومثلك! إنها لن تقبل كشهادة قانونية؛ فالقتل بواسطة التحكم عن بعد لا يُعد بنظر القانون جريمة، بل مجرد هراء. هنا مكمن الجمال في هذا الأمر... إن أنت فكرت فيه للحظة.

فهمت أنه تمت طمأنتي؛ فالقتل باستخدام القوة السحرية لا يعد جريمة قتل في المحاكم الإنكليزية، ولو استأجرت قاطع طريق ليقتل شخصاً ما بواسطة سكين أو أية آلة أخرى فإنني سأدان معه بتهمة الاشتراك في الجريمة والتآمر معه، ولكن إذا أنا دفعت عمولة لتيريزا غري لكي تستخدم سحرها الأسود، فإن هذا السحر الأسود غير معترف به. هذا هو جمال الشيء من وجهة نظر السيد برادلي.

طغت علي -احتجاجاً- كل طبيعة الشك عندي فانفجرت قائلاً بحرارة: تباً لهذا كله، إنه خيال! لا أصدقه، إنه مستحيل!

- أنا أتفق معك. إن تيريزا غري امرأة غير عادية، وهي تمتلك بالتأكيد بعض القدرات غير العادية، ولكننا لا نستطيع أن نصدق كل المزاعم التي تقولها عن نفسها؛ فالأمر -كما تقول- أغرب من أن يصدق. لا يمكن لأحد أن يصدق أن وسيطة أرواح تجلس في كوخ في إنكلترا وتتسبب في مرض شخص ووفاته بمرض عادي وهو موجود في بلد آخر بعيد.

- لكن هذا ما تزعم أنها تستطيعه؟

- آه، نعم. إن لديها قدرات بالطبع... إنها اسكتلندية، والاستبصار صفة من صفات الاسكتلنديين، وهي صفة موجودة فعلاً. إن ما أظنه فعلاً ودون شك هو ما يلي...

مال بجسده إلى الأمام وهو يشير بسبابته على نحو مؤثر: إن تيريزا غري تعرف... مسبقاً... متى سيموت شخص ما. إنها موهبة، وهي تملكها.

ثم استند بظهره إلى الكرسي وهو يتفحصني. انتظرته حتى يكمل حديثه: دعنا نتخيل حالة افتراضية: أنت تريد أن تعرف متى ستموت عمتك أليزا على سبيل المثال. يجب أن تعترف أن من المفيد لك أن تعرف شيئاً كهذا. لا شيء في هذا الأمر يدل على القسوة أو الخطأ... مجرد فائدة عملية. تريد أن تعرف الخطط التي ستعملها، وهل ستحصل على مبلغ محترم من النقود في شهر نوفمبر القادم؟ إذا عرفت ذلك فإنك بالتأكيد ستتخذ قراراً مفيداً، ولكن العجوز أليزا قد تعيش لعشر سنوات أخرى.

سيفرحك هذا بالتأكيد فأنت تحبها كثيراً، ولكن معرفة ذلك ستكون مفيدة لك.

سكت قليلاً ثم مال إلى الأمام أكثر وقال: هنا يأتي دوري. أنا رجل رهانات، وأنا أراهن على أي شيء... ومن الطبيعي أن يكون ذلك بموجب شروطي الخاصة. تأتي لزيارتي، ومن الطبيعي أنك لا تريد أن تراهن على وفاة السيدة العجوز لأن مشاعرك لا تتقبل ذلك، ولذلك فإننا نضع المسألة بهذه الطريقة: أنت تراهنني على مبلغ معين بأن العمة أليزا ستكون بصحة جيدة ومعافاة في نهاية العام، وأنا أراهنك على أنها لن تعيش حتى ذلك الوقت.

كانت العينان الخرزيتان تحدقان فيّ وترقبان...

– لا محظور في هذا العمل، أليس كذلك؟ بسيط تماماً.. نتجادل حول هذا الموضوع. أنا أقول إن العمة أليزا على وشك الموت وأنت تقول لا. نكتب عقداً ونوقع عليه، وعندها أعطيك تاريخاً. أقول لك بأنه بعد أسبوعين من ذلك التاريخ ستقرأ عن جنازة العمة أليزا، وأنت تقول إن ذلك لن يحدث. إذا كنتَ على صواب... سأدفع لك. وإذا كنتَ على خطأ... تدفع أنت لي!

نظرتُ إليه. حاولت استحضار أحاسيس رجل يريد الموت لسيدة عجوز غنية، ثم انتقلت لتمثل مشاعر من يريد قتل شخص مبتز. وجدت هذ الدور أسهل: شخص يبتزني منذ عدة سنوات، ثم لم أعد أطيق ذلك أكثر فرغبت في موته. لم أكن أجرؤ على قتله بنفسي، لكنني كنت سأدفع أي مبلغ... نعم، أي مبلغ...

تكلمت... وكان صوتي أجش. كنت أمثّل الدور ببعض الثقة. قلت: ما هي الشروط؟

تغير أسلوب السيد برادلي سريعاً وغدا مرحاً مزّاحاً.

– هنا يأتي دورنا، أليس كذلك؟ أو بالأحرى دورك أنت، هاها... لقد قلت لي: "كم تطلب؟" ولقد أجفلني ذلك حقاً. لم أسمع شخصاً يدخل في صلب الموضوع بهذه السرعة مثلك.

– ما هي الشروط؟

– هذا يعتمد... يعتمد على عدة عوامل مختلفة. إنه يعتمد تقريباً على المبلغ الذي ستحصل عليه، وفي بعض الحالات يعتمد على الأموال التي يملكها الزبون. في حالة وجود مبتز أو زوج غير مرغوب به فإن الأمر يعتمد على مقدار ما يستطيع موكلي دفعه. دعني أوضح لك بأنني لا أراهن مع زبائن فقراء باستثناء تلك الحالة التي كنت أوضحها لتوي، ففي تلك الحالة سيعتمد المبلغ على مقدار أملاك العمة أليزا. ويتم الاتفاق على الشروط بين الطرفين. كلانا يريد الحصول على شيء من ذلك العمل، أليس كذلك؟ ومع ذلك فإن الاحتمالات تتحقق في العادة بنسبة خمسمئة إلى واحد.

– خمسمئة إلى واحد؟ شيء لا يصدق!

– إن الذي أراهن عليه لا يصدق. لو كانت العمة أليزا قد حجزت لها قبراً وستموت قريباً فإنك كنت ستعرف ذلك ولما جئت إلي. أما أن يتنبأ شخصٌ بموت شخص آخر خلال أسبوعين

فإنه عمل غريب لا يُصدق. إن خمسة آلاف جنيه مقابل مئة جنيه ليس بالمبلغ الغريب في هذه الحالة.

- افترض أنك خسرت الرهان.

رفع السيد برادلي كتفيه بلامبالاة وقال: سيكون ذلك من سوء حظي... سوف أدفع أنا.

- وإذا خسرت أنا فسأدفع. افترض أني لم أدفع؟

استند السيد برادلي على كرسيه وأغمض عينيه قليلاً ثم قال بهدوء: لا أنصحك بهذا... لا أنصحك فعلاً.

وبالرغم من النبرة الهادئة إلاّ أنني أحسست بارتعاشة خفيفة تسري في جسدي. إنه لم ينطق بأي تهديد مباشر، لكن التهديد كان واضحاً في كلماته.

نهضت وقلت: أريد... أريد أن أفكر في الأمر.

عاد السيد برادلي إلى مرحه وتهذيبه: فكّرْ في هذا بالتأكيد ولا تندفع في أي عمل. إذ قررت القيام بذلك العمل فعُد إليّ وسوف نتدارس المسألة بالتفصيل. فكر في الأمر على مهلك فلا داعي للعجلة... فكر في الأمر على مهلك.

خرجت من مكتبه وصدى هذه الكلمات يرن في أذني.

- فكر في الأمر على مهلك...

* * *

الفصل الثالث عشر

باشرت مهمتي في مقابلة السيدة تاكرتن كارهاً. لم أكن مقتنعاً بحكمتها رغم تشجيع غينغر لي، وأحسست في البداية أنني غير مناسب للمهمة التي حددتها بنفسي. كنت أشك في قدرتي على أداء الدور كما هو مطلوب، وكنت بالغ الحساسية إزاء التخفي وراء أقنعة زائفة.

كانت غينغر -بكفاءتها العالية التي تستطيع إبداءها كلما ناسبها ذلك- قد اختصرت لي التعليمات عبر الهاتف: سيكون الأمر بسيطاً للغاية. إنه منزل من تصميم ناش، رغم أنه ليس من الطراز الذي يميزه. ربما كان المنزل ممثلاً لإحدى شطحات خيال ذلك المهندس التي تقترب من الفن القوطي.

- ولماذا أريد رؤيته؟

- قل لها بأنك تفكر في كتابة مقال أو كتب عن التأثيرات

التي تسبب تنوعاً وتذبذباً في أسلوب المهندس المعماري. شيء من هذا القبيل.

- تبدو لي ذريعة زائفة.

قالت غينغر بقوة: هراء. عندما يصل الأمر إلى الموضوعات عالية الثقافة أو مرهفة الفن فإن نظريات غريبة لا تُصدق يطرحها ويكتبها أناس لا يمكنك تخيل وجودهم، وهم يفعلون ذلك بكل الجدية. بوسعي أن أقتطف لك فصولاً كاملة من اللغو والهراء!

قلت: وهذا ما يجعلكِ أفضل مني للقيام بهذا العمل.

قالت غينغر: هنا أنت مخطئ؛ فالسيدة تاكرتن تستطيع أن تجد اسمك في موسوعة الأعلام وتتأثر بذلك بالشكل المطلوب، أما أنا فلن تجد اسمي في أي مكان.

بقيت غير مقتنع رغم هزيمتي المؤقتة.

كنت -عند عودتي من مقابلتي التي لا تصدق مع السيد برادلي- قد اجتمعت مع غينغر لمناقشة الأمر. كانت أكثر تصديقاً مني لتلك المقابلة، وقد ظهرت عليها علامات الرضا والسرور. قالت: إنها تضع حداً لشكوكنا فيما إذا كنا نتخيل أشياء أم لا، فنحن نعرف الآن أنها توجد فعلاً منظمة للتخلص من الأشخاص غير المرغوب فيهم.

- بطرق خارقة للطبيعة!

- إنك ضيق التفكير. تلك القطع الصغيرة والخنافس الزائفة التي ترتديها سايبل هي التي تضلك، ولو ظهر أن السيد برادلي طبيب مشعوذ أو منجم فستبقى غير مقتنع، ولكن بما أنه ظهر مجرد محتال عادي تافه يحتال على القوانين... أو أن هذا هو الانطباع الذي حصلت عليه من حديثك...

قلت: إنه قريب من ذلك.

- بما أنه ظهر كذلك فقد انتظم الأمر كله لديك. إن هؤلاء النسوة في «الحصان الأشهب» يمتلكن شيئاً ما يعمل بنجاح رغم كل ما يبدو من زيف ادعاءاتهن.

- ما دمت مقتنعة لهذه الدرجة فلماذا السيدة تاكرتن إذن؟

قالت غينغر: مجرد تدقيق إضافي. نحن نعرف ما تدَّعي تيريزا غري بأنها تستطيع عمله، ونعرف كيف يعمل الجانب المالي في هذا الأمر، ونعرف بعض الشيء عن ثلاثة من الضحايا. نريد أن نعرف المزيد من وجهة نظر الزبائن.

- افترضي أن السيدة تاكرتن لم تُظهر ما يشير إلى أنها كانت إحدى الزبائن؟

- عندها علينا أن نبحث في مكان آخر.

قلت عابساً: قد أُفسِدُ الأمر كله بالطبع.

ردت غينغر بأن عليّ أن أكون أكثر ثقة بنفسي.

وهكذا وصلت إلى بوابة كاراواي بارك. لم يكن المنزل مطابقاً لأفكاري المسبقة عن فن ناش المعماري، ولكنه لم يصلني في الوقت المطلوب ولذلك لم أكن أمتلك معلومات صحيحة.

قرعت الجرس ففتح لي الباب رجل يرتدي معطفاً بالياً وقال: السيد إيستربروك؟ السيدة تاكرتن في انتظارك.

أشار إلي بدخول غرفة استقبال مؤثثة بكل عناية، لكن الغرفة تركت في نفسي انطباعاً سيئاً. كان كل ما فيها غالي الثمن ولكنه اختير بدون ذوق، وكان يمكن أن تكون غرفة جميلة التوزيع لولا هذا الأثاث. وكان فيها بعض اللوحات الجيدة وكثير جداً من اللوحات السيئة، كما احتوت الكثير من المطرزات الصفراء. دخلت السيدة تاكرتن الغرفة فقطعت حبل أفكاري وتأملاتي في الغرفة. ونهضت بصعوبة من أعماق أريكة مغطاة بقماش أصفر مطرز.

لا أعرف ما الذي كنت أتوقع رؤيته في هذه السيدة ولكني عانيت انقلاباً كاملاً في الأحاسيس؛ إذ لم يكن فيها ما يدل على الشر. كانت مجرد امرأة عادية توشك أن تتجاوز سن الشباب، ولم أرَها جميلة بشكل خاص. كانت من النوع الذي يبخل على الخدم والحمالين، ورأيت أن المرء يقابل العديد من أمثالها في هذا العالم.

قالت بصوت تجلت فيه فرحتها بزيارتي حتى أوشكت تغص بكلماتها: السيد إيستربروك؟ إنني مسرورة جداً بلقائك.

غريب أن تكون مهتماً بهذا البيت. أعرف أن الذي بناه هو المعماري جون ناش؛ فقد أخبرني زوجي بذلك، ولكني لم أكن أعرف أنه يمكن أن يثير اهتمام شخص مثلك!

- كما تعرفين يا سيدة تاكرتن فإنه ليس أسلوبه المعماري المعتاد، وهذا ما يجعل من المثير...

أنقذتني من مشقة إكمال العبارة.

- أخشى أنني لا أعرف شيئاً من هذه الأمور... أقصد الهندسة المعمارية والآثار وأمثال هذه الأشياء. ولكن يجب ألا تنزعج من جهلي...

لم أنزعج أبداً، بل ذلك ما كنت أفضله.

قالت السيدة تاكرتن: موضوعكم هذا يثير الاهتمام بالطبع.

قلت لها بأننا نحس بالملل في عملنا، تماماً على عكس ما تراه هي في مجال اختصاصنا. ردت السيدة تاكرتن بأنها واثقة من عدم صحة ذلك، وسألتني إن كنت أريد تناول فنجان من الشاي قبل رؤية البيت أم بعد رؤيته.

قلت بأنني أريد رؤية البيت أولاً، فصحبتني في أرجائه وهي تثرثر طوال الوقت مما أراحني من عناء إبداء أي حكم أو رأي يتعلق بهندسة العمارة.

قالت إنني محظوظ لأنني جئت الآن؛ فقد كان البيت معروضاً للبيع: "إنه كبير جداً على واحدة مثلي... بعد وفاة زوجي"... وهي تظن وجود مشتر مستعد لشرائه رغم أن وكلاء البيت لم يعرضوه للبيع إلاّ قبل أسبوع واحد فقط.

– ما كنت أحب لك أن تراه فارغاً. أظن أن البيت يجب أن يكونَ مسكوناً إذا أراد المرء أن يقوّمه، أليس كذلك يا سيد إيستربروك؟

كنت أفضل أن يكون البيت خالياً غير مؤثث، ولكن كان طبيعياً أن لا أقول ذلك. سألتها إن كانت ستبقى في تلك المنطقة أم لا.

– الحق أنني لست متأكدة تماماً. سأسافر قليلاً في البداية إلى حيث توجد الشمس. أنا أكره هذا المناخ البائس؛ ولذا أفكر في قضاء الشتاء في مصر. ذهبت إلى هناك قبل سنتين، إنها بلد رائع، وأظن أنك تعرف عنها كل شيء.

لم أكن أعرف عن مصر شيئاً وقلت لها ذلك.

قالت بمرح وغموض: أظن ذلك من باب التواضع!

أكملنا الجولة، وأعربت عن إعجابي بالتناسب الواضح في البيت. وسرعان ما انتهت الجولة وعدنا إلى غرفة الاستقبال وضربت السيدة تاكرتن الجرس طلباً للشاي.

أحضر الخادم الذي فتح لي الباب صينية الشاي وعليها إبريق فضي ضخم يعود للعصر الفيكتوري كان بحاجة إلى شيء من التنظيف.

تنهدت السيدة تاكرتن بعد مغادرته الغرفة وقالت: بعد وفاة زوجي أصر الخادم وزوجته (اللذان عملا في البيت قرابة العشرين عاماً) على الرحيل. قالا إنهما سيتقاعدان، لكني سمعت بعدها أنهما عملا في مكان آخر بأجر مرتفع جداً. أظن أن من السخافة دفع مثل هذه الأجور المرتفعة. ما أكثر تكاليف إطعام وإقامة الخدم... ناهيك عن تكليف غسل ملابسهم وكيها.

نعم، إنها بخيلة كما حسبتها. العينان الشاحبتان والفم الصغير... كانا يدلان على البخل والجشع.

لم أجد صعوبة في حمل السيدة تاكرتن على الحديث؛ فقد كانت تحب ذلك، وكانت تحب -على وجه الخصوص- الحديث عن نفسها. وسرعان ما عرفت الكثير عن السيدة تاكرتن عن طريق الإصغاء الشديد إليها وإصدار كلمة تشجيعية من وقت لآخر، وعرفت أيضاً أكثر مما كانت تريد قوله لي.

عرفت أنها تزوجت توماس تاكرتن (وهو أرمل) قبل خمسة أعوام، وأنها كانت أصغر منه بكثير جداً... كما قالت. وأنها قابلته في فندق ساحلي كبير حيث كانت تعمل مضيفة في قاعة البريدج في ذلك الفندق (ولم تدرك أن تلك الحقيقة الأخيرة قد أفلتت من لسانها). كما قالت لي إنه كانت له ابنة في مدرسة

قريبة هناك... "من الصعب على الرجل أن يعرف ماذا يفعل بفتاة عندما يخرجها معه"...

ثم أضافت: مسكين توماس، كان يعيش في عزلة؛ فزوجته الأولى توفيت قبل ذلك بسنوات، وقد افتقدها كثيراً.

ومضت السيدة تاكرتن في وصف نفسها بأنها امرأة رحيمة عطوفة، وكيف أخذتها الشفقة على ذلك الرجل العجوز الوحيد. وتحدثت عن اعتلال صحته وإخلاصها له.

فكرت بوصيته (وكانت غينغر قد بحثت لي عن تفصيلاتها في المحكمة): منح معينة للخدم القدامى، ثم قسم لزوجته... مبلغ كاف لكنه ليس سخياً، وهو عبارة عن مبلغ محفوظ كأمانة تستفيد هي من عائداته أثناء حياتها. أما البيت الذي يقيم فيه -والذي يبلغ سعره مئات الآلاف- فلابنته توماسينا آن تاكرتن، حيث سيكون ملكاً لها بعد بلوغها سن الحادية والعشرين أو عند زواجها. وإذا توفيت عزباء قبل سن الحادية والعشرين فتذهب النقود لزوجة أبيها. ويبدو أنه لم يكن في العائلة أفراد آخرون.

رأيت أن الجائزة كانت كبيرة، والسيدة تاكرتن كانت تحب النقود... بدا ذلك واضحاً تماماً، وكنت واثقاً أنها لم تكن تملك أية أموال من قبل إلى أن تزوجت هذا الأرمل العجوز، ثم... ربما جاءتها تلك الفكرة. كانت حياتها مقيدة مع زوج مريض عاجز، وقد تطلّعَتْ إلى الوقت الذي ستصبح فيه حرة طليقة، وهي ما زالت شابة وغنية بما لم يكن يخطر على بالها.

ربما كانت الوصية قد خيبت آمالها. كانت تحلم بشيء أفضل من هذا الدخل المتواضع... كانت تتطلع للقيام بأسفار مكلفة ورحلات مرفهة، وإلى الثياب والجواهر أو... وربما إلى متعة المال بحد ذاته... وهو يتجمع أكداساً في البنك. وبدلاً منها كان يفترض أن تحصل الفتاة على كل النقود! الفتاة ستكون وريثة ثرية. الفتاة التي يرجح أنها كانت تكره زوجة أبيها ولا تبالي -نتيجة استهتار الشباب- بإظهار ذلك الكره. الفتاة ستكون هي الغنية... إلاّ إذا...

إلاّ إذا...؟ هل كان ذلك كافياً؟ هل أصدق حقاً أن هذه المرأة المتكلفة التي ترغو بكل هذه الأحاديث التافهة تستطيع أن تقصد «الحصان الأشهب» وترتب مسألة موت فتاة صغيرة؟

كلا، لم أستطع تصديق ذلك... ومع ذلك، كان لا بد أن أقوم بعملي. قلت فجأة: أظن أنك تعرفين بأنني قابلت ابنتك... ابنة زوجك... ذات مرة.

نظرت إلي نظرات فيها بعض الدهشة رغم عدم وجود كثير من الاهتمام: توماسينا؟ حقاً؟

- نعم، في تشيلسي.

- آه، تشيلسي! نعم؛ قد يكون ذلك...

تنهدت ثم أضافت: فتيات هذه الأيام غريبات... يصعب فهمهن! يبدو أننا لا نملك أي سيطرة عليهن، وقد ضايق ذلك

والدها كثيراً، ولم أستطع عمل أي شيء حيال ذلك الموقف بالطبع؛ فهي لم تكن تصغي لأي شيء أقوله. عندما تزوجنا كانت فتاة بالغة. إن زوجة الأب...

هزت رأسها بأسف.

قلت مبدياً تعاطفي معها: إنه موقف صعب دائماً.

- كنت أتحمل تصرفاتها، وبذلت جهدي في كل مجال.

- أنا واثق أنك فعلت ذلك.

- لكن ذلك كان عديم الجدوى. لم يكن توم يسمح لها بالطبع أن تتواقح معي، لكنها كانت تفعل ذلك قدر استطاعتها، وقد جعلت حياتنا مستحيلة. لقد أراحني -إلى حد ما- إصرارها على ترك البيت، لكنني كنت أفهم تماماً مشاعر توم نحو ذلك. وقد تورطَتْ مع مجموعة سيئة تماماً.

- هذا ما فهمته نوعاً ما.

قالت السيدة تاكرتن: مسكينة توماسينا.

عدّلت خصلة من شعرها، ثم نظرت إليّ وأضافت: آه، لعلك لا تعلم... لقد توفيت قبل شهر. التهاب الدماغ... فجأة. إنه مرض يصيب الشباب، على ما أظن... أمر محزن.

نهضت من مجلسي وقلت وأنا أودعها: شكراً لك يا سيدة تاكرتن كثيراً على السماح لي بزيارة بيتك ومشاهدته.

وعندما ابتعدت قليلاً التفتُّ إلى الوراء وقلت: على فكرة، أظن أنك تعرفين «الحصان الأشهب»، أليس كذلك؟

لم يكن في رد فعلها أدنى شك. لقد ذعرت ذعراً واضحاً تجلى في عينيها الشاحبتين. تحول وجهها فجأة -من تحت المساحيق- شاحباً وخائفاً، وجاء صوتها متهدجاً مرتعشاً: «الحصان الأشهب»؟ ماذا تقصد بالحصان الأشهب؟ لا أعرف عنه شيئاً.

أظهرت لها دهشتي وقلت: آه... لعلي أخطأت. إنه نزل قديم مثير جداً في قرية متش ديبنغ، وقد كنت هناك قبل بضعة أيام وأخذوني لرؤيته. كان قد حُوِّل إلى بيت بطريقة رائعة ولكن بقي فيه الجو القديم. ظننت أن اسمك قد ذكر هناك... ولكن ربما كانت ابنة زوجك هي التي كانت هناك... أو أنها واحدة أخرى لها نفس الاسم.

سكتُّ قليلاً ثم قلت: إن لذلك البيت سمة معروفة.

استمتعت بآخر سطر قلته في مسرحيتي هذه. وفي إحدى المرايا المعلقة على الجدران رأيت وجه السيدة تاكرتن منعكساً. كانت تحدق فيّ وكانت خائفة جداً جداً، ورأيت كيف ستبدو في السنوات القادمة... لم يكن منظراً يسر الناظرين.

* * *

الفصل الرابع عشر

قالت غينغر: إذن فنحن الآن متأكدون تماماً.

- كنا متأكدين من قبل.

- نعم، إلى حد ما، لكن هذا يحسم الأمر.

جلست صامتاً لبعض الوقت. مضيت أتخيل السيدة تاكرتن وهي تقوم برحلة إلى بيرمنغهام وتدخل مباني ساحة البلدية وتقابل السيد برادلي. خوفها وعصبيتها... طمأنتُهُ لها وتأكيدُه الماهر على عدم وجود مجازفات (كان عليه أن يؤكد ذلك كثيراً للسيدة تاكرتن). كنت أستطيع رؤيتها وهي تغادر مكتبه دون أن تلزم نفسها بشيء، تاركة الفكرة تتجذر في عقلها. ربما ذهبت لرؤية ابنة زوجها أو أن ابنة زوجها جاءت إلى البيت لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، ربما دار بينهما حديث وتلميحات عن زواج، وكانت طوال الوقت تفكر في الأموال... ليس مبلغاً بسيطاً من

المال، ليس مبلغاً زهيداً بائساً... بل أموال كثيرة، أموال كبيرة، أموال تمكنها من فعل أي شيء تريده! كل هذه الأموال ستذهب إلى هذه الفتاة السخيفة لتبذرها في مقاهي تشيلسي وهي ترتدي الجينز والملابس الرثة مع أصدقائها السخفاء. لماذا تأخذ فتاة خبيثة كهذه لا أمل في إصلاحها كل هذه الأموال الجميلة؟

وهكذا قامت بزيارة أخرى لبيرمنغهام. مزيد من الحذر، ومزيد من الطمأنة. وفي نهاية الأمر تجري مناقشة للشروط. ابتسمتُ رغماً عني... لم يكن من شأن السيد برادلي أن يملي شروطه كلها في هذه الحالة؛ لأنها كانت ستساومه مساومة عسيرة، ولكن في نهاية الأمر يتم الاتفاق على الشروط ويتم توقيع بعض الوثائق، ثم ماذا؟

هنا توقفت خيالاتي... هذا ما لم نعرفه.

صحوت من تخيلاتي لأرى غينغر ترقبني. سألتني: هل حللت المعضلة؟

- وكيف عرفت بما كنت أفكر فيه؟

- لقد بدأت أعرف طريقة تفكيرك. كنت تعمل تفكيرك فيها، أليس كذلك؟ كنت تتبعها وهي ذاهبة إلى بيرمنغهام وما إلى ذلك؟

- نعم، لكنني توقفت فجأة. عند اللحظة التي سوت فيها العمل في بيرمنغهام... ما الذي حدث بعد ذلك؟

نظرنا إلى بعضنا. قالت غينغر: عاجلاً أم آجلاً، يتوجب على شخصٍ ما أن يكشف ما يحدث في «الحصان الأشهب».

- كيف؟

- لا أعرف... لن يكون عملاً سهلاً؛ فلن تجد أحداً قد ذهب فعلاً إلى هناك ودخل في هذا الأمر ثم يكون مستعداً للكلام. وفي نفس الوقت فالذين دخلوا في هذا الأمر هم الوحيدون الذين يعرفون الحقيقة. إنه أمر صعب... ترى...

- هل نذهب إلى الشرطة؟

- نعم. إن لدينا الآن شيئاً مؤكداً وواضحاً... شيئاً يكفي لكي يتحرك الشرطة على أساسه، أليس كذلك؟

هززت رأسي مرتاباً وقلت: إنها إثبات نية فقط. ولكن هل هذا يكفي؟ مجرد ذلك الهراء عن الرغبة بالموت. آه...

سبقتها قبل أن تقاطعني وقلت: قد لا يكون هراء... ولكنه سيبدو كذلك في المحكمة. إننا لا نعرف حتى ما هو الإجراء الفعلي المتبع.

- إذن علينا أن نعرف. ولكن كيف؟

- علينا أن نرى بأعيننا... أو نسمع بآذاننا. ولكن ليس من مكان يختبئ فيه المرء في تلك الغرفة الضخمة التي أحسب أن طقوسهن تجري فيها، كائناً ما كانت تلك الطقوس.

انتصبت غينغر في جلستها وأومأت برأسها بقوة وقالت: توجد طريقة واحدة لاكتشاف ما يجري حقيقة. لا بد أن تذهب بصفتك زبوناً حقيقياً.

حدقت فيها وقلت: زبون حقيقي؟!

– نعم. أنت أو أنا، لا يهم من منا، عليه أن يجد شخصاً يريد التخلص منه. واحد منا عليه أن يذهب إلى برادلي لتسوية هذه العمل.

قلت بحدة: لا أحب ذلك.

– لماذا؟

– لأنه... لأنه يفتح الباب لاحتمالات خطيرة.

– بالنسبة لنا؟

– ربما. لكني كنت أفكر حقيقة في... الضحية. لا بد من وجود ضحية، و لا بد أن نعطيه اسماً، ولا يمكن أن يكون اسماً وهمياً لأنهم ربما سيدققون.. بل إنهم سيدققون بالتأكيد، ألا توافقينني في هذا الرأي؟

فكرت غينغر لبعض الوقت ثم أومأت وهي تقول: نعم، لا بد أن يكون الضحية شخصاً حقيقياً له عنوان حقيقي.

– هذا ما لا أحبه.

– كما أن علينا أن نمتلك سبباً حقيقياً للتخلص منه.

جلسنا صامتين بضع لحظات ونحن نفكر في هذا الوضع.

قلت ببطء: لا بد أن يوافق هذا الشخص –أياً كان– على عملنا، وهذا أمر يصعب طلبه من أحد.

قالت غينغر: لا بد من إخراج العمل إخراجاً جيداً. لقد كنت مصيباً تماماً فيما ذهبت إليه ذلك اليوم... إن نقطة ضعف هذا كله هو أنهم في موقع حرج؛ فالعمل ينبغي أن يكون سرياً... ولكن ليس سرياً للغاية، فالزبائن المحتملون يجب أن يسمعوا شيئاً عن هذا الأمر.

– إن ما يحيرني هو أن الشرطة لا يبدون وكأنهم سمعوا شيئاً، رغم إدراكهم –عادةً– للأعمال الإجرامية التي تجري.

– نعم، ولكني أظن أن السبب في ذلك عائد لكونه عمل هواة. إنه ليس عملاً محترفاً، فلا وجود لمجرمين محترفين يتم توظيفهم أو استخدامهم. إنه ليس كاستئجار عصابة من قطّاع الطرق لقتل الناس. فالأمر كله... عمل خاص.

قلت لها إنها ربما كانت على حق في هذا.

أكملت غينغر تقول: لنفترض الآن أن أحدنا (وسوف ندرس كلا الاحتمالين) يريد جاهداً التخلص من شخص ما. من هو الشخص الذي تريد أو أريد أنا التخلص منه؟ أنا عندي عمي العزيز ميرفين الذي سأحصل على مبلغ كبير جداً عند وفاته. إذن عندي دافع لهذا العمل، ولكنه تجاوز السبعين عاماً وهو على وشك

الموت تقريباً، ولذلك من الطبيعي بالنسبة لي أن أنتظر حدوث سبب طبيعي لوفاته (إلاّ إذا كنت بحاجة ماسة إلى المال، وهو أمر يصعب التظاهر به). وإلى جانب ذلك، فأنا أحبه حباً شديداً ولا أريد حرمانه من دقيقة من الحياة... أو حتى المجازفة بمثل هذا الاحتمال! ماذا عنك؟ هل لديك أقارب سيتركون أموالاً؟

هززت رأسي وقلت: لا أحد أبداً.

– هذا مزعج. ربما نحتج بوجود عملية ابتزاز؟ مع أن إقناعهم بذلك يحتاج إلى الكثير من الترتيبات، ثم إنك لست ذا ثغرات يستفيد منها المبتزون. لو كنت عضواً في البرلمان أو في وزارة الخارجية أو أنك مرشح لتكون وزيراً لكان الأمر مختلفاً. ونفس الأمر معي. والآن ماذا لدينا غير ذلك؟ الزواج بثانية؟

نظرت إليّ نظرات تأنيب وقالت: أمر مؤسف أن لا تكون قد تزوجت. لو كنت متزوجاً لاستطعنا أن نرتب شيئاً من هذا.

ظهر شيء على وجهي فضحني دون شك. أسرعت غينغر تقول: أنا آسفة. هل أثرت في نفسك شجوناً تؤذيك؟

– لا، إنه أمر غير مؤذٍ. كان ذلك منذ زمن طويل وأشك في أن أحداً الآن يعرف عنه شيئاً.

– هل تزوجت سابقاً؟

– نعم، عندما كنت في الجامعة. لقد أبقينا الأمر سراً، فلم

تكن هي... كان أهلي سيغضبون لو علموا، حتى أنني لم أكن قد بلغت سن الرشد. لقد كذبنا فيما يخص أعمارنا الحقيقية.

بقيت صامتاً بعض الوقت وأنا أفكر في الماضي. قلت ببطء: ما كان لذلك الزواج أن يدوم... إنني أدرك ذلك الآن. كانت جميلة وكانت لطيفة جداً... ولكن...

– ماذا حدث؟

– ذهبنا إلى إيطاليا في رحلة طويلة. وقع هناك حادث... حادث سيارة، وقد قُتلت على الفور.

– وأنت؟

– لم أكن في السيارة. كانت... مع صديق.

نظرت غينغر إليّ نظرة سريعة. أظن أنها فهمت طبيعة ما حدث... صدمة اكتشافي أن الفتاة التي تزوجتها لم تكن امرأة وفية مخلصة.

عادت غينغر إلى المسائل العملية. سألتني: هل تزوجتما في إنكلترا؟

– نعم، في مكتب التسجيل في بيتربورو.

– ولكنها ماتت في إيطاليا؟

– نعم.

– إذن لا يوجد لها سجل وفاة في إنكلترا.

– كلا.

– إذن ماذا تريد أكثر من ذلك؟ إنها منحة من الله! لا شيء أبسط من ذلك؛ أنت تحب امرأة حباً عظيماً وتريد الزواج بها، لكنك لا تعرف إن كانت زوجتك ما تزال على قيد الحياة أم لا. انفصلتما منذ سنوات طويلة ولم تسمع عن أخبارها شيئاً منذ ذلك الحين، فهل تجازف بالإقدام على الزواج؟ وأنت تفكر في هذا الأمر تعود زوجتك فجأة للظهور! تأتي من عالم المجهول وترفض الموافقة على الطلاق وتهددك بالذهاب إلى فتاتك وكشف الأمر ومن ثم إفساده عليك.

سألتها مرتبكاً: ومن هي فتاتي؟ أنت؟

ذهلت غينغر من سؤالي وقالت: كلا بالتأكيد، أنا لست من النوع الذي يصلح لهذه التمثيلية. أنت تعرف تماماً من هي التي أقصدها... وأظن أنها المناسبة. تلك الفتاة السمراء الجميلة التي ترافقك؛ الفتاة الجادة واسعة الثقافة.

– هيرميا ريدكليف؟

– هذا صحيح، لا سيما أنها مرشحة لتكون زوجتك بالفعل.

– من أخبرك عنها؟.

– بوبي بالطبع. كما أنها غنية أيضاً، أليس كذلك؟

– إنها غنية جداً، لكن...

– حسناً، حسناً. أنا لم أقل بأنك ستتزوجها من أجل مالها؛ فأنت لست من هذا النوع، لكن عقولاً شريرة –كعقل برادلي– يمكن أن تظن ذلك بسهولة... الوضع ممتاز إذن. سيكون الموقف كالتالي: كنتَ على وشك طلب يد هيرميا للزواج بك عندما ظهرت فجأة الزوجة غير المرغوب فيها من أعماق الماضي. وصلَتْ إلى لندن فصبت الزيت على النار. أنت تطلب منها الطلاق بإلحاح وهي ترفض ذلك... إنها تحب الانتقام. ثم... تسمع عن «الحصان الأشهب». سوف أراهنك على ما تشاء بأن تيريزا وتلك المرأة الحمقاء بيلا ستحسبان أن هذا هو سبب مجيئك إليهن في ذلك اليوم. لقد فهمن الأمر وكأنه محاولة تجريبية منك وهذا ما جعل تيريزا مستعدة لكشف بعض المعلومات لك... كانت تتكلم معك من باب الترويج لبضاعتها.

فكرت في أحداث ذلك اليوم وقلت: أظن أن ذلك ممكن.

– كما أن ذهابك إلى برادلي مباشرة بعد تلك الزيارة يناسب الأمر تماماً. إنك زبون محتمل... وصيد ثمين...

سكتت فرحة. كان فيما قالته شيء من الصحة، ولكني لم أفهم تماماً. قلت: ما زلت أظن بأنهم سيتحققون من الأمر بحذر شديد.

ووافقتني غينغر: بالتأكيد.

– لا بأس في اختراع زوجة وهمية تنبعث من الماضي... ولكنهم سيطلبون معلومات: أين تعيش... وغير ذلك. وعندما

أحاول أن أتجنب إعطاء جواب واضح...

- لا حاجة لأن تتجنب الإجابة. حتى تقوم بالعمل بطريقة صحيحة لا بد أن تكون الزوجة موجودة بالفعل، وسوف تكون موجودة بالفعل! تشجع... سأكون أنا زوجتك!

* * *

حدقت فيها... بل أظن أن كلمة «حملقت» أفضل، وقد تحيرت لأنها لم تنفجر ضاحكة. وعندما بدأتْ تتكلم ثانية كنت قد استجمعت قواي. قالت: لا حاجة لأن تصعق؛ إنه ليس عرض زواج.

وأخيراً تكلمتُ وقلت: أنت لا تعرفين ما تقولينه.

- أعرف بالطبع. إن ما اقترحته واضح تماماً... ومن فائدته أيضاً أنه لا يورط امرأة بريئة في خطر محتمل.

- إنه يعرضك أنت للخطر.

- هذا شأني أنا.

- لا، إنه ليس كذلك. وعلى أية حال فلن يصدق أحد ذلك.

- بل سيصدقون... لقد فكرت في الأمر. أصل إلى شقة مفروشة مع حقيبة أو اثنتين وعليهما بطاقات أجنبية، وأحجز الشقة باسم السيدة إيستربروك... ومن هذا الذي سيقول بأنني

لست السيدة إيستربروك؟

- أي واحد يعرفك.

- لن يراني أحد ممن يعرفونني. أنا بعيدة عن عملي... مريضة. أصبغ شعري... على فكرة ماذا كان لون شعر زوجتك؟ أسود أم أشقر؟ الحقيقة أن ذلك لا يهم كثيراً.

قلت تلقائياً: أسود.

- جيد، كنت سأكره تفتيح لون شعري. ثياب مختلفة وكثير من مساحيق التجميل... عندها لن يعرفني أقرب المقربين إليّ! وبما أنه لم تكن معك زوجة مشهودة منذ خمسة عشر عاماً أو نحو ذلك، فلن يعرف أحد أنني لست هي. ولماذا تشك أي واحدة في «الحصان الأشهب» بحقيقة شخصيتي؟ إذا كنت مستعداً للتوقيع على أوراق تراهن فيها بمبلغ كبير من المال بأنني سأبقى على قيد الحياة فإن أحداً لن يشك بأنني امرأة مزيفة. كما لا توجد لك أية علاقات مع الشرطة، وأنت زبون حقيقي. يستطيعون التحقق من الزواج إذا بحثوا في سجلات سومرست القديمة، ويستطيعون التحقق من صداقتك مع هيرميا وكل هذه الأمور... إذن ما الداعي لارتيابهم في الأمر؟

- أنت لا تدركين المصاعب... الخطر.

- تباً... للخطر! أحب مساعدتك في كسب مئة جنيه من ذلك المحتال برادلي.

نظرت إليها. لقد أعجبت بها كثيراً... بشعرها الأحمر، ووجهها المنمش، وشهامتها. لكنني لم أستطع تركها تجازف كما أرادت.

قلت : لا أستطيع تحمل ذلك يا غينغر. افترضي... أن شيئاً حدث.

– لي؟

– نعم.

– أليس هذا من شأني؟

– كلا. أنا الذي ورطتك في كل هذا.

أومأت برأسها متأملة وقالت: نعم، قد يكون ذلك صحيحاً، ولكن لا يهم الذي بدأ في ذلك العمل. كلانا مشتركان فيه الآن... ويجب أن نفعل شيئاً. إنني أتكلم بجدية الآن يا مارك. أنا لا أزعم أن هذا الأمر كله مجرد تسلية. لو كان ما نعتقده صحيحاً فإنه عمل متوحش يثير القرف ويجب وقفه! إنه ليس جريمة قتل بسبب الاهتياج أو الغضب نتيجة الكراهية أو الغيرة، كما أنها ليست جريمة قتل بسبب الجشع وحب المال... إنه القتل وقد اتخذ شكل وظيفة ومهنة... قتل لا يقيم وزناً لمن هو الضحية وما هي جريرته. هذا إذا كان ذلك صحيحاً؟

نظرت إليّ نظرات شك. قلت: إنه صحيح، وهذا هو سبب خوفي عليك.

وضعت غينغر مرفقيها على الطاولة وبدأت تجادل.

تدارسنا الأمر أكثر من مرة ومن عدة جوانب بينما كانت عقارب الساعة في بيتي تتحرك ببطء. وفي نهاية الأمر لخصت غينغر الأمر قائلة: سيكون الأمر كذلك... إنني جاهزة مسبقاً ومسلحة سلفاً استعداداً لما سيحدث. أعرف ما ستفعله تلك المرأة بي، ولا أظن للحظة واحدة بأنها تستطيع ذلك! إن كان لكل واحد «رغبة بالموت» فإن رغبتي ليست متطورة خطيرة! فصحتي جيدة، وببساطة فإنني لا أحسب أنني سأصاب في المرارة أو التهاب السحايا لمجرد أن العجوز تيريزا ترسم نجمة سحرية على الأرض أو لأن سايبل انتابتها غشية... أو غير ذلك مما تفعله هؤلاء النسوة.

قلت متأملاً: أتخيل بيلا وهي تشعوذ وتذبح ديكاً أبيض!

– يجب أن تعترف أن هذا كله هراء!

– لا نعرف ما يحدث حقيقة.

– نعم، ولذلك من الضروري أن نكشف ما يحدث. ولكن هل تعتقد حقيقة بأنني يمكن أن أصاب بمرض قاتل وأنا أعيش في شقة في لندن بسبب ما تستطيع هؤلاء النسوة الثلاث في «الحصان الأشهب» عمله؟ لا يمكنك أن تصدق ذلك!

– نعم. لا أستطيع تصديق ذلك. لكنني فعلاً...

نظرنا إلى بعضنا. قالت غينغر: نعم، إنه ضعفنا.

– اسمعيني، دعينا نعكس الأمر. لأكن أنا الشخص الذي في لندن، وأنت الزبون. نستطيع أن نخطط لأمرٍ ما...

لكن غينغر كانت تهز رأسها بقوة ثم قالت: لا يا مارك. لن تنجح تلك الطريقة لعدة أسباب، أهمها أنني معروفة أساساً في «الحصان الأشهب» على حقيقتي امرأةً حرة لا هموم لديها. يستطعن أن يعرفن من رودا كل المعلومات التي يُردنها عن حياتي... وليس فيها أي شيء. أما أنت ففي موقف مثالي... إنك زبونٌ عصبي المزاج تتحسس الخطر حولك ولا تستطيع مع ذلك توريط نفسك. كلا، يجب أن يبقى الأمر كما قلنا.

– لا أحب ذلك. لا أحب أن أفكر فيك... وحيدة في مكان تحت اسم مستعار... دون أحد يحميك. أظن أننا يجب أن نذهب إلى الشرطة قبل أن نشرع في هذا العمل... الآن... وقبل أن نعمل أي شيء آخر.

قالت غينغر ببطء: أنا موافقة على هذا. وفي الواقع أظن أن هذا ما كان عليك عمله، فلديك شيء تستند إليه. أية شرطة؟ سكوتلانديارد؟

– لا، بل أظن أن مفتش المنطقة لوجون هو أفضل شخص نلجأ إليه.

* * *

الفصل الخامس عشر

أعجبني المفتش لوجون من أول نظرة؛ فقد كان فيه ما يوحي بالقدرة الهادئة. كما اعتقدت أيضا بأنه ذو خيال... رجل سيكونُ مستعداً للتفكير في احتمالات غير تقليدية. قال: أخبرني الدكتور كوريغن عن لقائه معك. لقد جذب هذا العمل اهتمامه من البداية، فقد كان الأب غورمان معروفاً ومحترماً في هذه المقاطعة. أنت تقول إن لديك الآن معلومات خاصة لنا؟

قلت: إنها تتعلق بمكان يُدعى «الحصان الأشهب».

– أظن أنه في قرية تدعى متش دينغ؟

– نعم.

– أخبرني عنه.

أخبرته عن أول مرةٍ سمعت فيها باسم «الحصان الأشهب»

في مطعم فانتازيا، ثم وصفت له زيارتي لرودا وكيف سمعت عن «الأخوات المشعوذات الثلاث» كما وصفت له -بأكبر دقة ممكنة- حديثي مع تيريزا الذي تم بعد ظهر ذلك اليوم.

- وهل اقتنعتَ بما قالته لك؟

شعرت بالحرج وقلت: الأمر ليس كذلك حقيقة. أقصد أنني لم أصدق كلامها أو آخذه على محمل الجد...

- أحقاً يا سيد إيستربروك؟ أظن أنك صدقته.

- أظن أنك على حق، لكن المرء لا يحب أن يعترف بمقدار سذاجته.

ابتسم لوجون وقال: ولكنك أغفلت ذكر شيء ما، أليس كذلك؟ لقد كنت مهتماً بذلك قبل أن تأتي إلى متش دينغ... لماذا؟

- أظن أن ذلك بسبب الفتاة التي بدت خائفة جداً.

- الفتاة التي تعمل في محل الزهور؟

- نعم. لقد ألقت ملاحظتها عن الحصان الأشهب بطريقة عرضية تماماً، وكونها خائفة أكد لحقيقة وجود شيء كان يدعوها للخوف منه. ثم قابلتُ الدكتور كوريغن بعدها وأخبرني عن قائمة الأسماء. كنت أعرف اثنين من أصحاب هذه الأسماء كلاهما مات، وبدا اسمٌ ثالث لسيدة مألوفاً لدي. وبعد ذلك

عرفت أنها هي الأخرى قد توفيت.

- هل هي السيدة ديلافونتين؟

- نعم.

- واصل كلامك.

- قررت ضرورة اكتشاف المزيد عن هذا الأمر.

- وهل شرعت فيه؟ كيف؟

أخبرته عن زيارتي للسيدة تاكرتن، وفي النهاية وصلت إلى موضوع السيد برادلي وزيارتي له في بيرمنغهام.

ازداد اهتمامه الآن. كرر الاسم قائلاً: برادلي.. إذن برادلي له صلة بهذا الأمر؟

- هل تعرفه؟

- آه، نعم، نعرف كل شيء عن السيد برادلي. لقد تسبب لنا بالكثير من المتاعب. إنه شخص هادئ ماهر في عدم منحنا أي ممسك عليه ويعرف كل أنواع الخداع والتحايل والالتفاف على القانون، وهو دائماً محتاط بحيث يبقى في الجانب الآمن من أي عمل. إنه من النوع الذي يستطيع أن يكتب كتاباً عن مئات الطرق في التملص من القانون. أما القتل المنظم فإنني ما كنت أظن أنه يدخل في مجاله... نعم، إنه خارج مجاله تماماً!

- والآن بعد أن أخبرتك عمّا دار بيننا فهل تستطيع اتخاذ

إجراء بخصوصه؟

هز لوجون رأسه ببطء وقال: لا، لا نستطيع أن نعمل شيئاً بناء على ذلك؛ فلا يوجد -بدايةً- أي شهود على الحديث الذي دار بينكما. كان الحديث بينك وبينه فقط، ولذلك يمكنه أن ينكر كل شيء إن أراد! وبعيداً عن هذا، فقد كان على حق تماماً عندما قال لك إن الإنسان يستطيع أن يراهن على أي شيء. إنه يراهن على أن شخصاً ما لن يموت... فيخسر الرهان. ما هو الفعل الجنائي في هذا؟ إلاّ إذا استطعنا إثبات علاقةٍ ما لبرادلي بهذه الجريمة الفعلية مدار الحديث... وأحسب أن هذا ليس سهلاً.

رفع كتفيه حيرة وسكت بعض الوقت ثم قال: هل التقيت برجل يدعى فينابلز عندما كنت هناك في متش دينغ؟

- نعم، قابلته. أخذوني لتناول الغداء معه ذات يوم.

- آه، هل لي أن أسألك عن انطباعك عنه؟

- انطباع قوي... إنه رجل عظيم الشخصية ولكنه مقعد.

- نعم، إنه مقعد بسبب الشلل.

- لا يتحرك إلاّ بواسطة مقعد متحرك. ويبدو أن عجزه قد زاد من تصميمه على العيش والاستمتاع بالحياة.

- أخبرني عن كل ما تعرفه عنه.

وصفت له منزل فينابلز وكنوزه وثرواته ومصالحه المتشعبة.

قال لوجون: أمر مؤسف.

- ما هو المؤسف؟

قال بهدوء: أن يكون فينابلز مقعداً!

قلت: أرجو المعذرة إن سألتك إن كنت متأكدا تماماً من أنه مقعد حقاً أم لا؟ ألا يمكن أن يكون متظاهراً بهذا كله؟

- إننا متأكدون من عجزه أكثر من أي شيء آخر. طبيبه هو السير وليَم داغديل في شارع هارلي، وهو رجل فوق كل الشبهات، وقد حصلنا على تأكيد منه بأن أطرافه عاجزة وضامرة. صاحبنا السيد أوزبورن يؤكد أن فينابلز هو الرجل الذي رآه يسير في شارع بارتون تلك الليلة، لكنه كان مخطئاً.

- فهمت.

- كما قلت لك، فإنه أمر مؤسف؛ لأنه لو كانت توجد منظمة خاصة تقوم بارتكاب جرائم قتل فإن فينابلز هو الرجل القادر على التخطيط لذلك.

- نعم، هذا ما كنت أظنه.

كان لوجون يحرك سبابته على الطاولة بحركة دائرية، وفجأة رفع بصره وقال: دعنا نجمع ما حصلنا عليه لنضيف إلى معلوماتنا المعلومات التي أحضرتها لنا. يبدو أن من المؤكد تقريباً وجود وكالة ما أو منظمة متخصصة فيما يمكن أن نسميه

«التخلص من الأشخاص غير المرغوب فيهم» . ما من شيء جرمي واضح في المنظمة؛ فهي لا توظف مجرمين أو قناصة... ولا شيء يوضح أن الضحايا قد ماتوا نتيجة لأسباب غير طبيعية. أظن أن لدينا -إضافة إلى الأشخاص الثلاثة الذين ذكرتهم قبل قليل- قدراً معيناً من المعلومات غير المحددة عن بعض الأشخاص الآخرين... كلهم توفوا نتيجة أسباب طبيعية، ولكن أشخاصاً استفادوا من موتهم، ولا يوجد أي دليل.

توقف قليلاً، ثم مضى قائلاً: إنه عمل ذكي جداً يا سيد إيستربروك. لقد تم التخطيط لهذا الأمر بكل عناية وتفصيل، وإن من خطط له -كائناً من كان- يمتلك عقلاً رهيباً. نحن لم نحصل إلاّ على بعض الأسماء المتناثرة، والله وحده يعلم كم يوجد غيرهم... كما أننا لم نحصل على هذه الأسماء القليلة إلاّ عن طريق الصدفة وحدها من امرأة في الاحتضار!

هز رأسه غاضباً ثم أكمل يقول: هذه المرأة، تيريزا غري، أنت تقول إنها تباهت أمامك بقدراتها! إنها تستطيع أن تفعل ذلك دون خوف من عقوبة، وحتى لو اتهمتها بارتكاب جريمة قتل ووضعتها في قفص الاتهام وتركتها تتبجح بعملها أمام المحلفين وتقول لهم بأنها خلصت الناس من متاعب الدنيا بواسطة قوة الإرادة أو السِحر، فما الذي سيحصل؟ لن يتم تجريمها وفق القانون؛ فهي لم تقترب أبداً من الأشخاص الذين توفوا (وقد تأكدنا من ذلك)، ولم ترسل لهم حلويات مسمومة

بالبريد، أو ما يشبه ذلك. ووفقاً لكلامها هي، فإنها تكتفي بالجلوس في غرفة واستخدام طريقة التخاطر! إن قاعة المحكمة ستضج بالضحك من كل ذلك!

- لكن الضحايا لا يضحكون.

- هذا صحيح، إنه عمل شيطاني شرير يا سيد إيستربروك.

- نعم. إنها الكلمة الوحيدة التي تنطبق على الواقع الذي نعيشه الآن. ولذلك...

- نعم؟

نظر لوجون إلي متسائلاً، فتكلمت بسرعة قائلاً: أظن أنه توجد فرصة، فرصة ممكنة... في أن نعرف المزيد عن هذا الأمر. لقد وضعت مع صديقة لي خطة، وقد ترى أنها سخيفة جداً...

- سأحكم عليها بعد أن أسمعها.

- قبل كل شيء، فإنني أفهم -مما قلتَه- أنك واثق في قرارة نفسك من وجود مثل هذه المنظمة وأنها تعمل؟

- إنها تعمل بالتأكيد.

- لكنك لا تعلم كيف تعمل؟ لقد تم وضع الخطوات الأولى في عملهم هذا، حيث يسمع شخص أسميه أنا «الزبون» عن وجود هذه المنظمة ويريد أن يعرف عنها المزيد. ويتم إرساله إلى السيد برادلي في بيرمنغهام ويقرر الاستمرار. يصل

إلى اتفاق مع برادلي ثم يتم إرساله إلى «الحصان الأشهب»... أو هذا ما أفترضه. ولكن ماذا يحدث بعد ذلك؟ هذا ما لا نعرفه! ما الذي يحدث في «الحصان الأشهب» بالضبط؟ يجب أن يذهب شخص إلى هناك ويكشف الحقيقة.

- أكمل.

- لأنه ما لم نعرف بالضبط ما تقوم به تيريزا غري فعلاً فإننا لن نتقدم في عملنا... إن كوريغن (طبيب الشرطة عندكم) يقول إن الفكرة كلها هراء... ولكن هل هي كما يقول؟ هل هي كذلك أيها المفتش لوجون؟

تنهد المفتش لوجون وقال: أنت تعرف إجابتي... وإجابة أي شخص عاقل. الإجابة هي: "نعم، إنه هراء بالطبع!". ولكنني أتحدث معك الآن حديثاً غير رسمي. لقد وقعت أشياء غريبة جداً في المئة سنة الماضية. هل كان أحدٌ سيصدق قبل سبعين سنة أنك تستطيع أن تسمع وأنت جالس في غرفتك هنا رجلاً يتحدث معك من نيويورك دون وجود أسلاك تصل بينكما؟ هل كنت ستصدق...؟ آه... توجد عشرات الأمثلة غيرها... أمثلة يعرفها الآن كل الناس بما فيهم الأطفال!

- بمعنى آخر: فإن أي شيء ممكن؟

- هذا ما أقصده بالضبط. إذا سألتني هل تستطيع تيريزا غري قتل شخص بواسطة حركة من عينيها أو غشية تنتابها أو توجيه لإرادتها، فإنني أقول مع ذلك: "لا"، ولكنني... لست

متأكداً... وكيف لي أن أتأكد؟

- نعم. الخوارق تبدو خوارق. لكن ما يبدو خارقاً اليوم يصبح حقيقة علمية غداً.

حذرني لوجون قائلاً: تذكّر أنني لا أتكلم بصفة رسمية.

- أنت تتكلم كلام العقل يا رجل، والحل يكمن في أن أحداً ينبغي أن يذهب ليرى ما يحدث حقيقة. وهذا ما أنوي عمله... أن أذهب لأرى.

حدق لوجون فيّ فقلت: الطريق معبد وسالك.

ثم أخبرته عن الخطة.. أخبرته بالضبط عما خططت لفعله مع صديقتي. وأصغى إلي عابساً ثم قال: إنني أتفهم غرضك يا سيد إيستربروك. الظروف هي التي أعطتك المدخل، لكني -في حقيقة الأمر- لا أدري إن كنتما تدركان تماماً خطورة ما تنويان عمله... فهؤلاء أناس خطيرون. قد يكون الأمر خطيراً عليك... ولكنه بالتأكيد سيكون خطيراً على صديقتك.

- أعرف، أعرف، لقد تدارسنا هذا مئات المرات. لم أُرِد لها أن تلعب الدور الذي ستلعبه، لكنها مصممة عليه... بكل ثبات. يا لها من شقية، إنها تريده!

قال لوجون فجأة: هل قلت إن شعرها أحمر؟

قلتُ وقد جفلت: نعم.

– لن تستطيع أن تجادل امرأة بشعر أحمر؛ أنا أعرفهنّ تماماً.

وتساءلت في نفسي إن كانت زوجته واحدة منهن!

* * *

الفصل السادس عشر

لم أشعر بأي نوع من العصبية في زيارتي الثانية لبرادلي، بل إنني استمتعت بها في الواقع. كانت غينغر قد ألحت عليّ قبل ذهابي إليه قائلة: فكر في دورك حتى درجة التقمص. وكان ذلك ما فعلته بالضبط.

حياني السيد برادلي بابتسامة منه وقال وهو يصافحني: تسرني كثيراً رؤيتك. إذن فقد كنت تمعن النظر في مشكلتك الصغيرة، أليس كذلك؟ كما قلت لك، لا داعي للعجلة... خذ من الوقت ما تشاء.

قلت: هذا تماماً ما لا أستطيع عمله. إنها... إنها مسألة ملحّة.

تفحصني برادلي بنظراته الثاقبة. لاحظ حركاتي العصبية والطريقة التي كنت أتجنب فيها نظراته وارتعاشة يدي عندما

أسقطت قبعتي. قال: حسناً، حسناً، لنرَ ما يمكننا عمله. هل تريد أن تراهن على شيء؟ لا شيء يعدل إراحة العقل من التفكير في الهموم والمتاعب.

قلت: المسألة هي أن...

ثم سكتُّ تماماً، تاركاً الأمر لبرادلي ليقوم بدوره المعتاد، وقد قام به، إذ قال: أرى أنك عصبي المزاج قليلاً وحذِر... يعجبني الحذر؛ لا تقل أي شيء لا تريد أحداً أن يسمعه منك! والآن، هل تشكّ بوجود جهاز تنصت في مكتبي هذا؟

لم أفهم قصده وظهر ذلك على وجهي. أوضح بقول: ميكروفون لاستراق السمع مثلاً. أرجو أن تثق بي عندما أقول لك بعدم وجود مثل هذا الشيء، وإذا كنت لا تصدقني فلديك كل الحق في أن تحدد اسم مكان تختاره أنت (كمطعم أو غرفة انتظار في إحدى محطات القطارات) لنناقش المسألة هناك بدلاً من مكتبي هذا.

قلت إنني واثق بأن المكان هنا لا بأس فيه.

– أنت واعٍ، فمثل هذا الأمر لن يعود علينا بفائدة. لن نقول –أنا وأنت– كلمة واحدة يمكن أن تُستخدم دليلاً ضدنا. والآن لنبدأ على النحو التالي: لديك شيء يقلقك، وقد وجدتني متعاطفاً معك، ولذلك أحسستَ بحاجتك لتخبرني به. إنني رجل مجرب وقد أستطيع إسداء النصيحة لك... «إن أفضيتَ

بمشكلتك لامرئ فقد حملته نصفها» كما يقولون... ماذا لو وضعنا الأمر بهذه الطريقة؟

وضعنا الأمر بتلك الطريقة، ومضيت متعثراً في قصتي.

كان السيد برادلي حاذقاً، ومضى يحثني ويسهل عليّ العبارات الصعبة، ولذلك لم أشعر بأية صعوبة في إخباره عن افتتاني أيام الشباب بزوجتي دورين وعن زواجنا السري.

قال وهو يهز رأسه: يحدث كثيراً... مفهوم! شاب ذو مثاليات، وفتاة جميلة جداً. وهكذا... تزوجتما سراً. وما الذي حدث نتيجة ذلك؟

أخبرته بما حدث نتيجة ذلك؟

وهنا تعمدت أن لا أكون واضحاً في التفاصيل؛ فالرجل الذي كنت أحاول تقمص دوره لم يكن ليخوض في تفاصيل قذرة. قدمت فقط صورة خيبة الأمل... شاب أحمق يدرك أنه كان شاباً أحمق.

تركته يفترض بأنه حدث شجار بيننا في نهاية الأمر، فإذا فهم برادلي الأمر على أن زوجتي قد هربت مع رجل آخر أو أنه كان يوجد رجل آخر في حياتها منذ البداية... فإنه أمر جيد.

قلت متضايقاً: لكنك تعلم بأنه على الرغم من أنها... من أنها لم تكن كما كنت أظنها، إلاّ أنها كانت فتاة لطيفة. ما كنت

لأحسب أبداً أنها ستكون هكذا... أقصد أن تتصرف هذا التصرف.

– ما الذي فعلته لك بالضبط؟

أوضحت له أن ما فعلته زوجتي لي هو عودتها.

سأل: ماذا تظنه حدث لها؟

– أظن أن الأمر غريب جداً... ولكني لم أفكر فيه. الواقع أنني كنت أظنها أنها قد توفيت.

هز برادلي رأسه وقال: إنه تفكير تحدوه الأمنيات... نعم، تحدوه الأمنيات. ولماذا عساها تموت؟

– إنها لم تكتب لي أية رسالة ولم أسمع منها أي شيء أبداً.

– الحقيقة هي أنك أردت نسيان كل ما يتعلق بها.

كان هذا المحامي ذو العينين الخرزيتين أشبه بطبيب نفسي في أسلوبه هذا.

قلت بامتنان: نعم، ما كان يخطر لي أنني سأرغب بالزواج بواحدة أخرى.

– لكنك تريد الزواج، أليس كذلك؟

أظهرت التردد وقلت: حسناً...

قال برادلي البغيض: هيا، أخبرني.

اعترفت له والخزيُ بادٍ على وجهي بأنني فكرت في الزواج في الفترة الأخيرة، ولكني أصررت على رفض إعطائه أية معلومات عن الفتاة التي أريد الزواج بها. لم أُرِد توريطها في هذا العمل، ولم أكن أعتزم إخباره عنها بأي شيء.

أظن مرة أخرى أن رد فعلي هنا كان صحيحاً أيضاً. لم يلح عليّ، وبدلاً من ذلك قال: أمر طبيعي يا سيدي العزيز. لقد تغلبت على تجربتك المريرة في الماضي، ولا شك أنك وجدت واحدة تناسبك تماماً، قادرة على مشاركتك في ميولك الأدبية وأسلوب حياتك... رفيقة درب حقيقية.

عرفت عندها أنه كان يعلم بأمر هيرميا. كان ذلك سهلاً. إن أية تحقيقات عني يقوم بها سوف تكشف حقيقة وجود فتاة واحدة مقربة مني، فمنذ أن استلم برادلي رسالة مني لعمل موعد للقاء معه، لا شك أنه بحث وتحقق. لقد حصل على معلومات كاملة. سألني: وماذا عن الطلاق؟ أليس هذا هو الحل الطبيعي؟

– لا مجال للطلاق. إنها... زوجتي، ترفض مجرد ذكره!

– مسكين! مسكين! هل لي أن أسألك عن موقفها تجاهك؟

– إنها.. إنها تريد العودة لي. إنها.. إنها غير معقولة أبداً. تعرف بوجود واحدة غيرها في حياتي و... و...

– تتصرف على سبيل النكاية. فهمت... لا يبدو أن للأمر مخرجاً إلاّ إذا... ولكنها صغيرة في العمر.

قلت بمرارة: سوف تعيش سنوات طويلة.

– آه، لا أحد يعلم يا سيد إيستربروك. هل قلت بأنها كانت تعيش خارج البلاد؟

– هذا ما قالته لي، ولا أعرف أين كانت.

– ربما كانت في الشرق. أحياناً يصاب الإنسان بجرثومة هناك... يحملها في جسمه لسنوات، ثم يعود إلى وطنه، وفجأة تنفجر. لقد عرفت حالتين أو ثلاثاً من أمثال هذه الحالات، وقد يحدث هذا في هذه الحالة. إذا كان ذلك يسعدك فإنني أراهنك على هذا بمبلغ بسيط.

هززت رأسي وقلت: ستعيش لسنوات طويلة.

– أعترف لك بأن الاحتمالات تميل إلى جانبك... ولكن لنضع عليها رهاناً: ألف وخمسمئة مقابل واحد على أن السيدة ستموت خلال ستة أشهر، ما رأيك؟

– أقرب! يجب أن يتم ذلك قبل هذا الموعد. لا أستطيع الانتظار. لديّ أشياء...

أظهرت له الاضطراب عامداً. لا أدري إن كان قد حسب بأن الأمور بيني وبين هيرميا قد ذهبت إلى حد بعيد ولذلك لا

أستطيع الانتظار كل هذا الوقت، أو أن «زوجتي» قد هددت بأن تذهب إلى هيرميا وتسبب لها المشكلات. بل وربما حسب أن رجلاً آخر يحاول التغرير بهيرميا وكسب قلبها... لم يهمني ما كان يعتقده، وإنما أردت التشديد على مسألة العجلة.

قال: نغير الاحتمالات قليلاً. سنقول ألف وثمانمئة مقابل واحد على أن زوجتك ستموت خلال شهر... إنني أشعر بهذا!

رأيت أنه وقت مساومة... فبدأت أساومه. تذرعت بأنني لا أملك هذا المبلغ من المال. كان برادلي ماهراً، وكان يعرف ما هو المبلغ الذي أستطيع جمعه عند الضرورة. كان يعرف أن هيرميا كانت تملك الأموال، وكانت تلميحته الخفيفة إلى أنني عندما أتزوج بعد ذلك فلن أشعر بخسارة أموالي، دليلاً على ذلك. كما أن إلحاحي وضعه في موقف لصالحه، ولذلك لم يكن ليتنازل عن المبلغ المطلوب.

عندما تركته كنا قد اتفقنا على الرهان الغريب.

وقعت على نموذج معين، وكان مليئاً بالعبارات القانونية التي لم أفهمها، والواقع أنني شككت كثيراً في وجود أية دلالة قانونية لها. سألته: هل هذا العقد ملزم من الناحية القانونية؟

رد مبتسماً ابتسامة خبيثة وقال: لا أظن أننا سنضطر لتجربته. الرهان رهان. إذا لم يدفع الشخص ما عليه...

نظرت إليه، ولكنه قال بهدوء: لا أنصح بذلك. كلا، لا

أنصح بذلك. إننا لا نحب من يتهرب من دفع الرهان.

– لن أتهرب.

– أنا واثق من أنك لن تفعل يا سيد إيستربروك. والآن، بالنسبة للترتيبات. قلت لي إن السيدة إيستربروك موجودة في لندن. أين بالضبط؟

– هل يجب أن تعرف؟

– يجب أن تكون عندي معلومات كاملة... العمل التالي الذي سنعمله هو تحديد موعد مع الآنسة غري... هل تتذكر الآنسة غري؟

قلت له بأنني أتذكرها بالطبع.

– امرأة مدهشة. امرأة مدهشة حقاً، وموهوبة جداً. سوف تطلب منك شيئاً لبسته زوجتك، مثل قفازات أو منديل، أو أي شيء كهذا...

– ولماذا؟ ما الذي...

– أعرف، أعرف. لا تسألني أنا. لا أعرف شيئاً؛ فالآنسة غري تحتفظ بأسرارها لنفسها.

– ولكن ماذا يحدث؟ ما الذي تفعله؟

– يجب أن تصدقني يا سيد إيستربروك عندما أقول لك

-بصدق- بأنني لا أعرف شيئاً! لا أعرف... كما أنني لا أريد أن أعرف... ولنترك الأمر عند هذا الحد.

سكت قليلاً ثم أكمل بنبرة ودودة: نصيحتي لك هي كالتالي يا سيد إيستربروك: قم بزيارة زوجتك. هدئها، ودعها تعتقد بأنك وافقت على فكرة الصلح. وأقترح عليك أن تقول لها إن عليك أن تسافر إلى الخارج لبضعة أسابيع وإنك عند عودتك، إلخ... إلخ...

– وبعد ذلك؟

– بعد أن تأخذ من عندها قطعة من شيء ممّا تلبسه (دون أن تدري) تذهب إلى متش دينغ... ولعلي أذكر أنك ذكرت -في زيارتك الماضية- بأن لديك بعض الأصدقاء أو الأقارب في تلك المنطقة؟

– ابنة عم.

– هذا يجعل الأمر بسيطاً. لا شك أن ابنة عمك هذه ستستضيفك في بيتها ليوم أو يومين.

– ما الذي يفعله الناس في الغالب؟ هل يقيمون في الفندق المحلي؟

– أحياناً... أو أنهم يأتون بالسيارات من بورنماوث. لكنني لا أعرف عن هذه المسألة إلاّ القليل.

– وماذا ستعتقد ابنة عمي؟

– أخبرها بأنك شديد الاهتمام بأمر السيدات المقيمات في «الحصان الأشهب» وأنك تريد أن تحضر جلسة تحضير أرواح هناك. لا شيء يمكن أن يكون أبسط من هذا؛ فالآنسة غري وصديقتها وسيطة الأرواح تعملان جلسات تحضير أرواح كثيراً. ستقول بأن هذه الجلسات هراء لا يمكن تصديقه ولكنها تثير اهتمامك. هذا كل ما في الأمر يا سيد إيستربروك. كما ترى، لا شيء يمكن أن يكون أبسط من ذلك...

– و... وماذا بعد ذلك؟

هز رأسه مبتسماً وقال: هذا كل ما أستطيع قوله لك. والواقع أنه كل ما أعرفه. سوف تتولى الآنسة تيريزا غري المسؤولية بعد ذلك. لا تنس أن تأخذ معك القفازات أو المنديل أو غيره. بعد ذلك أقترحُ عليك أن تسافر في رحلة قصيرة إلى الخارج. الريفيرا الإيطالية مكان جميل جداً في هذا الوقت من العام... لمدة أسبوع أو أسبوعين فقط.

قلت له إنني لا أريد السفر إلى الخارج وأنني أريد البقاء في إنكلترا.

– لا بأس إذن، ولكن ليس في لندن بالتحديد. أنصحك بأن لا تبقى في لندن.

– ولم لا؟

نظر السيد برادلي إليّ نظرات توبيخية وقال: نحن نضمن للزبائن السلامة التامة... إن هم أطاعوا الأوامر.

– وماذا عن بورنماوث؟ هل تنفع بورنماوث؟

– نعم، ستكون بورنماوث مناسبة. ابق في فندق وتعرف على أناس هناك وليشاهدك الناس وأنت بصحبتهم. إن ما نسعى إليه هو الحياة الطاهرة البريئة.

كان يتكلم بلطفٍ ودماثة وكيل السفريات. ومرة أخرى اضطررت لمصافحة يده المنتفخة.

* * *

الفصل السابع عشر

سألتني رودا: أحقاً ستذهب إلى جلسة تحضير أرواح عند تيريزا؟

– ولم لا؟

– لم أكن أعلم أنك مهتم بهذا الشيء يا مارك؟

قلت بصدق: لست مهتماً حقيقة، لكن هؤلاء النسوة الثلاث يشكلن تركيبة غريبة. إنني أشعر بالفضول لرؤية نوعية ما يقدمنه من عروض.

لم أجد من السهل التظاهر بأخذ الأمر مأخذ الاستخفاف. رأيت هيو ديسبارد بطرف عيني يحدق فيّ بنظرات متأملة، كان رجلاً ذكياً ذا ماض مليء بالمغامرات. إنه واحد من هؤلاء الذين يملكون حاسة سادسة يدركون بها وجود الخطر، وأظنه اشتم رائحة الخطر الآن... مدركاً وجود شيء أكثر أهمية في هـذا

الأمر من مجرد الفضول.

قالت رودا بمرح: إذن سآتي معك، فلقد أردت الذهاب إلى هناك دائماً.

قال ديسبارد مزمجراً: لن تذهبي إلى هناك يا رودا!

– لكني لا أؤمن حقيقة بهذه الأمور يا هيو، وأنت تعرف ذلك. إنما أردت الذهاب لمجرد التسلية!

قال ديسبارد: ما من تسلية في مثل ذلك الأمر؛ فقد يكون فيه شيء من الحقيقة. هذا محتمل!

– إذن عليك أن تنصح مارك أيضاً.

– مارك ليس من مسؤوليتي.

ولكنه رمقني بطرف عينه مرة أخرى. كنت واثقاً أنه يعرف أن لديّ هدفاً معيناً.

تضايقت رودا. لكنها سرعان ما تغلبت على حالتها، وعندما صدف أن التقينا بتيريزا غري في القرية في صباح ذلك اليوم كانت تيريزا نفسها جافة في أسلوبها. قالت: مرحباً يا سيد إيستربروك، إننا نتوقع حضورك هذا المساء. أرجو أن تتمكن من القيام بعرض جيد لأجلك. إن سايبل وسيطة أرواح رائعة، ولكننا لا نعرف مسبقاً ما هي النتائج التي سنحصل عليها، ولذلك يجب ألاّ يخيب أملك. شيء واحد أطلبه منك: ليكن ذهنك

متفتحاً. إننا نرحب دوماً بالمُستعلم الصادق... ولكن العبث والسخرية أمران سيئان.

قالت رودا: كنت أريد القدوم معه، لكن هيو متحامل جداً. أنت تعرفين طبيعته.

قال تيريزا: على أية حال لم أكن لأسمح لك بالحضور. زائر خارجي واحد يكفي.

ثم التفتت إليّ وقالت: لماذا لا تأتي لتناول وجبة خفيفة معنا في البداية؟ إننا لا نأكل طعاماً ثقيلاً قبل جلسات تحضير الأرواح. الساعة السابعة تقريباً؟ جيد، سنكون في انتظارك.

أومأت برأسها وابتسمت ثم ذهبت مسرعة. حملقتُ فيها، منهمكاً جداً في ظنوني حتى أنني لم أنتبه لما كانت رودا تقوله لي. قلت فجأة: ماذا كنت تقولين؟ إنني آسف.

– تبدو غريب الأطوار في الفترة الأخيرة يا مارك، منذ أن وصلت إلى هنا. هل يضايقك شيء؟

– كلا، كلا بالطبع. وماذا يمكن أن يكون؟

– مثلاً: هل وصلت إلى طريق مسدود في كتابك؟

– كتابي؟

لم أتذكر أي شيء عن الكتاب منذ بعض الوقت، ولكنني أسرعت إلى القول: آه، نعم، الكتاب. إنه يسير بطريقة طبيعية.

قالت رودا بأسلوب الاتهام: أظن أنك تحب... نعم، هذا هو! للحب تأثير سيء جداً على الرجال؛ فهو يشوش ملكاتهم العقلية. أما النساء فإنهن عكس ذلك تماماً... تراهن عندها في أحسن أحوالهن متألقات أكثر من المعتاد. أليس غريباً أن يكون ذلك هو حال النساء بينما يبدو الرجال كالأغنام المريضة؟

– شكراً لك!

– آه، لا تغضب مني يا مارك. أظن أنه شيء جيد... كما أنني مسرورة. إنها لطيفة جداً في الحقيقة.

– من هي اللطيفة؟

– هيرميا ريدكليف بالطبع. يبدو أنك تعتقد أنني لا أعرف شيئاً. توقعت حدوث ذلك منذ مدة طويلة. إنها -فعلاً- المرأة التي تناسبك... جميلة وذكية، مناسبة تماماً.

– إن هذا أخبث ما يمكن أن يقال عن امرئ ما.

نظرت رودا إلي وقالت: ربما.

* * *

كان الاستقبال الذي لقيته في «الحصان الأشهب» تقليدياً إلى أبعد حد. لا أعرف ما هو الجو والتأثير الذي كنت أتوقعه... ولكنه كان غير هذا.

فتحت تيريزا غري الباب وهي ترتدي فستاناً من الصوف

وقالت بنبرة عملية: آه، ها قد وصلت. جيد، سنتناول العشاء على الفور.

لم يكن من شأن أي تصرف أن يكون أكثر واقعية وطبيعية من تصرفها هذا. وضعت المائدة وعليها وجبة بسيطة في نهاية الصالة المزينة بالألواح الخشبية. تناولنا الشُّربة والعجة والجبنة، وكانت بيلا تخدمنا وهي ترتدي ثياباً سوداء، أما سايبل فكانت ترتدي ثياباً أكثر غرابة، إذ ارتدت ثوباً طويلاً منسوجاً بألوان ريش الطاووس موشحاً بالذهب. لم تكن تلبس الخرز هذه المرة، ولكنها لبست سلسلتين ثقيلتين من الذهب في معصميها، وقد تناولت قطعة صغيرة جداً من العجة ولا شيء غيرها. أما تيريزا فكانت تمثل -في هذه الليلة- المرأة الريفية الإنكليزية العانس في أحسن صورها، مرحة وقديرة وغير مهتمة بأي شيء سوى ما يحيط بها مباشرة.

أحسست -في قرارة نفسي- بأنني مجنون، مجنون تماماً. ماذا يوجد هنا لأخاف منه؟ حتى بيلا بدت هذه الليلة مجرد فلاحة عجوز بلهاء كمئات من أمثالها من النساء. عندها بدت مضحكة تماماً فكرتي بأن غينغر، غينغر بشعرها المصبوغ واسمها المستعار... يمكن أن تواجه خطراً من أي شيء يمكن لهؤلاء النسوة الثلاث أن يفعلنه!

انتهى العشاء وقالت تيريزا معتذرة: "لن نشرب القهوة. لا نريد الإفراط في المنبهات". ثم نهضت وقالت: سايبل؟

قالت سايبل وقد اكتسب وجهها ما كانت تظنه تعبيراً مناسباً للموقف: نعم، سأذهب لأستعد...

بدأت بيلا في تنظيف المائدة، وذهبتُ إلى حيث كانت لوحة النزل القديم معلقة. تبعتني تيريزا وقالت: لن تستطيع رؤيتها بوضوح تحت هذا الضوء الخافت.

كان ذلك صحيحاً. لم يكن من السهل تمييز رسم الحصان في ذلك الظلام، إضافة إلى أن الصورة نفسها كانت شاحبة وباهتة. كانت الصالة مضاءة بمصابيح كهربائية ضعيفة القوة تحجب ضوءها واقيات من الورق السميك.

قالت تيريزا: "تلك الفتاة ذات الشعر الأحمر التي كانت تقيم هنا... ما اسمها؟ غينغر. قالت بأنها تستطيع تنظيف هذه اللوحة وترميمها. لا أظن أنها ستتذكر وعدها". ثم أضافت تقول: إنها تعمل في بعض الصالات الفنية في لندن.

أحسستُ إحساساً غريباً لسماع إشارة عابرة عرضية عن غينغر. قلت وأنا أحملق في الصورة: قد تكون مثيرة.

– إنها ليست لوحة جيدة بالطبع. مجرد لوحة غير متقنة. ولكنها تناسب المكان، وعمرها بالتأكيد أكثر من ثلاثمئة عام.

فجأة خرجت بيلا من الظلمة وهي تهز رأسها قائلة: جاهزة.

قالت تيريزا بنبرة واقعية سريعة: حان الوقت لنباشر العمل.

تبعتها وهي تتقدمني إلى الخارج حيث الغرفة التي كانت تُستخدم إسطبلاً فيما مضى، ولم يكن بينها وبين المنزل باب مباشر. كانت ليلة شديدة الظلمة والسماء ملبدة بالغيوم لا نجوم فيها. ودخلنا من الظلمة شديدة السواد إلى غرفة طويلة مضاءة.

كانت الغرفة في الليل غير ما بدت عليه في النهار. ففي النهار بدت مكتبة تسر الناظرين، أما الآن فقد أصبحت شيئاً أكثر من ذلك. كانت فيها مصابيح ولكنها لم تكن مضاءة. كانت الإضاءة غير مباشرة وغطت الغرفة بضوء هادئ خفيف، وفي وسط الغرفة كان شيء أشبه بالأريكة المرتفعة المغطاة بقماش أرجواني اللون مزين بعلامات ورموز قديمة. وفي الجانب البعيد من الغرفة كان ما ظهر أنه كانون صغير للجمر وإلى جانبه حوض نحاسي قديم. وعلى الجانب الآخر قريباً من الحائط كرسي ضخم ذو مسند من خشب الزان. أشارت تيريزا إليّ بالجلوس عليه، وقالت: اجلس هناك.

جلست طائعاً، وما لبث أن تغير أسلوب تيريزا. والغريب في الأمر أنني لم أستطع تحديد طبيعة هذا التغير. لم يكن فيه شيء من شعوذة سايبل الزائفة. كان الأمر أقرب إلى رفع ستارة تمثل الحياة العادية المشغولة بالصغائر... ووراء تلك الستارة كانت المرأة الحقيقية تعرض شيئاً أقرب إلى أسلوب الجرّاح حين يقترب من طاولة العمليات للقيام بعملية صعبة وخطيرة. وقد ازداد هذا الانطباع عندما سحبَتْ قفازين طويلين بدا أنهما مصنوعان من شبك دقيق. قالت: يجب أن نأخذ احتياطاتنا.

بدت لي العبارة منذرة بشيء من الشر.

ثم خاطبتني بصوت جهوري حازم: يجب أن أؤكد عليك -يا سيد إيستربروك- بضرورة أن تبقى ساكناً تماماً حيث أنت. يجب ألا تتحرك من ذلك الكرسي بأية حال، فتحركك قد يعرض سلامتك للخطر. هذا ليس لعب أطفال!

سكتت قليلاً ثم سألتني: هل أحضرت ما طُلب منك إحضاره؟

ودون أن أنطق بكلمة أخرجت من جيبي قفازاً جلدياً بني اللون وأعطيته لها فأخذته وذهبت إلى حيث يوجد مصباح معدني على شكل عنق الإوزة. أضاءت المصباح ووضعت القفاز تحت أشعته التي كانت ذات لون مقزز غريب جعل لون القفاز يتغير من البني اللامع إلى الرمادي الباهت. ثم أطفأت المصباح وأومأت باستحسان وقالت: مناسب جداً.. الانبعاثات الجسدية من صاحبته قوية جداً!

وضعته فوق شيء كان يبدو صندوق مذياع كبير في نهاية الغرفة، ثم رفعت صوتها قليلاً: بيلا... سايبل... نحن جاهزان.

دخلت سايبل أولاً. كانت ترتدي عباءة سوداء طويلة فوق فستانها المزركش بألوان الطاووس. ألقت بعباءتها هذه جانباً بحركة مسرحية، فانزلق الرداء على الأرض ليبدو كبركة حبر. تقدمت وقالت: أرجو أن يكون الأمر على ما يرام... لا أحد

يدري. أرجو ألا تتبنى موقف المتشكك يا سيد إيستربروك؛ فهذا يعيق الأمور كثيراً.

قالت تيريزا: السيد إيستربروك لم يأت إلى هنا للسخرية.

كان في نبرتها شيء من القسوة، واتجهت إلى الأريكة الأرجوانية وجلست فوقها. وأطفأت تيريزا الأضواء، ثم دفعت شيئاً بدا وكأنه مظلة متحركة على عجلات وضعَتْها بحيث ظلّلت الأريكة وتركت سايبل في جو معتم محفوف بأضواء خافتة. قالت: الضوء الكثير لا يفيد. والآن، أظن أننا جاهزون. بيلا؟

جاءت بيلا من خلال الظلال. اقتربت المرأتان مني... أمسكت يد تيريزا اليمنى بذراعي اليسرى، وأمسكت يدها اليسرى بيد بيلا اليمنى، ووضعت بيلا يدها اليسرى على يدي اليمنى. كانت يد تيريزا جافة وقاسية بينما يد بيلا باردة رخوة، وشعرت كأن يدها حشرة رخوة على يدي فارتعدتُ تقززاً.

لا بد أن تيريزا قد لمست مفتاحاً في مكان ما حيث بدت أصوات موسيقى تصدر بصوت خفيف من السقف. عرفت أنها موسيقى ميندلسن الجنائزية. قلت في نفسي بشيء من الاحتقار: بدأ المشهد... زخارف كاذبة!

كان عقلي بارداً شكاكاً، ولكنني كنت أدرك -مع ذلك- وجود شعور داخلي بالخشية. توقفت الموسيقى. انتظرنا طويلاً، ولم نكن لنسمع غير أصوات الأنفاس. كانت أنفاس بيلا كالطنين

الخفيف بينما كانت أنفاس سايبل عميقة ومنتظمة. ثم ذهبت تيريزا صوب الأريكة وأبعدت المظلة التي تظللها. انساب الضوء الخافت على وجه سايبل فبدت نائمة في سبات عميق. تراجعت تيريزا خطوة، ثم أحضرت بيلا زجاجة خضراء صغيرة صبت منها تيريزا قطرة أو قطرتين على جبين سايبل. وأخيراً أحضرت تلك القرعة المرعبة التي سبق ورأيناها في زيارتنا الأولى. هزتها ثلاث مرات ثم دسّتها في يد سايبل التي أطبقت عليها.

تراجعت إلى الوراء وقالت: كل شيء جاهز.

كررت بيلا الكلمات: "كل شيء جاهز"، ثم مدت يديها إلى الكانون فخرجت منه شعلة خاطفة. رشت شيئاً على اللهب فامتلأ الجو برائحة عطر مركز. وقالت تيريزا: نحن جاهزون.

وأحسست أن الجراح يتناول مبضعه...

ذهبَتْ إلى ما ظننتُه صندوق مذياع، وعندما انفتح رأيته آلةً كهربائية ضخمة ومعقدة تحركت كأنها عربة حين دفعتها تيريزا ببطء وحذر إلى مكان قرب الأريكة. مالت عليها وعدلت أزرار التحكم بها وهي تتمتم مع نفسها: شمال... شرق... أربع درجات... هذا صحيح تقريباً.

أخذت القفاز وعدلته في وضع معين وأضاءت ضوءاً بنفسجياً صغيراً بجانبه. ثم تكلمت مع الجسد الجامد على الأريكة: سايبل ديانا هيلين، أنت حرة الآن لتتجسدي في صاحبة هذا

القفاز. مثلها مثل جميع البشر هدفها في الحياة نحو الموت. لا رضا لها إلاّ بالموت. الموت وحده يحل جميع المشكلات... الموت وحده هو الذي يعطي الراحة الحقيقة.

رنت الكلمات عالياً محدثة صدى يتكرر... وبدأت الآلة الشبيهة بصندوق كبير بإخراج أصوات كأنها همهمة خافتة وقد توهجت مصابيحها... وشعرتُ بالانبهار وفقدان السيطرة. ماذا عن الصندوق؟ ما دوره؟ وفجأة انتقلت إلى الصندوق مخاوفي كلها! أي سر شيطاني يُمارس بواسطته؟ هل يمكن أن تصدر عنه إشعاعات مادية تؤثر على خلايا الدماغ؟ على دماغ معين؟

مضى صوت تيريزا قائلاً: نقطة الضعف... توجد دائماً نقطة ضعف... في أعماق أنسجة الجسد... من خلال الضعف تأتي القوة... قوة وراحة الموت... إلى الموت...

ارتفع صوتها بصياح عال طنان، ثم جاءت صرخة مرعبة من بيلا. صارت تركض حول الوعاء مرات ومرات ثم سقطت على الأرض وهي تنتفض، وارتعشت ألسنة اللهب في الكانون ثم انطفأت.

وشعرت بغثيان رهيب. أمسكتُ دون أن أشعر بذراع الكرسي الذي كنت أجلس عليه وبدا رأسي وكأنه يدور في الفضاء...

* * *

الفصل الثامن عشر

سألتني رودا بلهفة ونحن على طاولة الإفطار: حسناً، كيف كانت الجلسة؟

قلت دون اهتمام: آه، الخزعبلات المعتادة.

لم أكن مرتاحاً لنظرات ديسبارد إلي، فقد كان رجلاً حاد الملاحظة. وبدت رودا وقد خاب أملها. قالت بصوت حزين: يبدو أنك وجدت الأمر مملاً.

قلت لها إن هذه الأشياء كلها متشابهة إلى حد بعيد، وعلى أية حال فقد أشبعت فضولي.

بعد ذلك عندما ذهبت رودا إلى المطبخ قال لي ديسبارد: لقد هزتك التجربة قليلاً، أليس كذلك؟

- حسناً، إنني...

كنت حريصاً على ألاّ أظهر الجدية في تعاملي مع هذا الأمر، لكن ديسبارد لم يكن من السهل خداعه. أومأ برأسه وقال: الحق أن المرء لا يؤمن بمثل هذا الشيء. لا يصدقه بعقله الواعي... ولكن لهذه الأشياء تأثيرها. لقد شاهدت الكثير منها في شرق أفريقيا. كان الأطباء المشعوذون يسيطرون سيطرة رهيبة على الناس، ولا بد أن نعترف بأن أشياء غريبة تحدث ولا يمكن تفسيرها تفسيراً عقلياً.

– حالات وفاة؟

– نعم. لو علم شخص أنه وُضع على قائمة الموت فإنه يموت.

– أحسب ذلك من قوة الإيحاء.

– محتمل.

– ولكن هذا لا يقنعك تماماً؟

– لا، ليس تماماً. توجد حالات يصعب تفسيرها بموجب أي من نظرياتنا العلمية. هذا العمل لا ينجح على المثقفين في العادة... (رغم أنني عرفت حالات نجح فيها)، ولكن إن كان الاعتقاد به يسري في دمك... فسوف يتحقق!

ثم نظر إلي بفضول وقال: لماذا كنتَ شديد الحرص على حضور جلسة تحضير الأرواح الليلة الماضية؟

رفعت كتفي بلامبالاة وقلت: هؤلاء النسوة الثلاث أثرن

اهتمامي، ولذلك أردت رؤية العرض الذي يقمن به.

لم يقل ديسبارد شيئاً آخر، ولا أظنه صدقني. وكما قلت من قبل، فقد كان رجلاً ذكياً.

* * *

ذهبت إلى الغرفة الصغيرة حيث يوجد الهاتف وأغلقت الباب واتصلت بغينغر. شعرت أن دهراً قد مر قبل أن ترفع السماعة وأسمع صوتها: مرحباً!

– غينغر!

– آه، هذا أنت. ما الذي حدث؟

– هل أنت على ما يرام؟

– أنا على ما يرام بالطبع. ولماذا لا أكون؟

اجتاحتني موجة ارتياح. لم يحدث لغينغر شيء، وقد أراحني كثيراً ذلك التحدي المألوف في سلوكها. كيف سمحت لنفسي أن أصدق أن هذا الهراء يمكنه إيذاء مخلوقة طبيعية مثل غينغر؟

قلت بشيء من التبرير: حسبت أنك ربما رأيت أحلاماً سيئة أو شيئاً كهذا.

– لا، لم أحلم. كنت أتوقع رؤية أحلام، ولكن كل ما حدث أنني بقيت مستيقظة أسأل نفسي إن كنت أشعر بشيء

غريب أم لا. والحق أنني كدت أشعر بالسخط لأنه لم يحدث لي شيء...

ضحكتُ، وقالت غينغر: ولكن هيا... أخبرني. كيف كان الأمر؟

– لا شيء غير عادي. استلقت سايبل على أريكة أرجوانية اللون وراحت في غشية.

ضحكت غينغر ضحكة قوية وقالت: أحقاً؟ كم هو رائع! حسناً، وماذا فعلن بقفازي؟

رويت لها ما دار هناك بالتفصيل ثم قلت: كان من شأن هذا الأمر أن يؤثر كثيراً على بعض الناس ويرعبهم تماماً.

سألتني بلهفة: لكنه لم يرعبك؟

قلت: أنا لا أتأثر بمثل هذه الأمور.

– إذن لماذا بدوت مسروراً جداً عندما علمت أنني بخير؟

قلت: "لأنني..."، ثم سكت.

قالت غينغر بلطف: حسناً، لا حاجة بك لأن تجيب عن هذا السؤال، كما أنه لا حاجة بك لأن تبذل كل هذه الجهود للتقليل من تأثرك بهذا الأمر. لقد أثر فيك شيءٌ ما فيه!

– أظن أن ذلك فقط لأنهن... أقصد تيريزا... كانت تبدو هادئة واثقة جداً من النتيجة.

قالت غينغر بصوت مشكك: واثقة من أن ما أخبرتَني به قبل قليل يمكن أن يقتل إنساناً؟

وافقتها قائلاً: إنه عمل سخيف بالفعل.

قالت غينغر: هل أنت بخير الآن.

– ماذا تقصدين؟

– لم تكن بخير عندما اتصلتَ بي، لكنك الآن بخير.

كانت مصيبة تماماً في افتراضها؛ فصوتها الطبيعي المبتهج كان له تأثير رائع عليّ. ومع ذلك كنت معجباً في قرارة نفسي بتيريزا غري. فرغم أن الأمر كله قد يكون هراء، إلاّ أنه زرع في عقلي الشكوك والمخاوف. ولكن لا شيء بات يهمني الآن؛ فغينغر بخير... إنها لم تصب بشيء، ولا حتى بحلم مزعج.

– وماذا سنفعل بعد هذا؟ هل سأبقى في مكاني أسبوعاً آخر؟

– إذا كنت أريد الحصول على مئة جنيه من السيد برادلي، نعم.

– هذا ما ستفعله مهما كلف الأمر. هل ستبقى مقيماً عند رودا؟

– لبعض الوقت، ثم أنتقل إلى بورنماوث. تذكري أن عليك أن تخابريني كل يوم، أو دعيني أخابرك أنا؛ فهذا أفضل.

– حسناً، إلى اللقاء. ستكون حياتي مملة جداً خلال الأسبوعين القادمين. لقد أحضرت معي الكثير من الكتب التي كنت أعتزم قراءتها ولكن لم يكن لديّ الوقت الكافي لها.

سألتها: ألم يأتك أي أشخاص يثيرون الريبة؟

– الذين نتوقعهم فقط. بائع الحليب، والرجل الذي يقرأ عداد الغاز، وامرأة جاءت تسألني عن أصناف الأدوية ومواد التجميل التي أستخدمها، وشخص جاء يطلب مني توقيع مذكرة دعوة لتحريم استخدام القنابل النووية، وامرأة كانت تريد جمع تبرعات للمكفوفين.

قلت معلقاً: لا يبدو أي ضرر في كل ذلك.

– وماذا كنت تتوقع؟

– لا أدري حقاً.

لعلي كنت أتمنى حدوث شيء واضح أستطيع معالجته، ولكن ضحايا «الحصان الأشهب» ماتوا بإرادتهم الحرة... لا، كلمة «حرة» لم تكن الكلمة المناسبة في هذا المجال، بل لقد نمَتْ بذور الضعف الجسدي الموجودة فيهم بواسطة عملية لم أفهمها.

رفضت غينغر إشارة ضعيفة من جانبي إلى احتمال زيف شخصية ذلك الرجل الذي جاء يقرأ عداد الغاز وقالت: كانت لديه أوراق ثبوتية صحيحة؛ فقد طلبت منه رؤيتها! وأؤكد لك أنه لم يعمل على تسريب الغاز داخل حمامي.

كلا، لم يكن «الحصان الأشهب» يتعامل مع حوادث تسريب الغاز... فطرقه لم تكن ملموسة إلى هذا الحد!

قالت غينغر: آه، لقد زارني شخص آخر.. صديقك الدكتور كوريغن، وهو رجل لطيف.

– أظن أن لوجون أرسله.

– بدا وكأنه يرى أن عليه أن يبحث عن أناس يحملون نفس اسمه. فليحذر آل كوريغن!

وضعتُ السماعة بعد أن ارتحتُ كثيراً. عدت لأجد رودا مشغولة مع أحد كلابها فوق المرجة، وكانت تدهنه بالمرهم.

قالت: لقد ذهب الطبيب البيطري لتوه. قال إنه مرض القوباء الحلقية وهو معدٍ جداً. لا أريد أن يصاب الأطفال به... أو حتى الكلاب الأخرى.

ثم أكملت تقول: هذا الدواء يسبب سقوط الشعر، ولكنه ينمو ثانية.

أومأت لها وعرضتُ مساعدتها لكنها رفضت لحسن حظي، ثم انطلقتُ ثانية.

كنت أرى دائماً أن السيء في الريف هو أنك نادراً ما تجد فيه أكثر من ثلاثة اتجاهات يمكنك أن تسير فيها مشياً على الأقدام. وفي قرية متش ديبنغ يمكنك أن تسير إما على طريق

غارسينغتن أو طريق لونغ كوتنهام أو أن تصعد على طريق شادينغر لين إلى طريق لندن-بورنماوث الرئيس الذي يبعد ميلين. وفي اليوم التالي ساعة الغداء كنت قد جربت طريقي غارسينغتن ولونغ كوتنهام. وكان طريق شادينغر لين هو مشروعي التالي.

انطلقت باتجاهه وفي طريقي خطرت لي فكرة. إن مدخل منزل برايورز كورت من هذا الطريق. لماذا لا أذهب وأزور السيد فينابلز؟

كلما فكرت في تلك الفكرة أكثر كلما راقت لي أكثر. لن تثير زيارتي تلك أية ريبة؛ فعندما كنت أقيم هنا في المرة السابقة أخذتني رودا إلى هناك. سيكون سهلاً وطبيعياً أن أزوره وأطلب منه أن يريني بعض الأشياء التي لم يسعفني الوقت لرؤيتها في المرة الأولى.

إن تعرُّفَ ذلك الصيدلي، أوزبورن، إلى فينابلز كان يثير الاهتمام فعلاً، ولكن من المستحيل لذلك الرجل أن يكون هو فينابلز لأن هذا الأخير مقعد وعاجز. ومع ذلك من الغريب أن يقع خطأ بين رجل يعيش في هذه المنطقة بالذات ورجل تنطبق عليه نفس الأوصاف.

كان في فينابلز شيء غامض، أحسست بذلك من البداية. كنت واثقاً من امتلاكه لقدرات عقلية من الطراز الأول، وكان فيه شيء معين... ما الكلمة التي يمكنني استخدامها؟ تذكرت كلمات: ثعلب ماكر، مفترس... مدمر. رجل ربما كان أذكى

من أن يمارس القتل بنفسه... لكنه يستطيع تنظيم أعمال القتل بطريقة بارعة إن شاء. وحسب الأحداث التي جرت يمكنني أن أجد مكاناً مناسباً لفينابلز في هذا الدور. إنه العقل المسيطر من وراء الكواليس. لكن هذا الصيدلي ادعى أنه رأى فينابلز يسير في أحد شوارع لندن! وحيث أن ذلك مستحيل فإن التعرف عديم الجدوى وحقيقة أن فينابلز يعيش قرب «الحصان الأشهب» لا تعني أي شيء.

ومع ذلك كنت أريد الحديث مع السيد فينابلز مرة أخرى. وهكذا دخلت بوابة برايورز كورت ومشيت في الممشى الداخلي المتعرج مسافة ربع ميل تقريباً. فتح الباب نفس الخادم وقال إن السيد فينابلز موجود في البيت، وبعد أن اعتذر عن ضرورة تركي في الصالة بقوله: "إن السيد فينابلز ليس بصحة تؤهله لرؤية الزوار دائماً"، ذهب وعاد بعد بضع لحظات ليقول لي إنه سيكون مسروراً لمقابلتي. رحب فينابلز بي ترحيباً حاراً وهو يحرك عجلات مقعده وكأنني صديق قديم له.

- إنه لطف عظيم أن تأتي لزيارتي يا عزيزي. سمعت أنك جئت إلى هنا ثانية، وكنت أعتزم الاتصال برودا هذا المساء لدعوتكم إلى هنا للغداء أو للعشاء.

اعتذرت له عن زيارتي المفاجئة بهذه الطريقة قائلاً إنها خطرت لي فجأة حيث كنت في نزهة مشياً على الأقدام ووجدت أنني أمر من أمام بوابته فقررت الدخول دون موعد.

قلت: الواقع أنني أحببت أن ألقي نظرة ثانية على لوحاتك المغولية؛ فلم يكن لديّ وقت كاف لكي أراها كما أريد في المرة الأولى.

– بالطبع لم يتح لك الوقت. أنا سعيد لأنك تقدر لوحاتي هذه؛ ففيها تفاصيل غريبة رائعة.

بعد ذلك كان حديثنا كله فنياً، ولا بد أن أعترف بأنني استمتعت كثيراً بمشاهدة بعض الأشياء الرائعة التي كانت عنده عن قرب.

جاء الخدم بالشاي وألحّ عليّ أن أشرب فنجاناً منه.

لم أكن أحب شرب الشاي لكنني أعجبت بالشاي الصيني الساخن والفناجين الجميلة التي قُدِّم فيها. كما قُدم مع الشاي توست ساخن مدهون بالزبدة وفطيرة خوخ مصنوعة بالطريقة القديمة ذكرتني بأيام طفولتي عندما كنت أزور بيت جدتي.

قلت باستحسان: صناعة منزلية؟

– أمر طبيعي! إننا لا ندخل الكعك التجاري إلى هذا البيت أبداً.

– يبدو أن لديك طاهية ممتازة. ألا تجد صعوبة في الاحتفاظ بطاقم الخدم هنا في الريف؟

رفع فينابلز كتفيه وقال: يجب أن يكون عندي أفضل الخدم. إنني أصر على هذا الشرط، ومن الطبيعي أن أدفع لهم

رواتب مجزية!

ظهر هنا كل الغرور الطبيعي عند هذا الرجل. قلت: إن كان للمرء من الحظ ما يكفي للقيام بذلك، فإن هذا سيحل كثيراً من مشكلاته بالتأكيد.

– الأمر كله يعتمد على ما يريده المرء من هذه الحياة. إذا كانت رغباته قوية... فإن هذا ما يهم. كثير من الناس يجمعون المال دون فهم منهم لما يريدون عمله به! ونتيجة لذلك فإنهم يصبحون أسارى لعملية يمكن تسميتها بآلة جمع المال. إنهم كالعبيد؛ يذهبون إلى مكاتبهم مبكرين ويغادرونها متأخرين، ولا يتوقفون أبداً لكي يستمتعوا. وعلامَ يحصلون من ذلك؟ سيارات كبيرة فارهة... بيوت كبيرة... خادمات بأجور مرتفعة جداً أو زوجات يكلفن غالياً... وأوجاع رأس شديدة!

مال إلى الأمام وقال: مجرد الحصول على المال... هذا هو حقاً هدف معظم الأغنياء. أموال يضيفونها إلى أموالهم ليعيدوا توظيفها في مشاريع أكبر ويجمعوا مزيداً من المال. ولكن لماذا؟ هل يتوقفون ليسألوا أنفسهم لماذا؟ إنهم لا يعرفون!

سألته: وأنت؟

ابتسم وقال: أنا... لقد عرفت ما كنت أريده. راحة مطلقة أتأمل فيها جمال الأشياء في هذا العالم، الأشياء الطبيعية والصناعية. وبما أنني لم أعد أقدر في السنوات الأخيرة على السفر لرؤية

تلك الأشياء في بيئتها الطبيعية فقد أحضرتُها من شتى أنحاء العالم.

– ولكن يجب الحصول على المال لتستطيع عمل ما تريد.

– نعم، يجب أن يخطط المرء ضرباته الموفقة... وهذا يحتاج إلى كثير من التخطيط، ولكن لا حاجة هذه الأيام للعمل في مهنة قذرة صعبة.

– لا أظن أنني فهمتك.

– إنه عالم متغير يا إيستربروك، وقد كان دوماً متغيراً... ولكن التغيرات الآن تأتي سريعة. لقد تسارع الإيقاع... وعلى المرء الاستفادة من ذلك.

قلت متأملاً: عالم متغير؟

– إنه يفتح آفاقاً جديدة.

قلت معتذراً: أخشى أنك تتحدث مع رجل تنصبّ اهتماماته في الاتجاه المعاكس... ينظر إلى الماضي وليس المستقبل.

رفع فينابلز كتفيه وقال: المستقبل؟ من يستطيع أن يتنبأ به؟ أنا أتحدث عن اليوم... الآن... هذه اللحظة! لا أحسب حساب شيء آخر. التقنيات الجديدة موجودة لاستخدامها. لدينا آلات تزودنا بإجابات عن أسئلة في لحظات وثوان... مقارنة بساعات وأيام من الجهد البشري.

– الكمبيوتر؟ العقل الإلكتروني؟

– أشياء كهذا.

– هل ستحل الآلات محل الناس في نهاية الأمر؟

– محل الناس نعم، الناس الذين لا يشكلون إلاّ عناصر في القوة العاملة... أما الإنسان فلا، لن تحل محله. لا بد من وجود الإنسان المسيطر، الإنسان المفكر، الذي يخترع الأسئلة التي توجه للآلات.

هززت رأسي بارتياب، وقلت متعمداً وضع قدر ضئيل من التهكم بنبرتي: الإنسان السوبرمان؟

– ولم لا يا إيستربروك؟ لم لا؟ تذكر أننا نعرف... أو بدأنا نعرف... بعض الأشياء العميقة عن الإنسان. إن ممارسة ما نطلق عليه –خطأً– اسم غسيل الدماغ قد فتحت المجال لاحتمالات مثيرة جداً في ذلك الاتجاه. ليس الجسد وحده الذي يستجيب لحوافز معينة، وإنما العقل أيضاً.

قلت: هذا معتقدٌ خطير.

رفع فينابلز كتفيه دون مبالاة وقال: الحياة كلها خطر. إننا ننسى هذا، نحن الذين نشأنا في أحد الجيوب الصغيرة للحضارة. فهذه هي حقاً حقيقة الحضارة يا إيستربروك. جيوب صغيرة من الناس هنا وهناك تجمعوا مع بعضهم طلباً للحماية المشتركة وأصبحوا بذلك قادرين على التحايل على الطبيعة والسيطرة عليها. لقد هزموا الغابة... ولكن ذلك النصر مؤقت، ففي أية لحظة

ستعود الغابة للسيطرة مرة أخرى! إن المدن التي كانت عامرة هي الآن مجرد أكوام ترابية نمت عليها الخضرة الوافرة الغزيرة، ولم تبق إلاّ أكواخ بائسة لأناس تمكنوا بالكاد من البقاء على قيد الحياة لا أكثر. الحياة خطيرة دائماً... لا تنسَ هذا أبداً. وفي النهاية لا تدمرها القوى الطبيعية العظيمة فحسب، بل قد يدمرها ما عملناه بأيدينا... إننا قريبون من ذلك الحدث في هذه اللحظة!

– لا أحد يمكنه إنكار ذلك بالتأكيد. لكني مهتم بنظريتك عن السيطرة... السيطرة على العقل.

بدا فينابلز مرتبكاً فجأة وقال: آه، هذا... ربما كنتُ أبالغ.

وجدت أن ارتباكه وتراجعه الجزئي عن زعمه السابق مثير للاهتمام. كان فينابلز رجلاً عاش طويلاً وحده، والرجل الوحيد تتطور لديه حاجة للحديث مع شخص آخر... أي شخص. لقد تحدث فينابلز معي... وربما لم يكن حصيفاً في حديثه.

قلت: الإنسان السوبرمان... أو الخارق المتفوق؟ لقد روّجتَ معي تقريباً لنسخة حديثة من تلك الفكرة.

– ما من جديد فيها بالتأكيد. إن معادلة الإنسان المتفوق ترجع إلى الماضي البعيد، ولقد بُنيت عليها فلسفات بأكملها.

– بالطبع. ولكن يبدو لي أن نموذجك الخارق هذا مختلف؛ رجل يمارس السلطة دون أن يكون معروفاً بممارسة السلطة؛

رجل يجلس على كرسيه ويحرك الخيوط.

كنت أنظر إليه وأنا أتكلم. ابتسم وقال: هل ترشحني لهذا الدور يا إيستربروك؟ أتمنى لو كان الأمر كذلك حقاً؛ فالمرء بحاجة إلى ما يعوضه عن... هذا!

ضرب بيده على البطانية التي تغطي ساقيه، وأحسست بالمرارة المفاجئة في صوته.

قلت: لن أعرض عليك تعاطفي؛ فالتعاطف لا يكاد ينفع مع رجل في موقعك، ولكن دعني أقُل إننا إذا كنا نتخيل وجود مثل هذه الشخصية... شخصية رجل يستطيع تحويل كارثة غير متوقعة إلى نصر، فإنك -برأيي- ستكون بالضبط مثالاً لذلك الرجل.

ضحك بعفوية وقال: هذا إطراء مبالغ فيه.

ولكنه كان مسروراً، وقد لاحظت عليه ذلك. قلت: كلا. لقد عرفت من الناس في حياتي ما يجعلني أستطيع تمييز الرجل غير العادي ذي المواهب العليا عندما أراه.

قال متأملاً: لا أدري ما الذي يجعلك تقول كل هذا؟

قلت: أنت ثري يعرف كيف يشتري بحكمة، رجل له ذوق رفيع وحسن تقدير. لكني أشعر أن في هذا أكثر من مجرد حب التملك. لقد اشتريت أشياء جميلة ومثيرة... وقد ألمحت في الواقع بأنك لم تحصل عليها من خلال الكد والتعب.

– صحيح يا إيستربروك، صحيح. كما قلت لك، الحمقى وحدهم هم الذين يكدحون. يجب أن يفكر المرء ويخطط للحملة بكل تفاصيلها. إن سر كل النجاحات بسيط جداً... ولكن يجب التفكير به! شيء بسيط، ولكن عندما يفكر فيه الإنسان ثم ينفذه... فإنه يحصل على ما يريد!

حدقت فيه. شيء بسيط.. بسيط كالتخلص من الأشخاص غير المرغوب فيهم؟ تلبية حاجة. عمل يتم تنفيذه دون خطر على أحد إلاّ الضحية. يخطط له السيد فينابلز وهو جالس على كرسيه المتحرك بأنفه الكبير المعقوف كأنه منقار طير جارح، وحنجرته البارزة التي تصعد وتهبط، وينفذه... من؟ تيريزا غري؟

راقبته وأنا أقول: كل هذا الحديث عن التحكم عن بعد يذكرني بشيء قالته تلك الآنسة الغريبة غري.

– آه، تيريزا العزيزة!

كانت نبرته هادئة ومتسامحة، (ولكن ألم تكن ثمة طرفة بسيطة لرموشه يا ترى؟). أضاف يقول: يا للسخف الذي تتحدث بها هاتان السيدتان العزيزتان! وهما تصدقانه أيضاً، تصدقانه حقيقة! هل حضرت واحدة من جلسات تحضير الأرواح السخيفة التي يقمن بها؟ أنا متأكد أنهن أصررن عليك لحضورها.

ترددت لحظة بينما قررت –بسرعة– نوع الموقف الذي ينبغي عليّ اتخاذه، ثم قلت: نعم، لقد... لقد حضرت إحدى هذه الجلسات فعلاً.

– وجدتَ عملهن هراء، أليس كذلك؟ أم أنك تأثرت به؟

تجنبت نظرته وأديت –بأفضل ما أستطيع– دور الرجل القلق غير المرتاح: إنني... إنني لم أصدق حقاً أي شيء منه بالطبع. بدا أنهن صادقات ولكن...

نظرت إلى ساعتي وقلت: لم أكن أعرف أنني تأخرت. لا بد أن أرجع بسرعة وإلا فإن ابنة عمي ستتساءل عن الذي أفعله.

– لقد روّحتَ عن رجل مُقعَد في مساء ممل... تحياتي لرودا. يجب أن نرتب حفل غداء آخر قريباً. سوف أذهب إلى لندن في الغد؛ ففي قاعة سوذبي مزاد مثير... تحف فرنسية من العاج تعود للعصور الوسطى. إنها نادرة، وأنا واثق أنها ستعجبك إذا ما نجحتُ في شرائها.

افترقنا بعد هذه العبارة الودية. ترى أكان في عينيه تهكّمٌ وهو يُحصي عليَّ هلعي من جلسة تحضير الأرواح؟ لقد حسبت ذلك، ولكني لم أستطع التأكد. أحسست بأنني ربما كنت الآن أتخيل أشياء.

* * *

الفصل التاسع عشر

عندما اتصلت بغينغر في الصباح أخبرتها بأنني سأنتقل إلى بورنماوث في اليوم التالي. قلت: لقد وجدت فندقاً صغيراً هادئاً فيه مخرجان جانبيان لا يلفتان النظر، وقد أستطيع التسلل من أحدهما وآتي لرؤيتك في لندن.

- لا أحسب تلك فكرة جيدة، ولكن لا بد أن أعترف أن قدومك يشكل راحة كبيرة لي؛ فأنت لا تتخيل كم أعاني من الملل!

فجأة استوقفني أمرٌ ما، فقلت: غينغر! ما بال صوتك... إنه مختلفٌ نوعاً ما...

- آه، صوتي؟ لا بأسَ عليه، لا تقلق.

- ولكن ما بال صوتك؟

- مجرد ألم بسيط في الحنجرة، هذا كل ما في الأمر.

- غينغر!

- اسمع يا مارك، ألم الحنجرة يمكن أن يصيب أي شخص. أظن أنني في بداية إصابة بالزكام، أو أنها أنفلونزا خفيفة.

- زكام؟ لا تتهربي من الموضوع... هل أنت بخير؟

- لا تبالغ في الأمر. أنا بخير.

- أخبريني كيف تشعرين بالضبط. هل تشعرين فعلاً بأنك في المرحلة الأولى من الإصابة بالأنفلونزا؟

- حسناً، ربما... في جسمي كله ألمٌ خفيف، أنت تعرف كيف يكون...

- ودرجة الحرارة؟

- ربما كانت مرتفعة قليلاً...

جلست هناك وقد اجتاحتني قشعريرة مرعبة. كنت خائفاً، وكنت أعرف أيضاً أن غينغر كانت خائفة هي الأخرى، رغم أنها ترفض الاعتراف بذلك.

جاءني صوتها ثانية: لا تدع الذعر يستولي عليك... أنت مذعور. لا يوجد ما يبعث حقاً على الذعر.

- هذا ممكن، ولكن يجب أن نأخذ جميع الاحتياطات. اتصلي بطبيبك واطلبي منه أن يأتي ليفحصك... فوراً.

- حسناً... ولكن... سيظن أنني أبالغ في مرضي.

- لا تهتمي. افعلي ذلك، ثم اتصلي بي مرة أخرى.

بعد أن وضعت السماعة جلست لوقت طويل أحملق في الهاتف الأسود. الذعر... يجب ألاّ أستسلم للذعر. إن الأنفلونزا تنتشر كثيراً في مثل هذا الوقت من العام. قد يُطمئنها الطبيب... ربما لا يكون ذلك إلاّ بسبب التعرض لشيء من البرد...

تصورت سايبل بثوبها المزركش، وتخيلت تيريزا بصوتها المدوّي... هراء، كله هراء. الأمر كله خرافة طبعاً...

الصندوق... لم يكن من السهولة التغاضي عن الصندوق؛ إذ لم يكن يمثل الخرافة البشرية بل تطور احتمال علمي ممكن. لكنه لم يكن ممكناً، ليس من الممكن أن...

خرجت من البيت قلقاً أمشي على غير سبيل. والتقيت بالسيدة كالثروب فسألتني: ماذا حدث؟

قلت: غينغر تشعر بالمرض...

كنا أريدها أن تقول إن هذا كله هراء... كنت أريدها أن تطمئنني، لكنها لم تفعل. قالت: هذا سيء. نعم، أظن أنه سيء.

قلت بإصرار: إنه غير ممكن... من غير الممكن أبداً أن يستطيعوا فعل ما يزعمونه!

- هل ترى ذلك؟

- أنت لا تصدقين. لا يمكنك أن تصدقي...

- يا عزيزي مارك، لقد اعترفتما -أنت وغينغر- بإمكانية حدوث ذلك، وإلا لما عملتما الذي تعملانه الآن.

- إن تصديقنا يزيد الأمر سوءاً... يزيد من احتمال وقوعه!

- أنتما لم تذهبا إلى حد الاعتقاد، ولكنكما اعترفتما فقط بأنكما قد تصدقان الأمر إذا توفر الدليل.

- دليل؟ أي دليل؟

قالت السيدة كالثروب: إن مرض غينغر هو الدليل.

أحسست بالانزعاج من تلك المرأة وارتفع صوتي غاضباً: لماذا أنت متشائمة؟ إنها مجرد نزلة برد بسيطة... شيء من هذا. لماذا تصرين على الإيمان بأسوأ الاحتمالات؟

- لأنه إذا كان هذا هو الأسوأ فعلينا أن نواجهه ولا ندفن رؤوسنا في الرمال إلى أن يفوت الوقت.

- هل تعتقدين أن هذه الشعوذة السخيفة تعطي مفعولاً؟

- شيءٌ ما يعطي مفعولاً... هذا ما يجب علينا مواجهته. أظن أن معظم الأمر زخارف وشكليات لإيجاد نوع من الجو فقط؛ فإيجاد الجو مسألة هامة. ولكن لا بد أن الشيء الحقيقي مخفي بين هذه الشكليات، وهو الشيء الذي يعطي مفعولاً.

- أتعنين شيئاً كالنشاطات الإشعاعية عن بعد؟

- ربما. العلماء يكتشفون كل يوم أشياء مخيفة، وقد يقوم شخص عديم الضمير بتطويع بعض أشكال هذه المعرفة الجديدة لغرض خاص. أنت تعرف أن والد تيريزا كان عالماً فيزيائياً...

- ماذا؟ ماذا؟ ذلك الصندوق اللعين! لو أننا نستطيع فحصه؟ لو استطاع الشرطة...

- الشرطة ليسوا حريصين على الحصول على إذن تفتيش ومصادرة دون وجود مزيد من الأدلة والبراهين التي لا بد من الاستناد عليها.

- وماذا لو ذهبتُ إلى هناك وحطمتُ ذلك الصندوق؟

هزت السيدة كالثروب رأسها وقالت: مما قلتَه لي فإن الأذى -إن كان من أذى أصلاً- قد تم في تلك الليلة.

ألقيت برأسي بين يدي وقلت ساخطاً: ليتنا لم نقم بهذا العمل المشؤوم.

قالت السيدة كالثروب بحزم: كانت دوافعك لهذا العمل رائعة، وما حدث قد حدث. ستعلم المزيد عندما تتصل بك غينغر بعد أن يراها الطبيب. أظن أنها ستتصل بروداً...

فهمت التلميح. قلت: من الأفضل أن أعود.

قالت السيدة كالثروب فجأة وأنا أبتعد: إني لحمقاء... أعرف أنني غبية! إننا نسمح لهذه الأمور بالاستحواذ على تفكيرنا.

أشعر بأننا نفكر بالطريقة التي يريدوننا أن نفكر بها.

ربما كانت مُحقةً فيما قالته، ولكني لم أستطع الاهتداء إلى أية طريقة أخرى للتفكير.

بعد ذلك بساعتين اتصلت غينغر وقالت: لقد حضر إليّ الطبيب، وقد بدا متحيراً بعض الشيء ولكنه قال إنها ربما كانت أنفلونزا؛ فهي منتشرة كثيراً الآن. طلب مني الراحة في السرير وسيرسل إلي بعض الأدوية. حرارتي الآن مرتفعة كثيراً، ولكن الأنفلونزا ترفع الحرارة، أليس كذلك؟

كان التوسل اليائس ظاهراً في صوتها الأجش تحت قشرة الشجاعة.

قلت يائساً: ستكونين بخير. هل تسمعين؟ ستكونين بخير. هل تشعرين بألم شديد؟

– كل شيء في جسمي يؤلمني: قدماي وجلدي... أكره أي شيء يلمسني وأشعر بالحر الشديد.

– إنها الحمى يا عزيزتي. اسمعيني، أنا قادم إليك. سأغادر الآن... على الفور. كلا، لا تعارضي.

– حسناً، إنني سعيدةٌ لأنك قادم يا مارك. أظن... إنني لست شجاعة كما ظننت.

* * *

اتصلت مع لوجون وقلت: غينغر مريضة.

– ماذا؟

– لقد سمعتني. إنها مريضة، وقد استدعت طبيبها الخاص. يقول إنها ربما كانت الأنفلونزا. قد يكون ذلك، ولكنه قد لا يكون كذلك. لا أدري ما الذي يمكنك عمله. الفكرة الوحيدة التي خطرت لي هي اللجوء إلى أخصائي ما لاستشارته.

– من أي نوع؟

– طبيب نفسي... محلل نفسي، أو عالم نفسي. شخص يعرف عن الإيحاء والتنويم المغنطيسي وكل هذه الأشياء!

– أظن أنك مُحقٌ تماماً. قد تكون مجرد أنفلونزا، ولكن الأمر قد يكون أيضاً ظاهرة سيكولوجية لا نعرف عنها شيئاً. قد يكون هذا ما كنا ننتظره تماماً!

صفقت سماعة الهاتف. ربما كنا نتعلم شيئاً عن الأسلحة السيكولوجية، ولكن كل اهتمامي كان منصباً على غينغر الشهمة الخائفة. لم تكن نؤمن بإمكانية ذلك كلانا... أم أننا آمنا؟ كلا، لم نؤمن بالطبع. أردناها لعبة... ولكنها لم تكن لعبة بالفعل.

كان «الحصان الأشهب» يُثبت أنه حقيقة.

وضعت رأسي بين يدي ورحت أتأوه.

* * *

الفصل العشرون

لن أنسى ما حييت ما حدث في الأيام القليلة التي تلت ذلك؛ فهي تبدو لي الآن مجموعة من الأحـداث المختلفة دون تسلسل أو شكل معين. انتقلت غينغر من الشقة إلى عيادة صحية خاصة، وقد سُمح لي بزيارتها أثناء ساعات الزيارة فقط.

فهمت أن طبيبها الخاص كان يميل إلى التشكيك بـالأمر كله، ولم يستطع فهم سبب كل هذا الاهتمام. كان تشـخيصه واضحاً تماماً؛ التهاب الشعب الهوائية الذي تبع الأنفلونزا، رغـم تعقد ذلك الالتهاب بسبب أعراض غير عادية إلى حد ما، ولكن هذا -كما أشار- يحدث دائماً، فلا توجد حالة واحدة نموذجية، وبعض المرضى لا يستجيبون للمضادات الحيوية.

كل ما قاله كان صحيحاً بالطبع؛ فقد أصيبت غينغر فعـلاً بالتهاب الشعب الهوائية، ولم يكن في مرضها أي شيء غامض. لقد أصيبت به... وكانت إصابتها شديدة.

التقيت مرة واحدة بالعالم النفسي الذي يعمل في وزارة الداخلية. كان رجلاً ضئيل الجسم غريب الشكل ينتقل على رؤوس أصابعه مثل طائر وعيناه تلتمعان خلف نظارته السميكة.

سألني أسئلة لا تعد ولا تحصى. ورغم أنني لم أجد مبرراً لطرح نصف تلك الأسئلة، إلاّ أن إيماءه برأسه موافقةً على إجاباتي كان يؤكد وجود مبرر لتلك الأسئلة. وقد رفض توريط نفسه بأي رأي كان، وربما كان حكيماً في ذلك. كان يتكلم ببعض المصطلحات والألفاظ الفنية التي اعتبرتها من اللغة الاصطلاحية لمهنته. أظن أنه حاول تجربة أشكال عديدة من التنويم المغنطيسي على غينغر، ولكن بدا أن الكل اتفقوا على أن لا يخبرني أحد بشيء... ربما لأنه لم يكن ثمة ما يقال.

تجنبت رؤية أصدقائي ومعارفي ولذلك كانت وحدتي لا تطاق. وفي نهاية الأمر –وعندما ازداد يأسي– اتصلت ببوبي في محل الزهور الذي تعمل فيه. سألتها إن كانت تحب أن تخرج وتتناول العشاء معي وقد أجابتني بوبي بأنها تحب ذلك. أخذتها إلى مطعم فانتازي. كانت تتكلم بسعادة بالغة ووجدت بصحبتها مصدر تهدئة وعزاء، ولكني لم أطلب منها الخروج معي لمجرد التهدئة والعزاء. فبعد أن قدمت لها من أطايب الطعام والشراب ما أزال تحفظها وقلل مقاومتها بدأت أجس نبضها مع بعض الحذر. فقد بدا محتملاً أن تكون بوبي على علم بشيء دون أن تدرك تماماً ما كانت تعرفه. سألتها إن كانت تتذكر صديقتي غينغر. أجابتني بالإيجاب ثم سألتني عما تفعله غينغر هذه الأيام.

قلت لها: إنها مريضة جداً.

– مسكينة.

بدا عليها من الاهتمام أقصى ما يمكن لمثيلاتها أن يُظهرنه، وهو ما لم يكن كثيراً على أية حال.

قلت: لقد ورطت نفسها في أمر. أظن أنها طلبت نصيحتك بخصوص هذا الأمر... شيء بخصوص «الحصان الأشهب». لقد كلفها ذلك مبلغاً كبيراً من المال.

صاحت بوبي وقد زاد اتساع عينيها: آه، إذن فهو أنت!

لم أفهم ما تعنيه لبعض الوقت. ثم خطر لي أن بوبي تظنني الرجل الذي يرى أن زوجته المريضة تقف عائقاً أمام سعادة غينغر. كانت في غاية الانفعال لهذا الكشف عن علاقة الحب الذي بيننا بحيث لم تنتبه أو تَجفَ من ذكر «الحصان الأشهب» أمامها.

قالت بحماسة: وهل نجح العمل؟

– لقد حدث فيه خطأ ما...

سألتني بوبي ذاهلة: ماذا حصل؟

رأيت أن إمكانات بوبي لا تسمح إلاّ باستيعاب العبارات القصيرة الواضحة، فقلت لها: يبدو أن هذا العمل ارتد على غينغر. هل سمعت عن حدوث شيء كهذا من قبل؟

قالت بوبي بأنها لم تسمع أبداً.

قلت: أعني طبعاً ذلك العمل الذي يُمارس في «الحصان الأشهب» في قرية متش دينغ... أنت تعرفين به، أليس كذلك؟

– لم أكن أعلم أين هو. كنت أعرف أنه في مكان ما في الريف فقط.

– لم أستطع أن أفهم من غينغر ما الذي يفعلونه هناك...

انتظرتها بحذر، فقالت: إشعاعات، أليس كذلك؟ شيء كهذا... من الفضاء الخارجي... مثل الروس!

ورأيت أن بوبي أخذت تعتمد الآن على خيالها المحدود، ولكنني وافقتها قائلاً: شيء من هذا النوع، لكنه لا بد أن يكون خطيراً جداً. أعني إن كان قد جعل غينغر تمرض بهذا الشكل.

– ولكن زوجتك هي التي كان يجب أن تمرض وتموت، أليس كذلك؟

قلت وقد قبلت بالدور الذي حددته لي غينغر وبوبي: نعم، ولكن يبدو أنه سار بشكل خاطئ... ارتد على صاحبته.

– تقصد...؟

بذلت بوبي جهداً ذهنياً فظيعاً ثم قالت: أتعني كما يحدث عندما نوصل المكواة بالكهرباء بشكل خاطئ ونصاب بصدمة كهربائية؟

– بالضبط، تماماً كما تقولين. هل علمت أن مثل هذا

الأمر قد حدث من قبل؟

– ليس بتلك الطريقة...

– أية طريقة إذن؟

– أقصد إذا لم يدفع الشخص ما عليه... فيما بعد. أعرف رجلاً رفض أن يدفع ما عليه، وقد قُتل في نفق القطار... وقع من فوق الرصيف ليسقط أمام القطار.

– ربما كان ذلك مجرد حادث.

قالت بوبي وقد صدمتها الفكرة: آه، لا. هم الذين دفعوه.

في تلك اللحظة طلبت لها طبقاً من الحلوى، فقد أحسست أن التي أمامي فتاة قد تساعدني إذا استطعت أن أنتزع منها بعض الحقائق غير المترابطة التي تحوم تائهة في ذلك الشيء المسمى دماغها. لقد سمعتْ أشياء تقال واستوعبت جزءاً منها ثم خلطتها مع بعضها، لم يكن أحد يأبه لما يقوله أمامها لأنها لم تكن بالنسبة إليهم "سوى بوبي".

إن ما حيرني هو أنني لم أعرف ماذا أسألها. لو قلت لها شيئاً غير مناسب فإنها ستخاف وتسكت. قلت: زوجتي ما تزال مقعدة، ولكن حالتها لا تسوء كما يبدو.

قالت بوبي متعاطفة: هذا سيء جداً.

– إذن ماذا أفعل الآن؟

لم تكن بوبي تعرف.

قلت: تعلمين أن غينغر هي التي... أنا لم أعمل شيئاً من تلك الترتيبات. هل يوجد أي شخص يمكنني اللجوء إليه؟

قالت بوبي بارتياب: يوجد مكان في بيرمنغهام.

– إنه مغلق. ألا تعرفين أي شخص آخر يمكن أن يعرف شيئاً عن هذا العمل؟

– آيلين براندن قد تعرف شيئاً... ولكنني لا أظن ذلك.

أحفلني ذكر آيلين براندن غير المتوقعة هذه. سألتها من تكون آيلين براندن، فقالت: إنها فظيعة حقاً؛ غبية جداً. تعقص شعرها وتلفه بكل قوة ولا تنتعل الكعب العالي أبداً. كنت معها في المدرسة، ولكنها كانت غبية جداً في ذلك الوقت. إلاّ أنها كانت ممتازة في الجغرافيا.

– وما علاقتها «بالحصان الأشهب»؟

– لا شيء. كانت مجرد فكرة خطرت لها، وهكذا تركته.

سألتها متحيراً: تركت ماذا؟

– عملها مع «س ر س».

– وما هي «س ر س» هذه؟

– لا أعرف بالضبط؛ فهم يكتفون بتسميتها كذلك. إنها

تهتم بأبحاث المستهلكين أو ردود فعلهم. مجرد شركة صغيرة.

– وهل عملت آيلين براندن معهم؟ ماذا كان عملها؟

– كانت تتنقل وتسأل الناس أسئلة... عن معجون الأسنان أو أفران الغاز أو عن نوع الإسفنج الذي يستخدمونه. عمل ممل جداً؛ فمَنْذا يهتم لهذا؟

أحسست بوخزة إثارة فقلت: يُفترض أن «س ر س» هذه تهتم بذلك.

إن المرأة التي زارها الأب غورمان في الليلة التي قتل فيها كانت موظفة تعمل في مؤسسة من هذا النوع. نعم... بالطبع. وقد قامت واحدة مثلها بزيارة غينغر في شقتها! ها قد وجدت صلة من نوع ما.

– لماذا تركت عملها؟ ألأنها سئمت منه؟

– لا أظن ذلك. كانوا يدفعون لها راتباً جيداً، ولكن راودتها فكرةٌ ما عن طبيعة عمل تلك المؤسسة... فكرة مفادها أن المؤسسة لم تكن حقيقية كما تبدو.

– هل أحست أن ذلك العمل ربما كان مرتبطاً بطريقة ما بـ «الحصان الأشهب»؟ أكان ذلك هو السبب؟

– لا أدري، شيء من هذا القبيل. على أية حال فإنها تعمل الآن في مقهى إيسبرسو في شارع توتنهام كورت.

- أعطِني عنوانها.

- إنها ليست من النوع الذي يروق لك.

قلت لها بحدة: لا أريد أن أطلب ودها... أريد منها بعض المعلومات عن مؤسسة أبحاث المستهلكين؛ فأنا أفكر في شراء بعض الأسهم في مثل هذا النشاط.

قالت بوبي وقد اقتنعت تماماً بهذا التفسير: آه، فهمت.

لم يبقَ شيء آخر يمكن الحصول عليه منها، وهكذا أخذتها إلى بيتها وشكرتها على تلك الأمسية الرائعة.

* * *

حاولت الاتصال مع لوجون في صباح اليوم التالي ولكنني لم أستطع. وقد نجحت -بعد لأيٍ- بالاتصال بجيم كوريغن.

- ماذا عن ذلك العالم النفسي السخيف الذي أحضرتموه لرؤيتي يا كوريغن؟ ماذا يقول عن غينغر؟

- قال كثيراً من الكلمات الطويلة المعقدة، لكنني أظن -يا مارك- أن طبه قد خذله... كما أنك تعرف أن كثيراً من الناس يُصابون بالتهاب القصبة الهوائية. لا شيء غامض أو غير طبيعي في هذا الأمر.

- نعم، ولكننا نعرف أيضاً كثيراً من الناس الذين كانت أسماؤهم في تلك القائمة وماتوا بالتهاب الشعب الهوائية والتهاب

الشلل البصلي وأورام الدماغ والصرع وحمى التيفوئيد وأمراض معروفة أخرى.

- أعرف شعورك... ولكن ماذا نستطيع أن نفعل؟

سألته: إن حالتها تسوء، أليس كذلك؟

- الواقع... نعم.

- إذن لا بد من فعل شيء.

- مثل ماذا؟

- لديّ بعض الأفكار. أن نذهب إلى متش دينغ ونمسك بتيريزا غري ونجبرها بالقوة والتهديد على إبطال سحرها هذا...

- حسناً... قد ينفع هذا.

- أو... أن أذهب إلى فينابلز.

- فينابلز؟ لكنه مُستبعد. كيف يمكن أن تكون له علاقة بالأمر؟ إنه مقعد!

- أشك في ذلك. بوسعي أن أذهب إلى هناك وأنزع عنه تلك البطانية لأرى إن كانت ساقاه ضامرتين أم لا!

- لقد حققنا في هذا كله... هل ترى أنه هو الذي يدير هذا العمل كله؟

- نعم، هذا ما أحسبه. أظنه الرجل الذي يخطط لهذا كله.

- ربما. أوافقك على أنه يبدو ذا ذكاء يؤهله لهذا الفعل، لكنه لم يكن ليفعل شيئاً بشعاً مباشراً مثل قتل الأب غورمان!

- قد يفعل ذلك إن كان الأمر ملحاً. كان يجب إسكات الأب غورمان قبل أن يبلغ أحداً بما عرفه من تلك المرأة حول أنشطة «الحصان الأشهب». إلى جانب ذلك...

سكتُّ فجأة، فقال كوريغن: هالو... أما زلت تكلمني؟

- نعم، كنت أفكر... مجرد فكرة خطرت لي...

- وما هي؟

- إنها لم تَضِح لديّ بعد، ولكن السلامة الحقيقية يمكن أن تتحقق بطريق واحد فقط... على أية حال، لا بد أن أذهب الآن. عندي موعد في أحد المقاهي.

- لم أكن أعرف أنك من رواد مقاهي تشيلسي!

- لست كذلك. الواقع أن المقهى الذي سأذهب إليه في شارع توتنهام كورت.

وضعت السماعة ثم نظرت إلى الساعة.

رن جرس الهاتف وأنا في طريقي إلى الباب. ترددت، فقد كنت موقناً أنه جيم كوريغن مرة أخرى، ولعله اتصل مرة أخرى ليعرف المزيد عن فكرتي.

لم أرِد الحديث الآن مع جيم كوريغن. تحركت نحو

الباب وما زال الهاتف يرن بقوة وإصرار.

قد يكون المستشفى. بالطبع، غينغر... لم أستطع المجازفة بذلك. ذهبت إلى الهاتف وقد نفد صبري ورفعت السماعة بقوة.

- هالو؟

- أهذا أنت يا مارك؟

- نعم، من الذي يتكلم؟

قالت صاحبة الصوت مؤنبة: إنه أنا بالطبع. اسمعني، أريد أن أخبرك شيئاً.

- آه، أهذا أنت؟

عرفت صوت السيدة أوليفر، وأضفت قائلاً: اسمعيني، أنا في عجلة من أمري؛ يجب أن أخرج. سأتصل بك فيما بعد.

قالت السيدة أوليفر بحزم: هذا لن ينفع أبداً... يجب أن تسمعني الآن؛ إنه أمر هام.

- حسناً، ولكن أسرعي؛ فلديّ موعد.

- يوه! تستطيع دوماً أن تتأخر عن المواعيد فالكل يتأخر. سيزيد ذلك من احترامك في أعين من ينتظرك.

- كلا. فعلاً يجب أن...

- اسمع يا مارك، إنه أمر هام. أنا واثقة أنه كذلك.

كظمت غيظي قدر الإمكان وأنا أنظر إلى الساعة: حسناً؟

– خادمتي ميلي أصيبت بالتهاب اللوزتين. كانت حالتها سيئة وذهبتْ إلى الريف، عند أختها...

صررت أسناني وقلت: إنني آسف لذلك كثيراً، ولكن في الحقيقة...

– اسمعني، أنا لم أبدأ بعد. أين وصلت؟ آه، نعم. ذهبت ميلي إلى الريف ولذلك اتصلتُ بالوكالة التي أذهب إليها دائماً، ريجنسي... إنه اسم سخيف، كأنه اسم سينما...

– أنا في الحقيقة يجب أن...

– وطلبت منهم أن يرسلوا خادمة فقالوا إن ذلك صعب جداً الآن... الأمر الذي دائماً ما يقولونه... ولكنهم قالوا بأنهم سيفعلون ما يستطيعون...

لم أر السيدة أوليفر تثير الجنون كما هي الآن.

– ... وجاءتني هذا الصباح امرأة، وهل تعرف من تكون؟

– لا أستطيع أن أتخيل من تكون. اسمعيني...

– امرأة تُدعى إدِث بنز... اسم مضحك، أليس كذلك؟ أنت تعرفها في الواقع.

– كلا، لا أعرفها. لم أسمع بامرأة تُدعى إدِث بنز أبداً.

– لكنك تعرفها فعلاً، وقد رأيتَها منذ مدة قصيرة. كانت تعمل لسنوات طويلة مع الليدي هيسكيث-دوبوا.

– آه، معها!

– نعم. لقد رأتك في اليوم الذي جئت فيه لتأخذ بعض اللوحات.

– هذا جيد. أظن أنك محظوظة بها؛ فهي امرأة موثوقة ويُعتمَد عليها. ولكن في الحقيقة... أريد الآن...

– انتظرني، أنا لم أدخل في الموضوع بعد. لقد جلستْ وتحدثت طويلاً عن الليدي هيسكيث-دوبوا ومرضها الأخير... فأنت تعلم كم يحب أمثالها الحديث عن المرض والموت، وبعد ذلك أتت على تلك النقطة.

– أية نقطة؟

– النقطة التي لفتت انتباهي. قالت شيئاً مثل: "مسكينة الليدي، لقد عانت كثيراً من ذلك الورم البغيض في دماغها، رغم أنها كانت في صحة جيدة قبلها. وكان أمراً مؤسفاً أن أراها في المصح وقد تساقط شعرها الجميل الغزير الأبيض على الوسادة كله. كنت أرى ملء قبضة منه تتساقط كل مرة". وقد تذكرتُ -يا مارك- ماري ديلافونتين صديقتي؛ فقد تساقط شعرها هي الأخرى. وتذكرت ما قلتَه لي عن فتاةٍ رأيتَها في مقهى تشيلسي تتشاجر مع فتاة أخرى حيث شدتها من شعرها فاقتلعت منه ملء

قبضتها. إن الشعر لا يُقتلع بهذه السهولة يا مارك. حاول ذلك.. حاول أن تشد شعرك بقوة أو قليلاً منه فقط من جذوره. حاول فقط، وسوف ترى! ليس أمراً طبيعياً أن يتساقط شعر هؤلاء الناس كلهم من جذوره بهذه الصورة. إنه ليس طبيعياً... لا بد أنه مرض جديدٌ ما، لا بد أن يعني ذلك شيئاً.

أمسكت بالسماعة وسبحت في التفكير، واجتمعت في ذهني أمور ونتف من معلومات متناثرة لا أكاد أذكرها: رودا وكلبها المصاب بالقوباء.. مقال قرأته في مجلة طبية في نيويورك. بالطبع... بالطبع!

أدركت فجأة أن السيدة أوليفر ما تزال تثرثر معي، فقلت: بارك الله فيك... أنتِ رائعة!

وضعت السماعة بقوة، ثم رفعتها مرة ثانية واتصلت برقم معين، وكنت محظوظاً هذه المرة لأنني وجدت لوجون مباشرة. قلت له: اسمعني، هل يتساقط شعر غينغر بغزارة من جذوره؟

– إنها... الواقع أنني أظن ذلك. أظن أنه بفعل الحمى.

– أية حمى يا رجل؟! إن ما تعاني غينغر منه وما عانى منه الجميع قبلها هو سم الثاليوم.

أرجوك يا الله، لعل الوقت لم يفت بعد...

* * *

الفصل الحادي والعشرون

– أما زال لدينا وقت؟ هل ستعيش؟

رحت أتحرك وأسير يميناً وشمالاً... لم أستطع الجلوس ساكناً.

جلس لوجون يرقبني وكان صبوراً ولطيفاً. قال: تأكد أنهم يبذلون كل جهد ممكن.

كانت تلك نفس العبارة القديمة، ولم تفلح في تهدئتي.

– هل يعرفون كيف يعالجون التسمم بالثاليوم؟

– هذه حالات لا تحدث كثيراً، لكنهم سيحاولون كل شيء ممكن. لو سألتني فإنني أظن أنها ستجتاز مرحلة الخطر بسلامة.

نظرت إليه. كيف لي أن أعرف إن كان يؤمن حقاً بما

يقوله؟ هل كان يحاول تهدئتي فقط؟ قلت: على أية حال، فقد تحققوا من أنه سم الثاليوم؟

– نعم، لقد أثبتوا ذلك.

– إذن فهذه هي الحقيقة البسيطة وراء لغز «الحصان الأشهب»... السم. لم يكن في الأمر سحر ولا تنويم مغنطيسي ولا إشعاعات مميتة... مجرد تسميم! لقد حاولت تلك المرأة خداعي، كانت تسخر مني. أظن أنها كانت تضحك مني بملء شدقيها.

– عمَّن تتحدث؟

– تيريزا غري... كل خدعها وشعوذتها كانت لخداع السذج الذين يؤمنون بالخرافات، أما «الصندوق» المشهور فقد كان لخداع أصحاب الأفكار الحديثة. إننا لا نؤمن هذه الأيام بالسحر والشعوذة، ولكننا بالغو السذاجة عندما يتعلق الأمر بإشعاعات و موجات وظواهر سيكولوجية. أراهن على أن ذلك الصندوق ليس سوى جهاز كهربائي جميل فيه مصابيح ملونة وصمامات تحدث طنيناً. لقد كانت تركيبة «الحصان الأشهب» زائفة كلها! كان الحصان الأشهب مجرد قناع لا أكثر ولا أقل، كان المقصود تركيز الانتباه عليه حتى لا تشك أن الذي يحدث يسير في اتجاه آخر، والشيء الجميل فيه هو أنه مكان آمن لهم. كان بوسع تيريزا أن تتباهى بصوت عال بالقوى السحرية التي تملكها أو تستطيع السيطرة عليها؛ إذ لا يمكن تقديمها إلى

المحاكمة لمقاضاتها بتهمة القتل بناء على تلك المسألة. يمكن فحص صندوقها ومن ثم إثبات أنْ لا ضرر فيه، وكان من شأن أي محكمة أن تقضي بأن هذا العمل هراء ومستحيل! وبالطبع، فقد كان كذلك فعلاً!

سألني لوجون: هل تعتقد أن النسوة الثلاث مشتركات في هذا العمل؟

– لا أظن ذلك؛ إذ يبدو أن بيلا وسايبل مقتنعتان بما تقومان به من شعوذات، وهما تصدقان كل شيء تخبرهما به تيريزا.

– إذن فإن تيريزا هي الحاكمة؟

قلت ببطء: قدر تعلق الأمر بالحصان الأشهب، ولكنها ليست العقل الحقيقي لهذا العمل. إن العقل المفكر يعمل من وراء الكواليس. إنه يخطط وينظم بحيث يكون لكل واحدٍ وظيفته الخاصة ولا أحد يعرف عن الآخر شيئاً. برادلي –على سبيل المثال– يدير الجانب المالي والقانوني، وفيما عدا ذلك فإنه لا يعرف ماذا يحدث في أي مكان آخر. إنه يتقاضى راتباً مرتفعاً بالطبع، وكذلك تيريزا غري.

قال لوجون: يبدو أنك قمت بترتيب النظرية بما يقنعك تماماً.

– ليس بعد. لكننا نعرف الحقيقة الأساسية اللازمة. إنها الحقيقة نفسها كما كانت على مر العصور... مجرد سم. جرعة

– ما الذي جعلك تفكر بالثاليوم؟

– أشياء كثيرة جاءت فجأة مع بعضها. بداية الأمر كله كانت ما رأيته في تشيلسي تلك الليلة: فتاة تشدها فتاة أخرى من شعرها وتقتلعه من جذوره، وسمعتها تقول: "إنه لم يؤلمني"! لم يكن ذلك شجاعة كما ظننت، بل كانت الحقيقة البسيطة... فهي لم تتألم فعلاً.

لقد قرأتُ مقالاً عن التسمم بالثاليوم عندما كنت في أميركا، فقد مات عدد من عمال أحد المصانع، الواحد تلو الآخر، وقد نسبت وفياتهم إلى أسباب مختلفة جداً بما يبعث على الدهشة. وأذكر أنه كان من بينها حمى التيفوئيد والسكتة الدماغية والعصاب والشلل البصلي والصرع والتهاب المعدة وغيرها، وعلمت أن الأعراض كانت متنوعة جداً؛ قد تبدأ بالإسهال والقيء أو بألم في الأطراف يتم اعتباره مرض التهاب الأعصاب أو حمى الروماتيزم أو بوادر الشلل، وفي بعض الأحيان يتخضب الجلد ويتغير لونه.

– أنت تتحدث وكأنك قاموس طبي!

– أمر طبيعي؛ فقد كنت أسعى في بحث هذا الأمر. المهم أن شيئاً واحداً كان يحدث دائماً عاجلاً أم آجلاً: **كان الشعر يتساقط**. كان الثاليوم يستخدم في مستحضرات إزالة الشعر في بعض الأوقات، وخصوصاً مع الأطفال المصابين بمرض القوباء

الحلقية، ثم وجدوا أنه خطير. إنه الآن يُعطى عن طريق الفم في حالات معينة، ولكن بجرعات تراعي كامل الحيطة والحذر، وتقدر تلك الجرعة حسب وزن المريض. كما أظنهم يستخدمون الثاليوم الآن في مكافحة الفئران، وهو مادة لا طعم لها وتذوب في الماء ويسهل شراؤها. كان أمرٌ واحدٌ ضرورياً: أن لا يشك أحد أن المسألة مسألة تسميم.

أومأ لوجون برأسه وقال: بالضبط، وهذا يفسّر إصرار القائمين على «الحصان الأشهب» على أن يبقى القاتل بعيداً عن ضحيته المقصودة حتى لا تظهر أية شبهات وشكوك في وجود جريمة. ولماذا تظهر؟ لا وجود لطرف مستفيد استطاع الوصول إلى الطعام أو الشراب، كما أنه (أو أنها) لم تشتر الثاليوم أو أي سم آخر من أي مكان. هذه هي البراعة في العمل؛ العمل الحقيقي يقوم به شخص ليس له أية صلة مهما كانت بالضحية. أظن أنه شخص يظهر مرة واحدة فقط.

سكت قليلاً ثم قال: هل لديك أية أفكار بهذا الخصوص؟

– واحدة فقط: عامل واحد مشترك يبدو أنه موجود في جميع الحالات، وهو امرأة لا تثير أي شبهة تزور الضحايا في بيوتهم بحجة جمع معلومات لصالح مؤسسة أبحاث منزلية.

– أتظن أن تلك المرأة هي التي تضع السم؟ ولكن كيف؟

– لا أظن أن الأمر بهذه البساطة. أعرف أن هؤلاء النساء يقمن بذلك دون دوافع جرمية، ولكنهن يقعن في ذلك العمل

بطريقة ما. أظن أننا قد نستطيع كشف شيء لو تحدثنا مع امرأة تدعى آيلين براندن، تعمل في مقهى إيسبرسو في شارع توتنهام كورت.

* * *

كانت آيلين براندن كما وصَفَتْها بوبي تماماً... فيما عدا آراء بوبي الشخصية طبعاً. كان شعرها مموجاً ومسرحاً إلى الخلف، ولم تكن تضع إلاّ القليل من المساحيق، وكان حذاؤها من النوع المعقول. وقد مات زوجها -كما أخبرتنا- في حادث سيارة وتركها مع طفلين صغيرين. وقالت إنها عملت قبل عملها في هذا المقهى لأكثر من عام في شركة «س ر س» الخاصة بدراسة آراء المستهلكين، وقالت إنها تركت العمل فيها بمحض اختيارها لأن طبيعة العمل فيها لم تعجبها.

- ولماذا لم يعجبك العمل هناك يا سيدة براندن؟

كان لوجون هو الذي سألها ذلك السؤال. نظرت إليه وقالت: أنت مفتش في الشرطة، هل هذا صحيح؟

- صحيح تماماً يا سيدة براندن.

- هل تحس بوجود شيء غير طبيعي في تلك الشركة؟

- إنها مسألة أحقق فيها. هل شككت في شيء معين؟ هل هذا هو سبب تركك لها؟

- ليس لديّ شيء واضح أستند إليه... لا شيء أستطيع قوله لك بشكل محدد.

- أمر طبيعي، نحن نفهم هذا. إن هذا تحقيق سري.

- فهمت، ولكن ليس لدي إلاّ القليل الذي أستطيع أن أخبرك به.

- يمكنك أن تخبرينا عن سبب تركك العمل فيها.

- كان لدي شعور بوجود أمور تجري لم أكن أعرف عنها شيئاً.

- تقصدين أن عملها كان في حقيقته يختلف عن الظاهر؟

- شيء من هذا القبيل. بدا لي أنها لم تكن تُدار على أسس عملية كغيرها من الشركات وشككت بوجود شيء خفي وراء ذلك العمل. ولكني ما زلت لا أعرف ما هو ذلك الشيء.

سألها لوجون مزيداً من الأسئلة عن العمل الذي كان يُطلب منها القيام به. كانت تُعطى قوائم أسماء في منطقة معينة، وكان عملها هو زيارة هؤلاء الناس لتسألهم أسئلة معينة وتدون الإجابات.

- وما الذي أثار ارتيابك في هذا؟

- لم تبدُ الأسئلة لي وكأنها تسير وفق منهج بحثي معين. كانت أسئلة مفككة كيفما اتفق، وكأنها... لا أدري كيف أقول... وكأنها ذريعة لشيء آخر.

– هل لديك أية فكرة عما يمكن أن يكون ذلك الشيء الآخر؟

– لا، وهذا ما حيرني.

سكتت لحظة ثم قالت بارتياب: لقد تساءلت مرة إن كان هذا كله منظماً من أجل أعمال سرقة أو تجسس على البلاد... ولكن ذلك لم يبدُ ممكناً...

– ما هي المواد التي كنت تستعلمين عنها في أبحاثك؟

– كانت متنوعة. أحياناً تكون مواد غذائية (كخلطة الكعك مثلاً)، أو قد تكون قطع الصابون أو المنظفات، وأحياناً مساحيق التجميل وأحمر الشفاه والدهون، وأحياناً يكون السؤال عن أدوية كأنواع معينة من أدوية الصداع والحبوب المنومة وحبوب السعال والحبوب المنشطة وسائل الغرغرة وغسول الفم وأدوية عسر الهضم، وهكذا.

سألها لوجون بطريقة عرضية: ألم يطلبوا منك تقديم عينات من أية بضائع معينة؟

– لا، لا شيء من ذلك أبداً.

– هل كنت توجهين الأسئلة فقط وتدونين الإجابات؟

– نعم.

– وما هو الغرض المفترض من هذه الأسئلة؟

– ذلك ما كان يبدو غريباً جداً، فلم يخبرونا عن السبب بالضبط. كان يفترض أن نعمل ذلك لكي نزود شركات صناعية معينة بالمعلومات... ولكنها كانت طريقة غريبة، كأنها عمل هواة. لم تكن طريقة منهجية أبداً.

– هل تظنين أن من الممكن أن يكون ضمن الأسئلة التي كان يُطلب منك طرحها على الزبائن سؤال واحد فقط أو مجموعة من الأسئلة تكون هي الغرض الحقيقي من وراء ذلك العمل وبحيث تكون الأسئلة الأخرى مجرد تمويه؟

فكّرَتْ في ذلك السؤال عابسة ثم أومأت برأسها وقالت: نعم، من شأن ذلك أن يفسر توزع الأسئلة كيفما اتفق... لكنني لا أعرف ما هو السؤال أو الأسئلة التي كانت هامة.

نظر لوجون إليها بإمعان ثم قال بلطف: لا بد أن في الأمر أكثر مما قلتِه لنا.

– إن ما قلته هو ما أعرفه... لا يوجد أي شيء آخر. لقد أحسست فقط أن في الأمر شيئاً غير طبيعي، ثم تحدثتُ مع امرأة أخرى تدعى السيدة ديفيز...

– هل تحدثت مع امرأة تدعى السيدة ديفيز؟

ظل صوت لوجون كما هو لم يتغير.

– كانت هي الأخرى غير راضية عن الأمور.

- ولماذا لم تكن راضية؟

- كانت قد سمعت شيئاً.

- وما الذي سمعته؟

- قلت لك إنني لا أستطيع الجزم. إنها لم تخبرني بشكل واضح... مجرد أنها أحست مما سمعته بأن العمل كله مجرد خدعة. قالت لي: "إنه لا يبدو كما هو على حقيقته". ثم قالت: "آه، إنه لا يؤثر علينا؛ فنحن نتقاضى راتباً جيداً، كما أنهم لا يطلبون منا القيام بأي شيء يخالف القانون... ولذلك لا أرى أننا يجب أن نزعج أنفسنا في التفكير فيه".

- هل ذلك كل ما قالته؟

- لقد قالت شيئاً آخر ولا أعرف ماذا كانت تقصد به. قالت: "أحياناً أشعر كما لو كنت «السيدة تيفوئيد»..."، ولكني لم أعرف ما تقصده في ذلك الوقت.

أخرج لوجون من جيبه ورقة وأعطاها لها، ثم قال: هل يعني لك أي اسم من هذه الأسماء شيئاً؟ هل تذكرين أنك زرت أحداً منهم؟

قالت وهي تأخذ منه الورقة: ما كنت لأتذكر ذلك؛ فلقد رأيت الكثير من الناس...

سكتت وهي تستعرض القائمة التي معها ثم قالت: أورميرود.

- هل تتذكرين أحداً بهذا الاسم؟

- كلا، لكن السيدة ديفيز ذكرته مرة. لقد مات فجأة، أليس كذلك؟ من نزيف في الدماغ؟ لقد أزعجها ذلك وقالت: "كان على قائمتي قبل أسبوعين، وكان يبدو رجلاً في أوج قوته وعافيته"، وبعدها قالت لي تلك الملاحظة عن «السيدة تيفوئيد». قالت: "يبدو أن بعض الذين أزورهم يعضون على ألسنتهم ويموتون من رؤيتي ولو مرة واحدة". ثم ضحكت وقالت إن ذلك كان مجرد مصادفة. ولكني لا أظن أنها كانت مرتاحة كثيراً، ومع ذلك قالت إنها لن تقلق.

- وهل ذلك كل ما في الأمر؟

- لقد...

- أخبريني.

- لم أرها لوقت طويل، ثم التقينا ذات يوم في أحد المطاعم في سوهو. قلت لها إنني تركت شركة «س ر س» وحصلت على وظيفة أخرى. سألتني عن السبب فقلت لها إنني أشعر بعدم الارتياح لأنني لا أدري ماذا يجري. قالت: "ربما كنتِ حكيمة، ولكنهم يدفعون راتباً عالياً، كما أن ساعات العمل قصيرة. علينا جميعاً أن نستغل فرصتنا في هذه الحياة! أنا لم أكن محظوظة في حياتي فلماذا أهتم بما حدث للآخرين؟". قلت لها: "لا أفهم ما الذي تتحدثين عنه. ما هو الخطأ في ذلك العمل؟" قالت: "أنا

لست متأكدة، لكني سأقول لك بأنني ميزت أحد الأشخاص يوم أمس وهو يخرج من بيتٍ ليس من شأنه أن يكون فيه وكان يحمل حقيبة عدد يدوية. ليتني أعرف ما الذي كان يفعله بهذه الأدوات". كما سألتني إن كنت قد قابلت امرأة تدير نزلاً يدعى «الحصان الأشهب». سألتها: وما علاقة الحصان الأشهب بالأمر؟

– وماذا قالت؟

– ضحكتْ فقط ولم تجبني بشيء.

ثم أضافت السيدة براندن: لا أعرف ماذا كانت تقصد. كانت تلك آخر مرة أراها فيها، ولا أعرف أين هي الآن. أما زالت تعمل لدى شركة «س ر س»؟

قال لوجون: لقد ماتت السيدة ديفيز.

بدت آيلين براندن ذاهلة.

– ماتت! ولكن... كيف؟

– بمرض ذات الرئة... قبل شهرين.

– آه، فهمت، أمر مؤسف.

– أيوجد أي شيء آخر يمكنك إخبارنا به يا سيدة براندن؟

– لا أظن ذلك. سمعت أناساً آخرين يذكرون تلك العبارة... «الحصان الأشهب»، ولكنك إن سألتهم عنها سكتوا على الفور وبدا عليهم الخوف.

بدت قلقة مضطربة، ثم قالت: أنا.. أنا لا أريد التورط في أي عمل خطير أيها المفتش. لديّ طفلان صغيران، وبصراحة فإنني لا أعرف أكثر مما قلته لك.

نظر إليها بإمعان... ثم أومأ برأسه وتركها تذهب.

وعندما ذهبت قال لوجون: هذا يقدمنا خطوة إلى الأمام. لا بد أن السيدة ديفيز كانت تعرف الكثير. حاولت أن تغمض عينيها عما كان يجري، ولكن الأرجح أنها كانت تمتلك تخميناً ذكياً لطبيعة ذلك الأمر. وفجأة مرضت، وفي لحظات الاحتضار أرسلت في طلب كاهن وأخبرته عما كانت تعرفه وتشتبه فيه. السؤال هو: "إلى أي مدى كانت تعرف؟". أظن أن تلك القائمة هي قائمة أسماء الناس الذين زارتهم في إطار عملها والذين ماتوا بعد ذلك، ومن هنا كانت ملاحظتها عن «السيدة تيفوئيد». السؤال الآن هو عن هوية ذلك الشخص الذي تعرفت إليه خارجاً من أحد البيوت التي ليس له شأن بها متظاهراً أنه عامل؟ لا بد أن تلك المعلومة هي التي جعلتها خطيرة في نظرهم. إذا كانت قد ميَّزته، فلربما ميَّزها هو أيضاً... وربما أدرك أنها ميَّزته. وإذا ما أبلغت الأب غورمان بتلك النقطة تحديداً فإنه كان ضرورياً إسكات الأب غورمان قبل أن يبلغ أحداً بالأمر.

نظر إليّ وقال: أنت توافقني، أليس كذلك؟ أليس هذا ما حدث فعلاً؟

قلت: آه، نعم. أنا أوافقك.

– وربما لديك فكرة عن هوية ذلك الرجل؟

– لدي فكرة، ولكن...

– أعرف... ليس لدينا أي دليل.

سكت لحظة، ثم نهض وقال: لكننا سنمسك به بالتأكيد.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

بعد ثلاثة أسابيع توقفت سيارة أمام منزل برايورز كورت وخرج منها أربعة رجال كنت واحداً منهم، وكان فيها أيضاً المفتش لوجون ورقيب التحري لي، أما الرجل الرابع فكان السيد أوزبورن الذي لم يستطع السيطرة على فرحته وانفعاله للسماح له بأن يكون واحداً من المجموعة.

قال لوجون يحذّره: يجب أن تمسك لسانك.

– نعم أيها المفتش. يمكنك الاعتماد عليّ دون شك؛ لن أنطق بكلمة واحدة. أشعر أنه شرف لي، رغم أنني لا أفهم تماماً...

ولكن أحداً لم يكن مستعداً للدخول في شروحات في هذه اللحظة.

رن لوجون الجرس وطلب رؤية السيد فينابلز، ودخلنا نحن الأربعة وكأننا وفد رسمي.

إذا كان فينابلز قد فوجئ بزيارتنا فإنه لم يُظهر ذلك. كان سلوكه مهذباً إلى أبعد حد، ورأيت -ثانيةً- وهو يحرك كرسيه إلى الوراء قليلاً حتى يوسع الدائرة حوله كيف أنه يبدو رجلاً ذا مظهر مميز. حنجرته التي تصعد وتهبط، ووجهه الذي يميزه الأنف المعقوف كطائر جارح.

- جميل أن أراك ثانية يا إيستربروك... يبدو أنك تقضي وقتاً طويلاً هذه الأيام في هذه المنطقة.

أحسست بشيء من الخبث في نبرته. وقد مضى قائلاً: والمفتش لوجون أيضاً؟ عليَّ أن أعترف بأن هذا يثير فضولي. هذه المنطقة هادئة جداً ولا جرائم فيها، ومع ذلك يزورنا مفتش التحري! ما الذي أستطيع عمله لك يا حضرة المفتش؟

كان لوجون هادئاً جداً ومهذباً جداً وهو يقول: عندنا مسألة نعتقد أنك تستطيع مساعدتنا بها يا سيد فينابلز.

- إن لهذه العبارة وقعاً مألوفاً بعض الشيء، أليس كذلك؟ كيف يمكنني مساعدتكم؟

- في السابع من أكتوبر قُتل كاهنٌ يُدعى الأب غورمان في شارع ويست في بادينغتن، وقد علمتُ أنك كنت موجوداً في تلك المنطقة في ذلك الوقت بين السابعة وخمس وأربعين دقيقة والثامنة والربع مساء، وربما رأيتَ شيئاً له صلة بهذه المسألة؟

- أتراني كنت حقاً في تلك المنطقة في ذلك الوقت؟ إنني أشك في ذلك؟ أشك كثيراً. وإذا أسعفتني الذاكرة فإنني لم أزُرْ تلك المنطقة بعينها من لندن أبداً، وحسب ذاكرتي فإنني لم أكن في لندن وقتها أبداً. أنا أذهب إلى لندن من وقت لآخر لأجري الفحوصات الطبية ولأقضي نهاراً ممتعاً في قاعات المزادات.

- أظن أنك تذهب إلى عيادة السير وليَم داغديل في شارع هارلي.

حدَّق السيد فينابلز فيه ببرود وقال: أنت مطّلعٌ جداً يا حضرة المفتش.

- ليس إلى الحد الذي أرغبه... لقد خاب ظني لأنك لا تستطيع أن تساعدني كما كنت أرجو، وأظن أن من حقك عليَّ أن أشرح لك الحقائق المتعلقة بوفاة الأب غورمان.

- بالتأكيد، إذا سمحت. إنه اسم لم أسمع به من قبل.

- لقد استُدعي الأب غورمان في تلك الليلة الضبابية لرؤية امرأة على سرير الموت في منطقة قريبة. كانت تلك المرأة قد تورطت مع منظمة إجرامية. وكانت لا تعرف شيئاً عن عملها في البداية، ولكن حدثت أشياء معينة لاحقاً جعلتها تشكّ في جدية المسألة. كانت تلك المنظمة متخصصة في القضاء على أشخاص غير مرغوب فيهم... مقابل رسوم مرتفعة بالطبع.

قال فينابلز: إنها ليست بالفكرة الجديدة. في أميركا...

– آه، ولكن كانت لهذه المنظمة بالذات بعض الخصائص المبتكرة؛ فالتخلص من هؤلاء الأشخاص كان يتم –من حيث الظاهر– بواسطة ما يسمى بالوسائل السيكولوجية، حيث يتم تحفيز «رغبة الموت» التي يُقال إنها موجودة في كل شخص...

– بحيث ينتحر الشخص المعني بملء رغبته؟ يبدو ذلك –أيها المفتش– أروع من أن يكون حقيقة.

– ليس انتحاراً يا سيد فينابلز، فالشخص المعني يموت ميتة طبيعية تماماً.

– دعك من ذلك! هل تصدق مثل هذه الأشياء؟ ما أبعد ذلك عن واقعية رجال الشرطة عندنا!

– ... ويقال إن قيادة هذه المنظمة موجودة في منزل يُدعى «الحصان الأشهب».

– آه، بدأت أفهم. إذن هذا ما جاء بك إلى منطقتنا الجميلة هذه... صديقتي تيريزا غري وذلك الهراء الذي تقوم به! أنا لم أستطع معرفة ما إذا كانت هي نفسها تؤمن به، ولكنه هراء! ولديها صديقة سخيفة تعمل كوسيطة أرواح وثالثة تقول إنها ساحرة! هؤلاء السيدات العجائز الثلاث نجحن في اكتساب سمعة محلية سيئة. ولكن لا تقل لي إن جماعة سكوتلانديارد يأخذون ذلك على محمل الجد؟

– إننا في الواقع نأخذه على محمل الجد يا سيد فينابلز.

– أتعتقد –حقاً– أن تيريزا تطلق بعض الكلمات الجوفاء وسايبل تذهب في غشية فيموت شخص آخر نتيجة لذلك؟

– آه، لا يا سيد فينابلز. إن سبب الموت أبسط من هذا.

سكت قليلاً ثم قال: السبب هو التسمم بالثاليوم.

سادت الغرفة لحظة صمت، ثم قال فينابلز: ماذا قلت؟

– التسمم بواسطة أملاح الثاليوم؛ طريقة واضحة ومباشرة. ما كان الأمر ليتطلب أكثر من تغطية مناسبة، وهل من وسيلة أفضل من تغطيتها بتركيبة سيكولوجية شبه علمية تكون مليئة بالألفاظ والمصطلحات الحديثة ومعززة بالخرافات القديمة؟ وكله محسوب بحيث يُبعد الانتباه عن الحقيقة البسيطة الواضحة المتمثلة في دس السم.

قطب السيد فينابلز جبينه وقال: الثاليوم...؟ لا أظن أنني سمعت به من قبل.

– صحيح؟ إنه يستخدم بشكل واسع كسم للفئران، وفي بعض الأحيان كمستحضر للأطفال المصابين بمرض القوباء الجلدية. يمكن الحصول عليه بسهولة، وبالصدفة توجد علبة منه ملقية في إحدى الزوايا في سقيفة الأواني التابعة لمنزلك.

– في سقيفة بيتي؟ غير ممكن أبداً!

– وجدناها دون شك. وقد فحصنا محتوياتها لأغراض الاختبار...

بدا فينابلز منفعلاً بعض الشيء وقال: لا بد أن شخصاً قد وضعها هناك. لا أعرف عنها أي شيء... أبداً!

– هل هذا صحيح؟ أنت رجل غني يا سيد فينابلز، أليس كذلك؟

– ما علاقة هذا بالذي نتحدث عنه؟

– أظن أن مصلحة الضرائب قد راودتها شكوك قطيعة مؤخراً بخصوصك؟ أعني فيما يتعلق بمصادر دخلك.

– إن لعنة العيش في إنكلترا هي دون شك نظام الضرائب فيها. لقد فكرت مؤخراً بجدية في العيش في برمودا.

– لا أحسب أن بإمكانك الذهاب إلى برمودا قبل مضي وقت طويل يا سيد فينابلز.

– أهذا تهديد أيها المفتش؟ لأنه إن كان كذلك...

– كلا، كلا يا سيد فينابلز، إنه مجرد رأي. هل تحب أن تسمع مني كيف يتم ذلك العمل؟

– أنت عازم دون شك على إخباري.

– إنه عمل منظم جيداً. الأمور المالية يقوم بها محام محروم من مزاولة المهنة يدعى السيد برادلي، وله مكتب في بيرمنغهام حيث يزروه الزبائن المأمولون ويعقدون الصفقات. وتقضي تلك الصفقات بعقد رهان على أن شخصاً ما سيموت خلال فترة

محدودة. إن السيد برادلي (المولع جداً بالرهان) يكون في العادة متشائماً في تكهناته، أما الزبون فيكون أكثر تفاؤلاً. وعندما يربح السيد برادلي رهانه ينبغي على الزبون دفع المال على الفور... وإلا قد يحدث شيء سيء له. ذلك كل ما على السيد برادلي عمله... أن يقوم بالرهان. أمر بسيط، أليس كذلك؟ بعدها يقوم الزبون بزيارة «الحصان الأشهب» حيث تقوم الآنسة تيريزا غري وصديقاتها بتقديم عرض يؤثر عليه في العادة كما هو مقصود.

– حسناً، فلتدخل الآن بالحقائق البسيطة خلف هذه الأقنعة.

– توجد موظفات حقيقيات في إحدى الشركات التي تعنى بأبحاث المستهلكين يُطلب منهن الطواف في منطقة معينة لعمل أبحاث يسألن فيها أصحاب البيوت التي يقمن بزيارتها عن الخبز الذي يفضلونه ولوازم الحمام ومواد التجميل التي يستخدمونها والأدوية التي يتعاطونها، إلخ. وقد اعتاد الناس هذه الأيام على الإجابة عن مثل تلك الأسئلة؛ فهم نادراً ما يرفضون.

وهكذا، وصولاً إلى... الخطوة الأخيرة؛ خطوة بسيطة وجريئة وناجحة... العمل الوحيد الذي يؤديه الرأس المدبر لهذا المخطط! قد يلبس زي حمال أو بواب مجمع سكني، أو قد يأتي لقراءة عداد الغاز أو عداد الكهرباء، وقد يكون سباكاً أو كهربائياً أو عاملاً ما. وأياً كان فإنه يأتي حاملاً ما يثبت صحة شخصيته إذا ما طلب صاحب البيت أو صاحبته منه ذلك... ومعظم الناس لا يطلبون. وأياً كان الدور الذي يلعبه فإن هدفه

الحقيقي بسيط؛ فهو يستبدل بدواء أو طعام أو مستحضر يعرف (من خلال نتائج البحث) بأن ضحيته يستخدمه دواءً أو طعاماً أو مستحضراً مطابقاً يحضره معه (مسمماً بالثاليوم بالطبع)! قد يُصلح أنبوباً أو يفحص ضغط الماء.. ولكن دس المنتج المسمَّم هو هدفه الحقيقي. وبعد أن ينجز هذا الهدف يغادر فلا يُرى في تلك المنطقة بعد ذلك. وربما لا يحدث شيء خلال أيام قليلة، ولكن عاجلاً أم آجلاً ستظهر على الضحية أعراض المرض، وحين يُستدعى الطبيب لن يملك سبباً يدعوه لأن يشك بوجود شيء غير طبيعي. قد يسأل المريض عن الطعام الذي أكله والشراب الذي شربه والدواء تناوله، ولكن من غير المحتمل أن يشك في مستحضر أو طعام دأب المريض على استخدامه أو تناوله منذ سنوات طويلة.

وهكذا ترى دقة هذا المخطط يا سيد فينابلز: **الشخص الوحيد الذي يعرف ما يفعله رئيس المنظمة... هو رئيس المنظمة وحده. لا أحد يمكن أن يُفشي سره.**

سأله السيد فينابلز متسلياً: إذن كيف تعرف **أنت** كل هذه المعلومات؟

– عندما تكون لدينا شكوك في شخص معين، فلدينا طرق نستطيع التأكد من الأمر من خلالها.

– أحقاً؟ وما هي؟

– لا حاجة لأن نشرحها كلها... إن كل الأجهزة البارعة

ممكنة هذه الأيام. يمكن تصوير رجل دون أن يشتبه في الأمر؛ ولقد حصلنا –مثلاً– على بعض الصور الممتازة لحارس بناية يرتدي زي الحراس، وصور لرجل يسجل عداد الغاز، وهكذا. كان يضع شاربين مستعارين وطقم أسنان مختلفاً... إلخ، ولكن رجلنا هذا عُرف بسهولة... بواسطة السيدة إيستربروك (وهو الاسم المستعار للآنسة كاثرين كوريغن)، وأيضاً بواسطة امرأة أخرى تدعى إدث بنز. إن التعرف إلى شخصٍ ما أمرٌ مثير يا سيد فينابلز، وعلى سبيل المثال فهذا السيد المحترم هنا، السيد أوزبورن، مستعد لأن يقسم أنه رآك تتبع الأب غورمان في شارع بارتن ليلة السابع من أكتوبر الساعة الثامنة تقريباً.

مال السيد أوزبورن إلى الأمام وعيناه تطرفان من الدهشة والإثارة وقال: وقد رأيتك فعلاً... لقد وصفتك بكل دقة!

قال لوجون فجأة: بدقة أكثر من المطلوب! لأنكَ لم تكن قد رأيتَ السيد فينابلز في تلك الليلة عندما كنت تقف خارج محلك. **أنت لم تكن تقف هناك أبداً.** كنت **نفسك** في الجهة المقابلة من الشارع.. تسير خلف الأب غورمان إلى أن انعطف إلى شارع ويست، وأنت جئت خلفه **وقتلته**...

صاح السيد أوزبورن: ماذا؟

كان من شأن الموقف أن يكون مضحكاً... وقد كان مضحكاً فعلاً! فقد كان فاغراً فاه يحملق فيه...

– أريد أن أعرّفك يا سيد فينابلز بالسيد زكريا أوزبورن، الصيدلي الذي كان يعمل –فيما مضى– في شارع بارتن في بادينغتن. سوف تشعر باهتمام شخصي به عندما تعلم أن السيد أوزبورن (الذي كان تحت المراقبة منذ مدة) كان من الحماقة بحيث وضع علبة الثاليوم في سقيفة منزلك. ولأنه لا يعلم بعجزك فقد راقت له فكرة اتهامك بأنك ذلك المجرم المحترف، ولأنه –فوق حماقته– بالغ العناد، فقد رفض الاعتراف بغلطته الفاضحة.

صاح أوزبورن: أحمق؟ أتجرؤ على تسميتي أنا أحمق؟ لو كنت تعلم... لو كنت تعرف ما فعلته... وما أستطيع فعله... إنني...

اهتز أوزبورن وتلعثم في الكلام من الغضب.

نظر لوجون إليه بإمعان (مما ذكّرني بإنسان يتسلى باصطياد سمكة) ثم قال موبخاً: ما كان عليك أن تحاول التذاكي إلى هذا الحد. لو أنك بقيت في صيدليتك وتركت الأمور وشأنها لما كنتُ هنا الآن أحذرك –كما يقتضي واجبي– بأن أي شيء تقوله سيتم تدوينه و...

عندها بدأ السيد أوزبورن بالصياح والصراخ.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

– اسمعني يا لوجون... أريد معرفة الكثير من الأشياء.

كانت الإجراءات الرسمية قد انتهت، واختليت مع لوجون في أحد المقاهي.

– نعم يا سيد إيستربروك؟ أظن أن الأمر كان مفاجأة لك.

– بالتأكيد. كان عقلي مبرمجاً على فينابلز، ولم تُلمّح لي أبداً بشيء.

– لم يحتمل الحال التلميحات يا إيستربروك. على المرء القيام بهذه الأمور بكل تكتم وسرية؛ فالأمر دقيق وحساس. والحقيقة أننا لم نكن نعرف الكثير مما يمكننا الاستناد إليه، ولذلك اضطررنا لتمثيل الدور الذي فعلناه بالتعاون مع فينابلز. كان علينا إن نقود أوزبورن إلى المنزل ثم ننقلب فجأة عليه على أمل أن ينهار ويعترف... وقد نجحت الخطة.

سألته: هل هو مجنون؟

– أظن أنه قارب الجنون الآن. لم يكن كذلك في البداية بالطبع، ولكن مثل هذا الهوس يؤثر على المرء. قتل الناس أمرٌ يجعل المرء يشعر بالقوة والعظمة... ولكنه لا يكون كذلك في الحقيقة. لا يكون إلاّ مجموعة صغيرة من مركّبات الشر، وعندما يواجهه أحد بتلك الحقيقة فجأةً فإن غروره لا يتحملها؛ فتراه يصرخ ويتبجح بذكائه ويتباهى بما فعله. ألم تر كيف فعل؟

أومأتُ وقلت: إذن فقد كان فينابلز مشتركاً بالمسرحية التي أخرجتَها. هل أَحَبَّ فكرة التعاون هذه؟

– أظن أنه استمتع بها... وإلى جانب ذلك فقد كان من الوقاحة بحيث يقول إن الخدمة تستحق خدمة مقابلة.

– وما الذي قصده بتلك الملاحظة الغامضة؟

قال لوجون: أنت تعرف مشكلته مع الضرائب...

عدت للتفكير بزكريا أوزبورن وسألته: هل كنتم تشكّون بأوزبورن منذ البداية؟

قال لوجون: كان من شأن سلوكه أن يلفت الانتباه إليه. وكما قلت له: لو أنه جلسَ في صيدليته ولم يفعل شيئاً لما فكرنا أن صيدلياً محترماً مثله يمكن أن تكون له علاقة بهذا العمل، ولكن الأمر الغريب أن ذلك بالضبط هو ما لا يستطيع المجرمون عمله؛ أن يجلسوا في بيوتهم آمنين. إنهم لا يستطيعون البقاء

بعيداً عن المشكلات، وأنا فعلاً لا أعرف السبب. ربما كان الوحدة والعزلة... معرفتك بأنك شخص ذكي مع عدم وجود أحد تستطيع أن تحدثه عن ذلك.

– لم تخبرني متى بدأت تشك فيه؟

– منذ أن بدأ يدلي بأكاذيبه. طلبنا من كل شخص شاهد الأب في تلك الليلة أن يأتي ليبلغنا، وقد اتصل بنا فكانت الشهادة التي أدلى بها محض افتراء وكذب. قال إنه رأى رجلاً يسير وراء الأب غورمان، ووصف لنا الرجل، ولكن لم يكن من الممكن أن يراه في الجهة المقابلة من الشارع في ليلة ضبابية. ربما استطاع رؤية أنف معقوف من الجانب، ولكن من المبالغة الادعاء برؤية الحنجرة البارزة... كان ذلك مبالغة مفرطة. وربما كان من شأننا اعتبار تلك الكذبة بريئة تماماً؛ لأن السيد أوزبورن ربما أراد أن يجعل من نفسه شخصية هامة. الكثير من الناس هكذا. لكن ذلك جعلني أركز انتباهي عليه وكان رجلاً غريباً فعلاً. بدأ على الفور يخبرني بأشياء كثيرة عن نفسه، وكان ذلك عملاً غير حكيم منه؛ فقد أعطاني صورة عن شخص يريد دوماً أن يكون أكثر أهمية من حقيقته. نحن لا نعرف –بالطبع– متى خطرت له فكرة أنه قد يصبح مجرماً كبيراً، رجلاً ذكياً جداً، لن يكشف أحدٌ أمره أبداً.

ولكن ذلك مجرد ظنون. وإذا ما عدنا إلى موضوعنا نجد أن وصف أوزبورن للرجل الذي رآه في تلك الليلة كان مثيراً

للاهتمام؛ كان واضحاً جداً أنه وصفٌ لشخصٍ حقيقي رآه ذات مرة، فكما تعلم: يصعب إلى حد بعيد اختلاق وصف متكامل لأي شخص؛ العينان، والأنف، والذقن، والأذنان، وكل هذه الأشياء. إذا حاولت القيام بذلك ستجد نفسك تصف -دون وعي منك- شخصاً رأيته في مكان ما. ومن الواضح أن أوزبورن كان يصف شخصاً ذا صفات غير عادية. أظن أنه رأى فينابلز جالساً في سيارته في بورنماوث ذات يوم فأثار انتباهه. وإذا كان قد رآه في السيارة على تلك الحال فإنه ما كان ليدرك بأن الرجل كان مقعداً.

وسبب آخر جعلني مهتماً بأوزبورن؛ وهو أنه صيدلي. شعرت أن من المحتمل أن يكون لتلك القائمة التي عندنا علاقة بتجارة المخدرات في منطقة ما، والواقع أن ذلك لم يكن صحيحاً، ولذلك ربما كان من شاني أن أنسى كل شيء عن السيد أوزبورن لو أن السيد أوزبورن نفسه لم يكن مصمماً على البقاء في صورة ما يجري. أراد أن يعرف ما كنا نفعله، وهكذا كتب يقول إنه رأى الرجل الذي قال عنه في مهرجان في متش ديبنغ. لم يكن يعلم وقتها أن السيد فينابلز كان مصاباً بالشلل، وعندما عرف ذلك لم يكن من الحصافة بحيث يبقى صامتاً. وبسبب غروره (الغرور التقليدي للمجرم) ما كان ليعترف لحظة واحدة بأنه كان مخطئاً، وكالأحمق ظل على أقواله ووضع كل النظريات المنافية للعقل.

كانت فكرته ذكية... ينبغي لنا أن نعترف له بهذا. برادلي في بيرمنغهام، تيريزا غري تعقد جلسات تحضير الأرواح في متش ديبنغ. ومُنْذا يشك في السيد أوزبورن الذي لا تربطه صلة بتيريزا غري ولا ببرادلي وبيرمنغهام، ولا صلة له بالضحية؟ كانت آلية العمل أسهل من لعب الأطفال بالنسبة لصيدلاني. وكما قلت، لو كان السيد أوزبورن من الحصافة بحيث لا يتكلم لصَعُب تماماً اكتشافه.

سألته: ولكن، ماذا فعل بالمال؟ فالمفروض -في النهاية- أنه فعل هذا كله من أجل المال؟

- آه، نعم، فعل ذلك من أجل المال. كانت له أحلام عظيمة دون شك، يرى فيها نفسه غنياً ومهماً أو مسافراً يرفه عن نفسه. أحسب أن إحساسه بالقوة كان ينتعش ويتعاظم كلما قام بالارتكاب الفعلي لجريمة قتل، والأدهى من ذلك أنه سيستمتع وهو داخل القفص في المحكمة... أراهنك أنه سيستمتع بذلك. سيرى نفسه الشخصية المحورية التي تتركز عليها كل الأعين.

سألته: ولكن ما الذي فعله بالمال؟

- آه، هذا بسيط للغاية، رغم أنني لا أعرف إن كنتُ قد فكرتُ في هذا الأمر قبل أن أرى كيف أثث منزله الصغير. كان بخيلاً بالطبع. لقد أحب المال، وكان يريد المال ولكن لا بقصد إنفاقه. كان منزله ذاك قليل الأثاث، وقد اشترى كل ما فيه من المزادات بأسعار رخيصة. لم يكن يحب إنفاق الأموال، وإنما

كان يريد امتلاكها فقط.

سكتنا لبعض الوقت بينما كنت أتأمل شخصية أوزبورن الغريبة تلك.

قال لوجون متأملاً: كان من شأن كوريغن أن يعزو ذلك كله إلى غدة في طحاله أو بنكرياسه أو أشياء كهذه، أما أنا فأعتبرُ نفسي رجلاً بسيطاً؛ ولذلك أظن أنه مجرد شخص منحرف. ولكن ما يحيرني (وما حيرني دائماً) هو كيف يمكن لرجل أن يكون ذكياً جداً وهو -مع ذلك- على هذه الدرجة من الحماقة التامة.

قلت: إن المرء يتخيل العقل المدبر للجرائم شخصاً شريراً عظيماً مهيباً.

هز لوجون رأسه وقال: الأمر ليس هكذا أبداً؛ فالشر ليس شيئاً متفوقاً على البشر. إنه أقل من البشر... المجرم شخص يريد أن يكون هاماً ولكنه لا يصبح هاماً أبداً، لأنه سيكون دائماً أقل من إنسان.

* *

الفصل الرابع والعشرون

بدا كل شيء في قرية متش دينغ طبيعياً.

كانت رودا مشغولة بعلاج الكلاب، وعندما وصلت رفعت بصرها وسألتني إن كنت أريد مساعدتها. رفضت وسألتها عن مكان غينغر.

- لقد ذهبت إلى «الحصان الأشهب».

- ماذا؟

قالت إنها تريد عمل شيء هناك.

- لكن البيت فارغ.

- أعرف.

- سوف ترهق نفسها؛ إنها لم تتعافَ بعد.

– أنت تبالغ في الأمور يا مارك... غينغر بخير. بالمناسبة، هل رأيت قصة السيدة أوليفر الجديدة؟ إنها على الطاولة هناك، وهي بعنوان «الببغاء الأبيض».

– بارك الله في السيدة أوليفر، وفي إدِث بنز أيضاً.

– من هي إدث بنز هذه؟

– إنها امرأة تعرفت إلى صورة، كما أنها مساعدة مخلصة لإحدى قريباتي الراحلات.

– لا معنى لأي شيء تقوله... ماذا دهاك؟

لم أجبها، بل انطلقت إلى «الحصان الأشهب». وقبل أن أصله التقيت بالسيدة كالثروب. حيتني بحماسة وقالت: كنت أعلم من البداية أنني غبية، لكني لم أفهم السبب... خدعتني الزخارف والشكليات.

لوحت بذراعها نحو النزل الذي كان فارغاً وساكناً تحت شمس أواخر الخريف. قالت: لم يكن الشر هناك أبداً... ليس بالمعنى المُفترض. كانت مجرد خدع تتم من أجل المال... دون قيمة لحياة الإنسان. إنها نذالة حقيقية. لم تكن في الأمر عظمة أو رهبة... بل تفاهة وخسة.

– يبدو أن عقليتك تتفق كثيراً مع عقلية المفتش لوجون.

قالت السيدة كالثروب: أنا معجبة بهذا الرجل. هيا ندخل

إلى «الحصان الأشهب» لنرى غينغر.

– ما الذي تفعله هناك؟

– إنها تنظف شيئاً ما.

دخلنا إلى البيت من البوابة الصغيرة لنجد غينغر مشغولة بتنظيف اللوحة على الجدار، وعندما دخلنا رفعت بصرها. كانت لا تزال شاحبة نحيفة وتغطي رأسها بمنديل حيث لم ينبت شعرها من جديد بعد. كانت تبدو كالشبح.

قالت السيدة كالثروب وهي تقرأ أفكاري كالعادة: إنها بخير.

قالت غينغر فرحة: انظروا!

كانت تشير إلى لوحة النزل القديمة وقد نُظِّفت من الأوساخ المتراكمة عليها من سنوات طويلة فبان واضحاً رسم الفارس الذي يركب الحصان.

وقفنا صامتين لحظات، ثم قالت السيدة كالثروب بنبرة من يرمي شيئاً في سلة المهملات: "هذا هو الأمر إذن!". ثم أضافت تقول: لا بد أن أذهب الآن... اجتماع الأمهات.

وقفت عند مدخل الباب وأومأت لغينغر وقالت على نحو غير متوقع: ستكونين أماً رائعة.

احمر وجه غينغر لسبب ما...

قلت: غينغر، هل تقبلين؟

- أقبل ماذا؟ أن أكون أماً رائعة؟

- تعرفين ما أعنيه.

- ربما... ولكني أفضّل عرضاً واضحاً منك.

وقدمت لها عرضاً واضحاً...

* * *